ي.إ. كولتشيتسكايا

تربية مشاعر الأطفال في الأسرة

مراجعة

د. ماجد علاء الدين

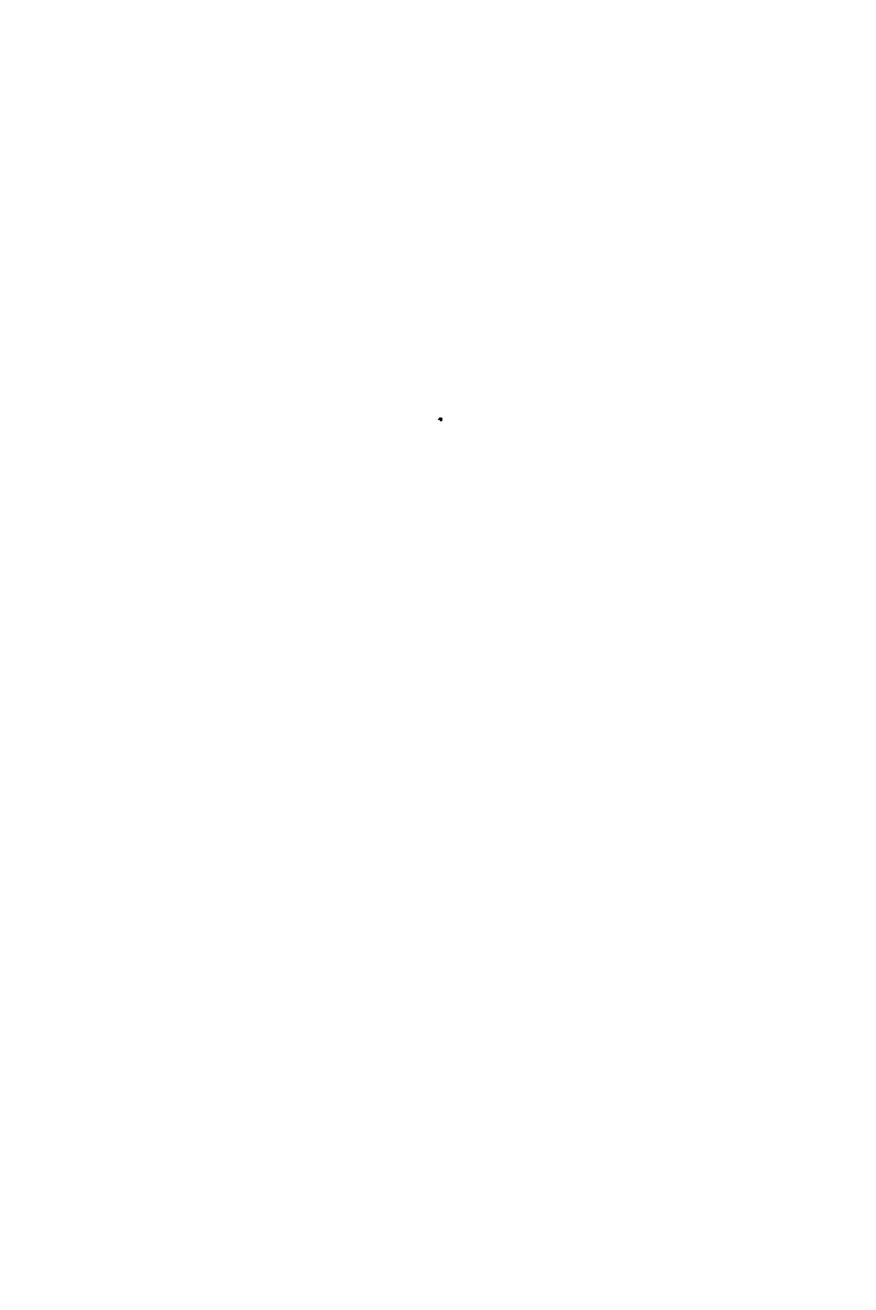


ترجمة

. عبد اللطيف أبو سيف

تربية مشاعر
الأطفال في الأسرة

تربية مشاعر
الأطفال في الأسرة



ي. إ. كولتشيتسكايا

تربية مشاعر الأطفال في الأسرة

ترجمة
د. عبد المطلب أبو سيف

مراجعة
د. ماجد علاء الدين



منشورات دار علاء الدين

- تربية مشاعر الأطفال في الأسرة.
- تأليف: ي. إ. كولتشيتسكايا.
- ترجمة: د. عبد المطلب أبو سيف.
- مراجعة: د. ماجد علاء الدين.
- الطبعة الثانية 2010.
- عدد النسخ /1000/ نسخة.

- تمت الطباعة في دار علاء الدين للنشر.
- هيئة التحرير في دار علاء الدين:

- الإدارة والإشراف العام: م. زويا ميخائيلينكو.
- المتابعة الفنية والإخراج: أُسامة راشد رحمة.
- التدقيق اللغوي: أماني محمد عبده.
- الغلاف: أمل كمال البقاعي.

دار علاء الدين

للنشر والتوزيع والترجمة

سورية، دمشق، ص. ب: 30598

هاتف: 5617071، فاكس: 5613241

البريد الإلكتروني: ala-addin@mail.sy

ماذا تعني
المشاعر و الانفعالات؟

يتحدد نشاط الإنسان بعقله وعواطفه. فالعقل يتحكم بتصرفات الفرد ويوجهها ويقود صاحبه إلى الطريق الصحيح، ويشرف على تنسيق أفكاره ويساعده على مقارنة سلوكه بالمقاييس الأخلاقية والتقاليد الاجتماعية السائدة. أما العواطف؟ فإنها غالباً ما توقعنا في الحيرة والتردد وتحرفنا عن طريق الصواب، وتجعل تصرفاتنا متناقضة، وترغمنا على الإفصاح عن أشياء نعتبرها بمثابة أعمق الأسرار. إذاً، فالعواطف تعيقنا عن التمتع بالحياة الهادئة، وكان من المحتمل أن نعيش حياة أكثر سهولة وراحة فيما لو استطعنا ألا نعاني أو نضطرب أو نغار أو نشعر بتأنيب الضمير أو نحب، لكن كيف يمكن أن يتسنى لنا ذلك وقد خلقنا على ما نحن عليه من الشعور بالواجب. إننا نحدد دوماً مشاعرنا تجاه الأشياء التي تعترض سبيلنا: نبتهج عندما نرتدي حلة جديدة، ونتمتع بسماع الموسيقا المؤثرة، ونذهب إلى المسرح بكل سرور، وتسيطر علينا مشاعر الإعجاب بمؤلفات الأدباء الخالدين.

إننا نقلق ونكره ونخاف ونخجل ونتمتع ونعاني إلى غير ذلك من مشاعر إنسانية لا تحصى. فالشعور هو علاقة الإنسان بالعالم المحيط وبالناس الذين يعيش معهم وصلته بالأشياء، والمواد وألوانها وأصواتها ورائحتها وشكلها. وكل هذه الأمور تلاقي في داخلنا صدى قوياً من الانفعالات التي نعيشها كحالات نفسية متوترة فالشعور يسيطر أحياناً على كياننا كلياً، بحيث لا يعود بإمكاننا التخلص منه وإن لجأنا إلى قوة الوعي والعقل، ويمكن للعواطف في بعض الحالات أن تتحكم بسلوك الإنسان بصورة مستبدة، وعلى الرغم من كل ذلك فإن هذه المشاعر الجامحة بالذات هي التي تجعل حياتنا ممتعة وجديرة بالاهتمام، وبفضل

عواطفنا نستطيع الإحساس بالسعادة والفرح والبهجة والمحبة، فنحن نتمتع بالجمال، ونشعر ببالغ السرور عند اكتشاف الشيء الجديد.

والمشاعر متناقضة؛ فنحن نحب ونكره، ونشعر بالمتعة أو التقزز، ونفرح أو نحزن، كما تتميز المشاعر بعمقها وقوة تأثيرها، فبمقدار أهمية الأمر بالنسبة لنا ومدى خطورة الوضع، وبمقدار ما نكن للإنسان من احترام تتولد في داخلنا مشاعر عميقة أو سطحية عابرة. فكم نشعر بالألم وبالمرارة عندما يبدي لنا الصديق مظاهر اللا مبالاة وعدم الاهتمام، لكننا لا نحس بأي شيء من هذا القبيل إذا أتى هذا التصرف من إنسان غريب. وكم نبتهج ونفرح لدى سماعنا الأخبار السارة، وكم نبتئس ونحزن عندما نفقد من نحب. إن الشعور العميق يستحوذ على كياننا بالكامل ويوقعنا في أسره بحيث نفقد القدرة على التحرر من ربقته، لكن يا للعجب، فجميع المشاعر، حتى أكثرها قوة، تخضع لقانون التكيف. فالشيء الذي كان يثير فينا أقصى درجات الإعجاب في وقت ما، يصبح بعد فترة معينة، بعد شهور أو سنوات أمراً مضحكاً وساذجاً، والشيء الذي كان سبباً للحزن العميق والكرب الشديد لا يلبث أن يتحول إلى شعور يعيشه المرء بهدوء وسكينة. ولكي يكون الشعور قوياً يجب أن يذكر بمؤثر ما، وأن يملك معيناً لا ينضب.

كيف يمكننا أن نميز بين المشاعر؟ إن المشاعر متعددة ومختلفة ومع ذلك يمكننا أن نستقرئ بدقة مشاعر الآخرين ونقول: هذا امرؤ وقع في مصيبة، وذلك مبتهج، وهذا مضطرب لسبب ما، أما ذلك فحزين، فكيف نقوم بالحصول على مثل هذه المعلومات؟

أدهش داروين العلماء وأثار حيرتهم بنظرية الاصطفاء الطبيعي التي قام بوضعها في القرن الماضي. فمن أجل إثبات صحة نظريته المتعلقة بنشأة الإنسان قدم في بحثه «التعبير عن الانفعالات عند الحيوانات والإنسان» برهاناً قاطعاً مبنياً على الحقائق الجلية يؤكد فيه أن المشاعر والانفعالات التي كانت تعتبر «من أقدس مقدسات» الروح الإنسانية موجودة أيضاً لدى الحيوان. لقد اتضح أن أقرباءنا الصغار يعبرون عن انفعالات دقيقة ومحددة بتلويح الذيل أو هز الرأس، وبصرير الأسنان أو اتخاذ وضعية تنذر بالخطر، أو بإصدار الأصوات الحادة. وبالفعل فليس من الصعب

تمييز التشابه في الصورة الظاهرية للغضب والفزع والحزن وغير ذلك من المشاعر التي يشترك فيها الإنسان والحيوان. لقد كتب تشارلز داروين: «... إن الأجيال القديمة والحديثة لمختلف العروق البشرية، بالإضافة إلى أنواع الحيوانات المتعددة، تعبر عن حالات نفسية متماثلة بحركات متشابهة»، وبالفعل، إذا راقبنا الكلب في حالة الغضب كيف يصر أسنانه شاداً أذنيه إلى رأسه ونافضاً شعره، نجد أن كل ما في ملامحه يشير إلى التهيؤ والهجوم. والإنسان في حالة الغيظ والحزن يكتسب ملامح وتعابير مشابهة: الأسنان المطبقة، والقبضات المشدودة، والوجه الممتقع، والعينان البراقتان والرأس المرفوع..

وعلى الرغم من وجود هذه الملامح المشتركة التي تلاحظ في الانعكاسات الخارجية لمشاعر الناس والحيوانات، إلا أن مشاعر الإنسان تختلف جذرياً عن انفعالات الحيوان. وقد ظهر هذا التمايز أثناء التطور التاريخي للمجتمع الإنساني. فتلك النزعة الوراثية، التي أخذها الإنسان عن أجداده الحيوانات، تغيرت واكتسبت شكلاً إنسانياً بحتاً. كتب كارل ماركس: «الجوع هو الجوع إلا أن الجوع الذي يشبع باللحم المطبوخ المتناول بواسطة السكين والشوكة، هو جوع مختلف تماماً عن ذلك الجوع الذي يرغم صاحبه على ابتلاع اللحم النيئ والتهامه باليدين وبالأظافر وبالأسنان». هذا يعني أن المشاعر اكتسبت تدريجياً صورة إنسانية وملامح نبيلة بشكلها الخارجي ومضمونها الحقيقي. فالإنسان المعاصر المتحضر لا يسمح لنفسه، حتى في ثورة الغضب، بضرب الإنسان الآخر أو احتقاره أو إهانته، بل يستطيع اختيار شكل آخر أكثر نبلاً للتعبير عن مشاعره، فعندما تحل به مصيبة لن يأخذ بالعويل والانتحاب ونتف شعر الرأس، والتمرغ على الأرض، كما كان يفعل أجدادنا منذ أمد ليس ببعيد. إن الإنسان عبر تربيته في المجتمع يصبح متمكناً من السيطرة على انفعالاته وكبح جميع مظاهرها الزائدة، إذاً فالمشاعر الإنسانية أغنى وأعقد وأكثر تنوعاً من الانفعالات الحيوانية، إذ إن ظهور العمل والاختلاط وتبلور الاحتياجات الروحية ولّد عند الإنسان مشاعر نوعية جديدة. مشاعر أخلاقية متعقلة جمالية. ويتحدد مضمون المشاعر الإنسانية بنمط المعيشة وبالعلاقات الاجتماعية السائدة.

وهكذا، وإن كنا نستطيع إيجاد الكثير من المظاهر الخارجية المشتركة بين مشاعرنا وبين انفعالات أجدادنا الحيوانات، إلا أن المشاعر الإنسانية تتحدد بالظروف الاجتماعية التاريخية.

ما هي ردود الفعل الخارجية التي تنتمي إلى ما يسمى بالحركات التعبيرية المرافقة لهذا الشعور أو ذاك؟ إن التعبير عن الانفعال يشمل ردود الفعل الإيمائية، والتغيرات التي تجري في حالة نشاط الأعضاء الداخلية، بالإضافة إلى التغيرات الحيوية (النشاط الكيميائي في الدم وتفاعلات التبادل وغير ذلك). وإذا كانت الحركات الإيمائية عند الحيوانات تستخدم كواحدة من طرائق التأقلم البيولوجي مع البيئة، فإنها عند الإنسان تستخدم للقيام بوظيفة أخرى؛ إذ تعتبر أحد أشكال التعايش والمخالطة، وعلى أساسها يمكن أن نستقرئ نظرة الإنسان إلينا ونحدد شعوره نحونا، وماذا يعجبه وماذا يحب وماذا يكره. لقد أكد ك. د. أوشينسكي أنه لا شيء يعبر عن أنفسنا بشكل صادق ودقيق مثلما تعبر المشاعر. أما إذا أضفنا إلى المشاعر ما يرافقها من تصرفات فإننا نحصل على «لوحة» للشخصية التي سوف نقوم بالتعرف عليها. وتعتبر ردود الفعل الإيمائية أكثر الظواهر القابلة للاستيعاب المباشر من بين جملة المشاعر المختلفة؛ فالعيون المفتوحة بكامل اتساعها والمتوهجة ببريق الفرح، والحاجبان المرفوعان، والثغر المبتسم، والوجه المتورد «يزفون» لنا أن الإنسان يشعر بالسرور أو يعيش لحظات من السعادة. إن الابتسامة وتعبير العيون تسمح لنا «باستقراء» جميع مسحات المعاناة الداخلية: فهناك ابتسامة خجولة، ورقيقة، ومتعجرفة، وفرحة، ومريرة. كما أن هناك إحصاء يفيد بأن ل. ن. تولستوي ذكر في مؤلفاته خمساً وثمانين سمة لتعابير العيون وسبعاً وتسعين سمة للابتسامة تعبر عن الحالات العاطفية المختلفة لأبطال رواياته. فلنتذكر كيف وصف ل. ن. تولستوي تعابير وجه ناتاشا روستوفا أثناء اعتنائها بالأمير الجريح أندريه: «عندما هرعت راكضة، كان وجهها المضطرب ينم عن تعبير وحيد. تعبير الحب الحي الذي لا ينتهي له ولها، ولكل من كان قريباً من ذلك الإنسان الحبيب، تعبير الشفقة والتألم من أجل الآخرين والرغبة المتأججة بأن تهب نفسها بالكامل لمساعدتهم.

واستطاعت الأميرة ماسيا من النظرة الأولى إلى وجه ناتاشا أن تدرك كل ذلك، فأجشهت باكية على كتفها متلذذة بآلام المصيبة...»

بيد أننا نصبح قادرين على فهم الإنسان بصورة أفضل إذا استطعنا سماع صوته ومراقبة حركاته وردود فعله الإيمائية. فعلى أساس سلوك الإنسان وحركته وحالته العامة يمكن الاستدلال والقول إنه حزين أو مضطرب، أو مغتاظ أو حاقد، أو إنه يواجه موقفاً صعباً، فالكآبة مثلاً يمكن أن تكتشف عبر تعابير الوجه، وعبر المظهر العام للإنسان المكتئب أيضاً، الذي ينبئ عن الحزن والكرب العميق. أما حالة الإنسان المغتاظ فتلاحظ بواسطة أسنانه المطبقة وهيئته المتوترة وصوته المتحول إلى صراخ، ويصبح لدى الإنسان إمكانية أكبر للتعبير عن انفعالاته عندما يشترك جهازه الصوتي في هذه العملية. فبتغير شدة الصوت أو طبقته يمكننا التعبير عن السمات المختلفة للمشاعر، كالرقة والغضب والانشراح والتردد والتخوف.. ذكر أزس ماكارينكو أنه لم يصبح مربياً حقيقياً إلا بعد أن تعلم قول عبارة «تعال إلى هنا» بـ 15-20 نبرة صوتية مختلفة، وأن يقدم عشرين صفة مميزة لشكل الوجه والقامة والصوت.

إن تلوين الكلمات بطبقات مختلفة من النبرات الصوتية لا يستخدم كوسيلة للتعبير عن الحالة الانفعالية فحسب، بل يساعد أيضاً في التأثير في الآخرين، ويمكن أن يصبح أداة لتقدير الأحداث التي تجري في الواقع المحيط. والكلمات التي تخرج من الفم بنبرة مناسبة تؤثر في الإنسان بصورة أشد كونها تولد في داخله أفكاراً مطابقة وصدى انفعالياً قوياً. فالتلوين الانفعالي يمكن من التعبير بكلمة واحدة عن حالات مختلفة من الشك والسرور والاستهزاء البالغ والإعجاب والاحتقار.

إننا نستخدم في حياتنا اليومية أثناء معاشرتنا للآخرين مصطلحاً وحيداً للتعبير عن حالة الفرد الانفعالية، هو كلمة الشعور، إلا أن مجال الانفعالات الإنسانية في الحقيقة أوسع بكثير ويمكن أن يصاغ بواسطة جملة مفاهيم كانفعالات المشاعر، والصورة الانفعالية للإحساس، والحالات الانفعالية (الحنق، الشغف، الإحباط، المزاج).

اللهجة الانفعالية: هي بمثابة التلوين الانفعالي لأحاسيسنا ومشاعرنا، فعندما نختلط مع الآخرين، أو لدى شراء تلك المجموعة أو غيرها من الأشياء أو الأطعمة، أو

أثناء التنزه في الشارع والانتقال إلى أحضان الطبيعة نصادف في كل مكان الخواص المتنوعة والمتعددة للأشياء. نشم الرائحة، ونتذوق الطعم، ونسمع الأصوات، ونرى الألوان. إن هذا التعارف الأولي العارض مع الأشياء يشكل بالنسبة لنا مرحلة مهمة. نحن نقول: رائحة كريهة، وعمل مجهد، وكتاب ممل، وتصرف مثير للاستياء، ولون مهدئ، ولهجة باردة، وقصة مضحكة... إلخ. إن هذا التلوين الانفعالي للأشياء هو خاصية مميزة للإنسان.

إن خصائص الأحاسيس والانطباعات تملك أهمية عملية بالغة لكل فرد بحد ذاته في مجال نشاطه الإنتاجي وأثناء اختلاطه مع الآخرين وفي جميع جوانب حياته العادية. فالرائحة الكريهة لهذا الصنف من الطعام أو ذاك ليست كريهة وحسب، وإنما تصرخ فينا محذرة: «الزموا الحذر! فالطعام فاسد!!» واللون الأبيض لا يثير القلق فقط بل يقول: «إن البياض الناصع يسبب الآلام الشديدة للعيون». إن ضجيج المصانع والروائح الكريهة والوضعية العامة غير المريحة لمكان العمل تؤدي إلى خفض مقدرة الإنسان على العمل وزيادة كمية المصنوعات التالفة.

إن الانفعال بعكس اللهجة الانفعالية، فهو ظاهرة نفسية أكثر تعقيداً. فالانفعال يتولد في حالة محددة، ويملك مضموناً مميزاً، ويترافق بردود فعل تعبيرية موافقة، والانفعال: هو معاناة مباشرة تتولد في حالة يعبر الإنسان بواسطتها عن موقفه من هذه الحالة، وهكذا فنحن نحس باللذة والإعجاب والغبطة عندما نقرأ كتاباً شيقاً، أو نستمع إلى مقطوعة موسيقية مجندة. إننا نخشى العتمة، لذلك فنحن نتجنب المرور في الشوارع المظلمة أو البقاء في الحجرات المعتمة، لكن إذا حدث واضطررنا إلى العودة إلى البيت في ساعة متأخرة من الليل فسوف نقع تحت سيطرة شعور الفزع؛ فكل حفيف سيوقع الرجفة في قلوبنا، وسنخدر ونتسمر رعباً ونتصبب عرقاً بارداً. وترتبط الانفعالات عادة بانطباعات مباشرة؛ تلقينا نبأً سيئاً لذلك نحن متكدرون وفي غم شديد.

وصف ف. غ. بيلينسكي في رسالته إلى ف. ب. بوتكين، المؤرخة في 8 أيلول عام 1841 شعور الغضب الذي اجتاحه بسبب تصرف جاره اللا إنساني تجاه زوجته كما يلي: «... يعيش بجواري مأمور على قدر كافٍ من الغنى، لكني عرفت منذ

أجل قريب أنه أدمى شفتي زوجته وكسر أسنانها، وجرجرها من شعرها على الأرض، وقام بضربها المبرح لأنها لم تحضر له القشدة الجيدة مع القهوة.. ولدى سماع هذه القصة صررت أسناني غضباً، وبدا لي أن حرق هذا الطاغية على نار هادئة هو أقل عقوبة يمكن إنزالها به، وقد لعنت عجزي لأنه لم يكن باستطاعتي أن أذهب وأقتله كما تقتل الكلاب».

وهكذا فالانفعال يتولد دائماً في حالة معينة، ويظهر بصورة مفاجئة وسريعة، ويتصف بصعود حاد في بدايته ليأخذ فيما بعد بالتخامد.

بيد أن الانفعالات لا تعيش في نفس الإنسان بصورة مستقلة، وإنما تشترك في تركيب مشاعره المعقدة والثابتة، أما المشاعر فتتجسد بصورة انفعالات محددة، وبما أننا نهوى سماع الموسيقا، فنحن نذهب إلى المسرح ونحضر الحفلات الغنائية، ولا ندع حدثاً مهماً يفوتنا في الحياة الموسيقية لمدينتنا، ونطالع المؤلفات الثقافية التي تشمل هذا المجال. إن هذا الشعور العام الثابت نحو الموسيقا يظهر في انفعالات محددة: يتملكنا إعجاب شديد لدى الإصغاء إلى موسيقا بيتهوفن التي يعزفها ريختر، وسعادتنا لا توصف بشراء المؤلف الموسيقي الجديد، الذي ساعدنا في الحصول على دفاتر موسيقية نفيسة.. إلخ، إن مجال الانفعالات المتنوعة التي تنصب فيه المشاعر يمكن أن يكون واسعاً بلا حدود. فكل شيء يتعلق بمضمون الشعور.

ويمكن أن ننسب إلى جملة الانفعالات كلاً من الهيجان، والشغف، والتوتر النفسي، والمزاج. إن الهيجان هو رد فعل انفعالي عارم جداً وشديد يؤثر لفترة مؤقتة. فالغضب والغيظ والرعب أشكال مختلفة لحالة الهيجان، كما يوجد هناك حالات هيجان نفسية كالغيرة الجامحة والسعادة المفرطة والكره المقيت وغير ذلك. فالهيجان هو ومضة برق، وعاصفة مجنونة، وإعصار محتدم. وفي حالات الهيجان يفقد الإنسان عادة السيطرة على إرادته وتصرفاته ورباطة جأشه، ويختل لديه الإحساس الواعي بالواقع، إننا غالباً ما نصبح شهوداً على ما يفعله الإنسان أو يقوله في ثورة الحنق أو نوبة الفرح الجامح، والتصرفات التي لم يكن ليفعلها في غير تلك الحالة النفسية، والتي يندم عليها فيما بعد. ومعظم الأحيان التي تحدث فيها حالات الهيجان عند المرء في المواقف الحياتية الحرجة، ويمكن للهيجان أن يثور بشكل

مفاجئ وعنيف، لكنه يتولد أحياناً من تراكم جملة عوامل للنفس يتلقاها الإنسان من الأشياء المحيطة به تدريجياً.

بيد أن ميل الإنسان نحو ثورات الهيجان لا يتحدد فقط بحالة جملته العصبية أو طبعه (التي غالباً ما تبرر بها مثل تلك الثورات الانفعالية)، وإنما يتعلق أيضاً بدرجة تهذيبه ومقدرته على ضبط النفس. فثورات الهيجان التي تظهر نتيجة لأسباب واهية هي مظهر من مظاهر الاستهتار وقلة الحشمة.

ويعتبر الولع والتعلق قريبين من الهيجان. فالولع هو أيضاً انفعال عاصف قوي يلف الإنسان بالكامل ويخضعه لسيطرته. لكن الولع يختلف عن الهيجان بديمومته وثباته، ويظهر دوماً في تركز وتوحد طاقات الإنسان وفي توجيهها لبلوغ الغاية التي تجتذبه.

كتب ن. غ. تشيرنيشيفسكي أن الولع يأسر الفرد بأشكال مختلفة وذلك حسب وجود أو غياب العقبات التي تعترض سبيل إشباعه. فالأهواء الشديدة تغلي داخل المرء بصورة عاصفة، ولا سيما عندما تواجه صعوبات جمة في طريقها، أما عندما يصادف الإنسان ظروفاً مناسبة، فإن ولعه، مهما كان قوياً، يحافظ على صورته الهادئة. ويمكن التحدث عن شغف الإنسان وولعه بعمله، وعن رغبته الجامحة ببلوغ شيء مهم أو تحقيق غاية سامية. ويتحدد مضمون بالغ بالمعنى الأخلاقي للهدف الذي يتوجه الإنسان إليه عبر هذا التعلق. فيمكن أن يكون لدى الإنسان ولع بالعلم والبحث، أو شغف بالأدب والفن، أو تعلق بالمطالعة والمسرح، أو ميل شديد لشرب المسكرات وتعاطي المخدرات ولعب القمار، أو توق إلى الثراء.. إلخ. ويجب أن يتمتع الفرد بإرادة صلبة حتى يستطيع إدراك منحى رغباته وأهوائه وكي يتمكن من لجمها إن كانت ذات صفات هدامة، إذ يمكن للأهواء أن تسيطر على إرادة الإنسان سيطرة تامة.

ويشمل مجال الانفعالات النفسية الإنساني ظاهرة الاضطراب والتوتر النفسي «Stress» لقد ظهر هذا المصطلح منذ أمد قريب. والمعنى اللفظي السطحي لمصطلح الاضطراب النفسي «Stress» هو التوتر العصبي. واللفظة الإنكليزية «Stress»، تعني الضغط والتوتر والإثقال، أما في المؤلفات العلمية فتأتي هذه الكلمة بمعنى «رد

الفعل الاستثنائي غير الطبيعي للجسم على الأمر الذي يطلب منه». كيف يمكن فهم هذا التعريف؟ لقد علق هانس سيليه مؤسس نظرية الاضطراب النفسي على هذا التعريف بقوله: إن جسمنا يقوم برد فعل طبيعي مميز له على كل أمر يطلب منه فحين نتناول طعاماً مالحاً، نشرب الماء بكثرة من أجل طرح الجزء الزائد من الملح الذي تناولناه، وعند البرد القارس ترتجف أوصالنا وتتضيق أوعيتنا الدموية كما ينقص مقدار الإشعاع الحراري للجسم، أما في الحر فنتعرق بكثرة وهذا التعرق يحمينا من حرارة الشمس الزائدة. وكل ذلك يأتي كرد فعل طبيعي للجسم على المؤثرات الخارجية. ولكن عند مواجهة الحالات العصبية والخطر المحدق، وعند الإرهاق الجسدي والنفسي، أو في لحظة توجب اتخاذ القرارات السريعة والمهمة جداً تتولد حينها لدى الإنسان ردود فعل استثنائية غير عادية تهدف لحماية النفس مما يحيق بها من خطر، ونتيجة ذلك يكرس الجسم كل طاقاته للرد على هذه المؤثرات الخارجية الخارقة، وتؤدي حالة الاضطراب والتوتر النفسي إلى ظهور تغيرات واسعة في عمل القلب والأوعية والجهاز التنفسي، كما تسبب انقلابات في التركيب البيوكيميائي للدم، وتغير الناقلية الكهربائية للجلد، بالإضافة إلى ذلك يظهر اختلال واضح في سلوك الإنسان، حيث يصبح هذا السلوك غير مترابط بدرجات متفاوتة ولا يقتضي هدفاً محدداً، وتبرز فيه تصرفات غير لائقة، ويصبح الكلام متقطعاً عديم الترابط، وعند الاضطراب النفسي الشديد تصبح التغيرات في السلوك والعوامل النفسية واضحة بشكل أكبر، ويختل الانتباه ويتشتت، وتلاحظ بشكل خاص صعوبة كبيرة في تبديل الأمور التي يتركز عليها وفي توزيعه بصورة سليمة، وتظهر إمكانية الخطأ في استيعاب المؤثرات الخارجية وحفظ المعلومات في الذاكرة، كما تلاحظ ردود فعل متفاوتة تجاه المؤثرات المفاجئة. وتشمل تغيرات السلوك في حالة الاضطراب والتوتر النفسي صعوبة القيام بالمهمات التي تتطلب التركيز العقلي، أما الخبرات المكتسبة وأشكال السلوك التي يتقنها الإنسان آلياً وبشكل جيد فهي لا تتعرض للاضطراب والعرقلة فحسب، بل يمكن أن تستبدل بتصرفات واعية تبغي هدفاً محدداً. أي إنه عند الاضطراب النفسي والتوتر الشديد «تستيقظ نظم التفكير المتشكلة سابقاً لدى الإنسان وتأخذ

بالتأثير». ومع ذلك فالاضطراب النفسي لا يعتبر مجرد تناقض في السلوك وجملة من الانفعالات السلبية. فقد كتب سيليه: «إن التحرر الكامل من الاضطراب النفسي يعني الفناء، إذ لا يتوجب علينا ولا نستطيع بالأصل التهرب من هذه الحالة. إن التوتر النفسي عندما يؤثر بصورة ضعيفة يساعد على تركيز الطاقات وتنمية النشاط، ويعمل على شحذ الفكر ووضوحه، أي إن التوتر النفسي ليس عدواً لدوداً محصناً، وإنما يمكن أن يقوم بدور الرفيق المساعد».

المزاج: هو حالة انفعالية تلون النشاط النفسي للإنسان سواء كانت إيجابية أم سلبية، وينشأ المزاج غالباً نتيجة لتأثير انفعال معين، فعندما نتلقى خبراً ساراً نحافظ على مزاج رائق طوال أيام عدة، ونحتفظ بالابتسامة وإن تلقينا صدمة عفوية أثناء ركوبنا حافلة النقل العامة، ونؤنب ولدنا لحصوله على علامة سيئة بصورة أقل عنفاً من المعتاد، وننجز عملنا بشكل أفضل وأسرع. أما إذا حلت بنا الكآبة أو سيطر علينا الغضب فنضيق ذرعاً بكل شيء، ونتشاجر مع الآخرين لأتفه الأسباب، وندخل في نزاعات لأمور صغيرة، ولا نستطيع إنجاز عملنا إلا بشق النفس.

وفي كثير من الأحيان يبدو مزاجنا في حالة تهويش، وغير واضح المعالم دون أن ندرك لذلك سبباً، وعلى الرغم من ذلك فالمزاج يأتي دوماً نتيجة لأسباب محددة قد تكون واضحة أو خفية، فمزاج الزوجة السيئ يمكن أن يكون نتيجة للحديث غير الودي الذي جرى بينها وبين زوجها على مائدة الفطور، ونحن اليوم مغتبطون لتفوق ابننا ببعض الألعاب الرياضية، أو تسيطر علينا الكآبة لأن ابنتنا أصيبت بمرض شديد. إن المزاج يتحدد عبر المواقف الحياتية التي يواجهها الإنسان، فالنجاح في هذا الوجه من النشاط أو ذاك يثير لدى الإنسان مزاجاً طيباً وتدفقاً في الطاقات واندفاعاً لتحقيق المزيد. كما أن رضا الإنسان الشامل عن مجريات الحياة وارتياحه للجماعة التي يعمل ضمنها، وتوفر الحياة اليومية المستقرة، والعلاقات المتبادلة السليمة داخل الأسرة تشكل لديه مزاجاً طيباً ثابتاً ومستقراً.

ولكن يكفي أن تتحطم حلقة واحدة من سلسلة حياتنا حتى يتعكر مزاجنا كلياً. فالنزاعات داخل الأسرة، والخلافات في العمل، وعدم الاستقرار في المعيشة تجعل المزاج سيئاً على الدوام، مزاج مكفهر ومكتئب وحزين. فالمزاج

السيئ باستمرار هو علامة الحياة المليئة بالمنغصات، ويؤثر في مزاج الإنسان نمط الحياة الاجتماعية التي يعيشها والظروف السائدة فيها. فواقع المجتمع الاشتراكي ووضوح الغد المشرق، والثقة بالمستقبل تجعل مزاج المواطنين حيوياً ومتفائلاً على الدوام.

ويمكن أن تؤدي حالة الإنسان الجسدية أيضاً دوراً في تحديد مزاجه. فالتوعك الصحي والألم الشديد، هما من أسباب المزاج السيئ.

والمزاج ليس بالأمر البسيط أبداً، كما يبدو ذلك لنا أحياناً، فهو يغير سلوكنا ويساعد على تقوية أو إحباط نشاطنا، ويعمل على تحسين أو إفساد علاقاتنا المتبادلة مع الآخرين.

أما حالة الإحباط فهي ظاهرة أكثر تعقيداً. وتسببها المعاناة الانفعالية السلبية والسأم من الحياة وإخفاقات الإنسان المتكررة في هذا الوجه من النشاط أو ذاك، ويتولد الإحباط نتيجة لاصطدام الإنسان أثناء السعي إلى غايته بعقبات كثيرة وصعوبات جمة. إن حالة الإحباط تغير سلوك الإنسان بصورة ملموسة، فتبرز هذه الحالة عند البعض عبر حقدهم الشديد الذي يكنونه للآخرين وفظاظتهم الزائدة ومزاجهم المتوتر وتهديداتهم بالانتقام، أما عند البعض الآخر فيتحول هذا الشعور العدائي إلى خطة وهمية ينظمها المصاب داخل نفسه، حيث يقوم الإنسان المصاب بالإحباط والمحتدم غيظاً برسم خطط خيالية للانتقام، ويتصور كيفية تحطيم ذلك الذي أغاظه. والشيء المثير للدهشة أن مثل هذا النزوع إلى الخيال يساعد الإنسان في حالات كثيرة، فتهدأ نفسه وكأنه قد حقق كل شيء خطط للقيام به. أما الأشخاص العاطفيون وشديدو التأثر، والذين يميلون لنقد الذات وتحليلها فيتحول الإحباط عندهم إلى نوبات من تعذيب النفس والكآبة: «أنا المذنب في كل شيء، وأنا سبب كل ما حدث، أنا نذل سافل». بمثل هذه العبارات يؤنب مثل هذا الإنسان نفسه، على الرغم من أنه قد يكون غير مذنب البتة.

إن مثل هذه الأشكال التي تتجلى فيها حالة الإحباط تظهر على الأرجح لدى الأشخاص الذين يتميزون بعزة النفس والكبرياء، والذين يفتقرون إلى ردود الفعل

الكابحة، وغير المهيئين لتلقي الصدمات والصعوبات الحياتية، إن أفضل السبل للتخلص من شعور الإحباط هو تغيير وجه النشاط المحاصر بالإخفاق والحواجز لوجه آخر أكثر نجاحاً وسهولة، فإذا كان الأمر في غاية الصعوبة ولا يتناسب مع طاقاتنا فيجب التوقف والتفكير والتساؤل: هل نحن على الطريق الصحيح، وهل الإخفاقات التي نواجهها هي أمور عابرة؟

هل تفنى المشاعر
أم إنها مؤهلة لكي تعيش مديداً؟

وهكذا فإن مجال الانفعالات الإنسانية واسع بلا حدود ومتنوع الأشكال. بيد أنه منذ القرن الماضي ظهرت نظرية تقول إن التناقض القائم بين العواطف والعقل سوف يتضاءل باستمرار، مما سيؤدي إلى فناء المشاعر ليحل مكانها العقل والسلوك الواعي، إن وجهة النظر هذه تشعرنا بوجودنا حتى في عصرنا الراهن، حيث تدور الآن مناقشات حادة حول المسألة التي تقول ما هو الشيء الأهم في الحياة، العقل أم العاطفة؟ فحسب رأي البعض يجب ألا تؤثر العواطف والمشاعر في قرننا المتطور الحالي في سلوكنا وتصرفاتنا. فنحن عقلانيون وعلينا أن نتحكم بأنفسنا وألا نخضع لسيطرة الغضب أو الحزن أو الابتهاج أو المصيبة. نحن نملك الوعي، فبإمكاننا أن نخنق في أنفسنا شعور المحبة أو الكره أو الحقد ولكن مهما تخيلنا نظرياً هذا «التدمير الشامل» للمشاعر فإن ذلك من الناحية العملية مستحيل التحقق. إذ إننا غالباً ما نقع في قبضة مشاعرنا، فعن طريق العقل ندرك أن زميلنا في العمل الذي وجه إلينا نقداً حاداً كان محقاً في تصرفه، ومع ذلك فنحن نكن له الحقد والكره أيضاً. إن مثل هذه المشاعر موجودة لدى كل فرد، وهي تقيد العقل الواعي، ويمكن أن توجه سلوكنا إلى طريق الضلال، فهناك من يسمح لنفسه في ثورة الغضب العارم بإهانة صاحبه، الذي يتصوره ومن دون حق إنساناً حاقداً، ونرى إنساناً آخر يجهش في هذه الحالة بالبكاء. إن حياتنا منذ الولادة وحتى الشيخوخة تبقى مليئة بالانفعالات، التي ترافق ما يحدث لنا من وقائع صغيرة أو كبيرة. ومهما فكرنا وحاولنا التصرف بشكل عقلاني ودقيق، وأكدنا الدور الرئيس للوعي في حياتنا، فإن المشاعر ستبقى ملازمة لنا، ولن تسمح للأجيال المتلاحقة بالعيش في هدوء وسكينة، بل ستساهم بصورة فعالة في توجيه سلوكها حسب مشيئتها.

إن وجهة النظر هذه تعتمد على أساس علمي محدد. فقد أظهرت الأبحاث الفيزيائية التي أجريت مؤخراً أن مخ الحيوانات والإنسان يحتوي على أسس تشريحية عضوية للانفعالات تسمى مراكز «اللذة» ومراكز «الألم»، حيث تتوضع هذه المراكز في أماكن شديدة الاقتراب من بعضها البعض، ونورد فيما يلي مقتطفاً من كتاب الفيزيولوجي الأمريكي د. فولدريدج «ميكانيكية المخ»:
لقد أجريت التجربة التي كانت تستهدف دراسة وظائف منظمة التحكم بالانفعالات النفسية لمنطقة المخ الوسطى، على الجرذان.. وقد ركب الباحث في القفص الذي حبس فيه الجرذ ذراعاً يتصل بدارة كهربائية خارجية، بحيث يستطيع أن يمرر على مخ الجرذ تياراً كهربائياً مهيجاً في كل مرة يضغط فيها على الذراع. بهذا الشكل، فقد كان حدوث كل ضربة تهيج متعلقاً بالجرذ نفسه، بواسطة هذه التجربة تم التوصل إلى نتيجة واضحة بجلاء: لقد قام الجرذ أثناء حركاته العشوائية عندما كان الذراع مفصولاً عن الدارة الكهربائية المغذاة، بالدوس على الذراع من 10 إلى 25 مرة في الساعة، أما عند وجود التيار الكهربائي في الدارة فقد كرر الجرذ عملية الدوس على الذراع بضعة آلاف مرة في الساعة. لقد قامت هذه الحيوانات بتهييج نفسها آلاف المرات في الساعة على مدى يوم أو يومين إلى أن أنفقت جميع طاقاتها الجسدية، وأصبحت عاجزة عن تكرار هذا الفعل.

وقد حصلت جميع الجماعات، التي كررت مثل هذه الأبحاث على القرود والقطط والكلاب، على نتائج متشابهة.

وبينت هذه الدراسات أن الحيوانات تحاول الابتعاد عن جانب التهيج عندما يكون متصلاً بمراكز «الألم»، لأن هذا التأثير يسبب لها انفعالات مزعجة. فالقطة البيتية كانت تندفع إلى أي جانب من القفص بعيداً عن مكان التهيج، وتزمجر مرتعبة على مدى كامل الفترة التي جرى أثناءها تهييج مراكز «الألم»، وكانت النتائج مماثلة أيضاً عندما أجريت هذه التجربة على القرود، فقد أدى تهيج مراكز «الألم» عند هذه الحيوانات إلى ظهور انفعالات متفاوتة لديه تتدرج من الخوف البسيط حتى الفزع الجنوني، وذلك بشكل يتناسب مع شدة التهيج.

لقد برهنت هذه الدراسات أيضاً أن منظمات التحكم بالانفعالات النفسية تتوضع بالقرب من النظم التي تقود «العمليات الفيزيولوجية الباطنية» في الجسم حيث تتولى هذه النظم إثارة الأعضاء الداخلية وغدد الإفراز الداخلي والأوعية والعضلات الملساء. وهذا هو السبب الذي يجعل الانفعالات تترافق دوماً بمظاهر خارجية دالة على محتواها؛ فعند الشعور بالهلع يمتقع الإنسان بالصفار وتتوسع حدقتا عينيه، ويتصبب جبينه عرقاً، ويجف لسانه، «ويخور جنانه بين ضلوعه». أما مشاعر الغضب والحزن والسرور فتترافق بردود فعل مختلفة.

تتولد المشاعر دوماً نتيجة النشاط المشترك لقشرة فصي المخ الكبيرين والمراكز العصبية التي تتوضع تحت هذه القشرة. إن قشرة المخ تقوم في الظروف الطبيعية بتأثير مهدئ ومعرقل يتحكم بعمل المراكز العصبية الواقعة تحتها، ويوجه نشاطها. نحن قادرون على التحكم بمشاعرنا، فبإمكاننا السيطرة على الاضطراب والغضب وتهدئة أنفسنا ساعة المصيبة، إلا أن الوظائف الإدارية لقشرة المخ يمكن أن تختل عند التهيج الشديد أو الإعياء، أو في حالات السكر الشديد، فهنا نطلق العنان لاضطرابنا ونسمح لأنفسنا بفعل أشياء نندم عليها فيما بعد بمرارة.

وتدخل في أساس الانفعالات والمشاعر أيضاً النظم المعقدة لردود الفعل العادية والشرطية، ويعتبر الانفعال عنصراً رئيساً لردود الأفعال الإرادية، أو أوجه السلوك الغريزي. ومع ظهور ردود الفعل الشرطية تتولد الانفعالات كظواهر انعكاسية مشروطة؛ فعندما نرتعب من كلب شرس يتولد لدينا شعور دائم بالخوف من رؤية الكلاب، ويصبح الفزع فعلاً انعكاسياً شرطياً، أي يظهر عند توفر ظروف محددة؛ أي عند ظهور العامل المهيج.

إذاً فمشاعرنا تحيى طويلاً. إن المجال الواسع لتجلي هذه المشاعر يسمح بالتحدث عن الجوانب المتعددة وشديدة التنوع لذلك الدور، الذي تؤديه في النشاط النفسي للإنسان، فالانفعالات قادرة على تنشيط طاقاتنا أو إضعافها، وعلى إذكاء الحيوية في نفوسنا، أو إماتتها. وهي بمثابة المعلومات الإضافية المهمة اللازمة للتعرف على الواقع، وفي الوقت نفسه يمكن أن تؤدي دور الغشاوة السميكة، التي تحجب عنا ما يلزمنا من معارف. وسنعمل على توضيح أسباب حاجاتنا للانفعالات والوظائف التي تضطلع بها بشكل أكثر تعمقاً.

إن الانفعالات تعكس حاجات الإنسان التي تعتبر بمثابة القوة المحركة لنشاطه. فالحاجات المادية أو الروحية، تدفع الإنسان لممارسة أوجه النشاط المختلفة: كالبحث عن الغذاء عندما يشعر بحاجته للطعام، والسعي لمعاشرة الآخرين، والقراءة من أجل إشباع حاجته إلى المعرفة. وبالطبع، ليس كل حاجة تترجم لدى الفرد، فالكثير من الرغبات والحاجات تبقى في حدود الأمنيات فقط، إما لأسباب خارجة عن إرادة الإنسان، أو بسبب كسله وتقاعسه، أو لاعتقاده بوجوب خنق مثل هذه الرغبات في نفسه، أو لأنه ببساطة لا يملك الطاقات الكامنة لتحقيق ما يحلم به. فلكي تولد الرغبة أو الحاجة نشاطاً عملياً موجهاً لتحقيقها، يلزم في معظم الأحيان وجود حلقة إضافية تتمثل بالانفعال النفسي، فهذا الانفعال بالذات هو الذي ينمي الحاجة ويجعل الفرد قادراً على تحقيقها. إن الانفعال الذي يشمل تصورات عن الأشياء الخارجية المؤثرة وأشكال الحالات الفيزيولوجية عند الإنسان، يصبح برنامج عمل وتأثر. والحاجة بانعكاسها عبر انفعالات عملية تجعل تصرفات الإنسان وأفعاله قوية ومندفعة. فعند كل حالة أول الأشياء التي نراها هي الأشياء التي تثير اهتمامنا والتي نكون بأمس الحاجة إليها، أما الشيء الذي نتجنبه أو نخشاه فلا نراه. إن البحوث النفسية تشهد بأن الإنسان في المواقف الحياتية المختلفة، ولا سيما في الحالات الغامضة، يرى أول ما يرى الأمور التي تتوافق مع دوافعه، ولذلك فكل فرد يرى في لطخة السخام مثلاً شيئاً مختلفاً عما يراه الآخر تطابقاً مع اهتماماته. فالجائع يتصور مثل هذا «الشيء» أمراً شبيهاً بالطعام، والآخر يرى في هذه اللطخة ملامح حيوان معين، وتبدو للثالث الذي يتميز بنزعته العدائية واقعة دامية.. إلخ. وهكذا، فالانفعال: هو بمثابة همزة وصل بين الحاجة والفعل المكرس لتحقيقها، ويمكن للانفعال أن يولد الفعل مباشرة، أو أن يتحول إلى تحفز متوتر، أو أمل بتحول الأحداث نحو الأفضل، أو بالعكس، أي أن ينقلب إلى أداة كبح وعرقلة للفعل الذي كان ممكن التحقيق.

أدخل «كانت» إلى علم النفس نظرية تقسيم الانفعالات إلى انفعالات بناءة وأخرى هدامة؛ فالانفعالات البناءة تساهم في زيادة حيوية ونشاط الجسم الإنساني، وتحفز فعالية حياته النفسية. أما الانفعالات الهدامة فهي تثقل كاهل الإنسان، وتحد من نشاطه وتشتت طاقاته. الانفعالات البناءة كالحب، والبهجة، والإلهام، والإعجاب

البالغ، تفجر لدى الإنسان الطاقات الخلاقة والمقدرة الفائقة على العمل، والانتعاش والانطلاق الكلي، فليس عبثاً تأهب الإنسان العاشق لأن «يزيح الجبال» من مكانها. فلنتذكر خريف بولدين الشهير - مرحلة حياة أ. س. بوشكين قبيل زواجه من ناتاليا نيكولانفيا. ففي هذا الخريف بالذات كتب بوشكين أشهر مؤلفاته.

كتب أناتولي أليكساندروف محللاً مبدعاً أ. بلوك: «وقع الشاعر في حب الفنانة ناتاليا فولخوفا. فمنذ نهاية كانون الأول لعام 1906 عاش جهراً، من دون أن يحاول إخفاء مشاعره، أعنف وأرهب دوامة عاصفة. دوامة الحب الجارف وقد شهد عشقه الجارف هذا ولادة «القناع الثلجي». مجموعة مؤلفات شعرية في الغزل، مؤلفة من ثلاثين قصيدة نظمها في تدفق شاعري ملهم أثناء بضعة أيام من كانون الثاني عام 1907».

وهذا أيضاً مثال آخر على دور الحب في حياة الإنسان: «لو لم ألتق بك، يا رفيقة دربي العزيزة، لكانت حياتي باهتة وفارغة، مثلما كانت قبل أن يجمعنا القدر. ولولا صداقتك الغالية لما كان بإمكاني أن أدون سطراً واحداً مما ألفت، ولأمضيت الوقت مضطجعاً متسلياً بالقراءة، دون أن تكون لدي المقدرة على التعبير عن تلك الأفكار التي اعتبرتها انعكاساً صادقاً عن الذات وشيئاً مفيداً للآخرين، إن صفاتك السامية جعلتني أثق بعقلانية البشر وسماحتهم». كتب هذه السطور ن. غ. تشيرنيشينسكي في رسالة وجهها إلى زوجته بتاريخ 7 تموز 1888.

أما المشاعر الهدامة فتتولد عن نزاع ينشأ بين الذات والناس الآخرين، أو بسبب الفشل المتكرر والصعوبات الجمة والإخفاقات في العمل، وتشكل الصعوبات التي يواجهها المرء في حياته أشد الخطر في تكوين هذا النزاع. فهذه الصعوبات بالذات تولد في داخل الإنسان سلسلة من الحالات الانفعالية التي تغم النفس وتضعف مقدرة الإنسان على العمل، وتقيد طاقاته. فلنتذكر: أن القطة التي حبست في قفص الاختبار كانت تتنحى مرتعبة عن تلك الدواسة التي اعتبرتها سبباً للحالة العصبية التي وقعت بها، وترقص فزعاً أو تزأر في حالة من الهيجان الشديد في كل مرة يجري فيها التيار الكهربائي عبر الدارة ليؤدي إلى تهيج مركز الألم لديها، بالطبع فإن آلية تصرفات الإنسان مغايرة. فبامتلاك الإنسان المقدرة على التحكم بتصرفاته وتمتعه بإرادة قوية تمكنه ألا يدع الأمور تجري على هواها، ويبقى بسعيه الدائب

للتغلب على حالة النزاع هذه وإن لم يحقق نجاحاً ملموساً في محاولاته. وإذا كان واثقاً من عدالة موقفه، فسوف يتصدى بشجاعة للدفاع عنه. وإذا اعتبر أن ما يبغيه قابل للتحقق فلن يخاف شيئاً ولن يتخاذل. وعلى الرغم من كل ذلك فغالباً ما تؤثر الانفعالات السلبية (الهدامة) في سلوك الإنسان وحالته العامة شاء ذلك أم أبى، فقد اتضح أن ظهور الانفعالات السلبية في مواقف النزاع يؤثر بشكل بالغ قبل كل شيء في نشاط القلب والأوعية الدموية. وكما هو معروف فإن المراكز العصبية التي تتحكم بالجانب الانفعالي لحياتنا وعمليات النمو تقع في مناطق واحدة من المخ، ولذلك فإن كل انفعال يترافق دوماً بعمليات استقلابية في نشاط الأعضاء الداخلية.

ومن المعروف حالياً أن الانفعالات السلبية تسبب ارتفاع ضغط الدم، كما تسبب عند تأثيرها الطويل ارتفاعاً مستديماً في الضغط، وإذا وضع الحيوان أيضاً في حالة اصطدام بالمؤثرات السلبية فيمكن أن يصاب بارتفاع الضغط الشرياني، على الرغم من أنه في الظروف الطبيعية لا تحدث مثل هذه الظاهرة عند الحيوانات على الإطلاق، ولهذا ففي حالات الاصطدام المباشر والمستديم بالمؤثرات السلبية يمكن أن تظهر عند الحيوانات تماماً أعراض الإصابة بارتفاع ضغط الدم الشرياني وباحتشاء العضلة القلبية أيضاً.

وقد تم التوصل عن طريق سلسلة من الأبحاث الفيزيائية إلى تحديد أشكال الحالات الصدامية، التي تسبب ظهور الانفعالات الهدامة، وتؤدي دوراً في رفع ضغط الدم الشرياني. وتشمل هذه الحالات الترقب الطويل للتأثيرات المؤذية، والحالة التي تستوجب انتقاء الخيار الأمثل من جملة خيارات محيرة، بحيث يستطيع هذا الخيار تلبية الحاجة التي تبرز لدى الإنسان (كما في الحكاية الشعبية، عندما يتوجب على البطل اختيار السير في طريق من أصل عدة طرق) والتأثر الدائم في الأصوات الصاخبة، وتوقع ملاقاة عوامل مزعجة غير طيبة. كتب العضو المراسل لأكاديمية العلوم الطبية السوفيتية ك. ف. سوادكوف ما يلي: «تتولد الصدمات الانفعالية لدى الحيوانات على أساس نزاعات بيولوجية بحتة، والصدمات الانفعالية عند الإنسان غالباً ما تنجم عن نزاعات اجتماعية. ومن الجدير بالذكر أن التأثيرات الانفعالية ذات الطبيعة السلبية تتميز بمقدرتها على ترك آثار عميقة وطويلة الأمد في المخ، وبكلمات أخرى، في الحالات الصدامية المستديمة

والمتكررة يمكن أن يتحول التهيج الانفعالي السلبي إلى شكل «متحجر» من التأثير الثابت الذي يبقى محافظاً على نفسه في الجملة العصبية المركزية في حالة الاستقرار التي تلي هذه الانفعالات، وهكذا، فالانفعال هو صديق لنا وعدو في آن واحد.

إن حالات الرضا والسرور أو الكرب والضيق، التي تبرز لدينا عندما تتطبع تلك المواضيع أو غيرها في أنفسنا (اللون الانفعالي للأحاسيس)، تعتبر بمثابة الصديق الخفي الذي يمد لنا يد المساعدة و«يلقننا» بأن ذلك الموضوع يمكن أن يكون مفيداً بالنسبة لنا، ويحذرنا من الأشياء الواجب تجنبها: إن لهذا رائحة كريهة، فمن الأفضل عدم تناوله، ولون هذه الزبدة لا يدعو للاطمئنان، إنها على الأرجح فاسدة. إذاً فالانفعال يقوم بمهمة إكمال المعلومات المتعلقة بالموضوع الذي نسعى لإدراكه، ويساعدنا على فهم وإدراك الواقع المحيط، وينظم سلوكنا الموجه نحو تلقي المعرفة، إن الانفعالات تأخذ بيدنا لتفهم الإنسان الآخر، وإدراك حالته العامة، فعندما نرى في وجه الإنسان علامات الضيق والكآبة فإننا لا نسمح لأنفسنا بالتوجه إليه في تلك اللحظة لطلب خدمة أو مساعدة يسديها إلينا، بل على العكس نحاول مد يد المساعدة بالقول أو بالفعل. وعندما نحلل سلوك الإنسان وندرك أنه مدفوع بشعور الخوف أو انفعال آخر ما، نستطيع أن نقف على الجوهر الحقيقي لتصرفاته، إن الانفعال يقدم لنا تلك المادة الإعلامية المهمة، التي لا يبقى للمعاشرة الإنسانية من دونها معنى يذكر، فليس بفضل النطق وحده يستطيع الإنسان التفاهم مع الآخرين وإنما بفضل الانفعالات المرافقة له أيضاً، وهنا تقوم الانفعالات بإكمال وإغناء المعلومات التي نتلقاها عن طريق المخاطبة، وفي بعض الأحيان «يتحدث» الانفعال بشكل مؤثر أكثر من الكلمة، حتى يمكن أن ينم عن شيء مغاير تماماً لما يفصح عنه اللسان، فكم نلاحظ في المواقف الحياتية المختلفة أن الانفعالات والمعاناة المباشرة للإنسان تناقض بجلاء كلماته التي ينطق بها. إننا غالباً ما نستخدم عبارة «يفكر بشيء ويقول شيئاً آخر» لكن هناك مقولة صحيحة أخرى وهي: يقول شيئاً ويشعر بشيء آخر، يستطيع الإنسان أن يكن للآخر شعور الشفقة الزائدة، لكن الخوف من جرح مشاعر صاحبه لا يسمح له بالتلميح عن ذلك الشعور، ويمكن للإنسان أن يحب بتفان، لكن علمه بأن مشاعره لن تلقى استجابة مماثلة من قبل من يحب يكبله

ويعيقه عن الإفصاح والبوح بحبه. نحن قادرون أن نخفي عن قصد حالتنا الحقيقية عن الآخرين، وذلك لعدم رغبتنا في أن نجعل من أنفسنا مادة للأشخاص القليلين، وكي لا تطالنا الألسن الطويلة بالهجاء، وهكذا فالانفعال يساعدنا على الاختلاط والتفاهم مع الآخرين ويجعل هذه العملية أعلى وأشد تأثيراً.

إن الانفعالات التي تتولد أثناء علاقاتنا المتبادلة مع الآخرين يمكن أن تتحول إلى مشاعر ثابتة للصداقة أو التعلق أو النفور، وتتداخل مع هذه العلاقات وتنعكس على سلوكنا وتصرفاتنا، فإذا شعرنا بأن الآخرين يكنون لنا المحبة والاحترام والتقدير، ويرغبون في تبادل النصيحة معنا، فإننا نقبل على عملنا ببالغ السرور والخفة. أما إذا كانت العلاقات داخل الجماعة متوترة وغير طبيعية، فإننا لا نشعر بالرغبة في الذهاب إلى العمل، ولا يجري العمل لدينا بصورة موفقة. إن الأبحاث المتعددة تشهد بأن المناخ النفسي السليم في الجماعة والمشبع بالمشاعر «الدافئة» وبهجة الاختلاط والمعاشرة والمشاعر الحميمة والمحبة، والتي يبديها كل عضو في هذه الجماعة تجاه أصحابه الآخرين، تعمل على رفع وتيرة وإنتاجية العمل. أما النفور المتبادل والمشاحنات والخصومات والنزاعات فإنها تؤدي إلى خفض المقدرة على العمل إلى حد كبير.

الانفعالات تغني نشاطنا بالحيوية، وتدفعنا للسعي والاجتهاد، وتدخل الحماس إلى ما نقوم به من عمل. وهي إحدى الأسس التي تشارك في تكوين المعتقدات والاهتمامات والطموحات في حياة الإنسان. «من غير الانفعالات توحي بالإلهام؟ وتدفعنا إلى التبحر بشكل أعمق في جوهر الأشياء والظواهر، وإلى أن نكون أكثر قوة وإصراراً عندما نشعر بالعجز عن فعل أي شيء بسبب العوائق الكثيرة التي تعترض سبيلنا. ولا يمكن أن يكون للاهتمام بالعمل الذي نقوم به أي معنى بغير الانفعالات. والانفعال ينمي في نفوسنا السعي نحو معرفة العلوم والأدب والتكنولوجيا والفن. والانفعال: هو أساس لكل ما تصبو إليه أنفسنا ولكل ما يجتذبنا. فالاهتمام الذي نبديه لما حولنا يكون بالضرورة موشى بالصورة الانفعالية؛ نحن نبدي الاهتمام بأمر ما، لأنه يقدم لنا المتعة، كما نشعر بالمتعة لأن هذا الأمر مهم بالنسبة لنا.

إن قناعاتنا تلتحم التحاماً مباشراً مع طموحاتنا ولا تنفصل أبداً عن مشاعرنا. وبشكل خاص شعور الثقة بصحة وحقيقة معارفنا المتعلقة بأمر ما. لذا فالقناعات

ليست معارف مجردة، بل هي قناعات بالتحديد لأنها مفعمة بالمشاعر. إننا نتحمس بشدة للدفاع عن معتقداتنا التي ترسخت في أنفسنا لدرجة تجعلها ملتحمة بمشاعرنا بشكل وثيق. فمن المعروف أن الكثيرين استسهلوا حياة السجن والأعمال الشاقة في سبيل الدفاع عن معتقداتهم، وقبلوا بالتخلي عن المسرات المالية وفراق أعز من لديهم في سبيل ذلك.

إن المشاعر مترابطة بصورة وثيقة مع شخصية الإنسان وسلوكه وتصرفاته فسماتنا الخلقية وقدراتنا الإرادية تتجلى في معظم مظاهرها بصورة مشبعة بالانفعالات، وليس عبثاً أن يقوم الباحثون بإبراز السمات الانفعالية كمميزات رئيسة للطبع الإنساني، مثل الشجاعة والجبن والوقاحة والخجل وحب الاختلاط والأنانية والتعجرف.. إلخ. فهذه الصفات تحمل في طياتها هذا الشعور أو ذاك كمركب ممكن وضروري لتكوينها، وتتشكل في ظروف المعايشة المسامرة لهذه المشاعر. فيمكن للإنسان أن يصبح شجاعاً أو متخاذلاً، طيباً وخدوماً أو أنانياً، عزيز النفس، مترفعاً وشريفاً أو صنيعاً مشاغباً وحسوداً. وذلك بمقدار ما سيكتب له أثناء حياته أن يعيش هذه الجملة من الانفعالات أو تلك. وبهذا المقدار نفسه يمكن للكثير من الصفات الإرادية للإنسان أن تنشأ على أساس هذه الأشكال من المعاناة أو تلك. فضبط النفس والإقدام والتصميم والمقدرة على اجتياز الصعاب وما إلى ذلك. أو على العكس، ضعف الإرادة والتخاذل يتحدد بمقدار قوة هذه المشاعر عند الفرد ومدى استخدامها أثناء عملية تربيته.

وأخيراً، فالمشاعر والانفعالات هي بمثابة البواعث لما نقوم به من تصرفات. فالجزع يمكن أن يقود لاقتراف أفعال دنيئة كالخيانة والغش والغضب. والشعور البسيط بالإساءة يمكن أن يصبح دافعاً لتصرفات مختلفة إزاء الآخرين بدءاً من الأغلاط في القول حتى ضمر الرغبة في المعاقبة والانتقام. والخجل يمكن أن يصبح سبباً لآلام نفسية مبرحة من تأنيب الضمير أو حتى دافعاً للانتحار. والمصيبة يمكن أن توقع المرء بأمراض عصبية تستعصي على العلاج، ففي علم الأمراض النفسية أصبحت الحالات العصبية التي تسببها الانفعالات المختلفة معروفة بشكل جيد، حيث يمكن أن تكون هذه الانفعالات قوية مؤقتة، أو ظاهرة مؤثرة لفترة طويلة.

وهكذا فقد توصلنا إلى استنتاج يبين بأنه لا مفر لنا من الانفعال. ولهذا يجب علينا نحن الوالدان أن نعرف كيف تنمو هذه الانفعالات عند الأطفال، من أجل أن نتعلم طرائق التعرف عليها وسبل توجيهها الوجهة الصحيحة في الوقت المناسب. وبالتأكيد فليس جميع ما نملك من مشاعر وانفعالات يظهر لدينا مع الولادة، إذ يملك الكثير منها صفة الأفعال الانعكاسية المشروطة. والكثير من الصفات الانفعالية يتكون أثناء حياة الإنسان ضمن هذه الجملة أو تلك من ظروف نمو وتطور الشخصية، أما المحتوى العملي لهذه الصفات فيتحدد بتلك الظروف الواقعية التي تتم ضمنها عملية التربية. ولهذا السبب ينبغي معرفة تلك الظروف التي تقود لتكون هذه المشاعر المعينة، والظروف الأخرى تساهم في نمو المشاعر المغايرة، كما يجب معرفة العوامل التي تساهم في تكون هذه السمات الخلقية أو تلك.

ومن الضروري أيضاً معرفة الحالات التي يصبح الشعور فيها دافعاً للقيام بأي تصرف، والأسباب التي تؤدي لتحول الشعور بعد تمتنه إلى دافع ثابت فعال. وسنستعرض هذه المسائل وغيرها في فصول الكتاب التالية، لكي نوسع دائرة معارف الآباء والأمهات التي تخص عملية تشكل هذه الساحة البالغة الأهمية والحساسية من حياة الطفل. مجال العواطف والانفعالات.

سنتحدث عن خصائص تكون مجال الانفعالات عند الطفل منذ الأيام الأولى من حياته وحتى بداية شبابه. فهذا يقدم لنا إمكانية مراقبة تطور مشاعر الطفل، وإدراك كيفية ظهور هذا الشعور أو ذاك في حياته، وكيف يأخذ هذا الشعور بالتغير، وبتأثير أي ظروف يتحقق ويتصلب، ولأي سبب يمكن أن يفنى ويختفي. وسنحاول أن نوضح الطرائق الممكنة للتأثير في الطفل بقصد تنمية وتشجيع هذه الحالة الانفعالية لديه أو تلك، أو على العكس، تجاوزها أو التخفيف من حدتها. ولنبدأ من السمات المميزة لطبع الطفل الرضيع.

هل يمكن
للطفل الرضيع أن يشعر؟

قبل التعرض لتحليل مشاعر الطفل الرضيع ومحاولة تحديد «القدرات التي يملكها» دعونا نعود قليلاً إلى ماضيه، تلك الحقبة التي يسميها الأطباء بالفترة الجنينية، أي فترة ما قبل الولادة. إن الأبحاث التي أجريت في الفترة الأخيرة، ولا سيما أعمال العضو المراسل لأكاديمية العلوم الطبية في الاتحاد السوفيتي إ. غ. سفيتلوف، تشهد بأن المرحلة الجنينية في حياة الطفل ليست بالأمر البسيط والسهل وقليلة الفعالية والخطورة، كما كان يعتقد سابقاً، ففي الحقيقة، يتوجب على الأم أن تبدأ سلفاً الاهتمام بصحة طفلها الجسدية والنفسية، والحديث يدور هنا حول واجب المرأة بالتطلع بجدية واهتمام إلى وضعها النفسي العام وصحتها منذ بداية الفترة التي قررت فيها أن تنجب. وينصح الأطباء بصورة خاصة مراعاة النقطتين المهمتين التاليتين: أولاً: تجنب الحمل في تلك الفترة التي يقوم فيها أحد الزوجين بعلاج نفسه من أحد الأمراض، أي عندما يكون جسمه «محشواً بالعقاقير الطبية» ثانياً: تجنب حدوث الحمل قطعاً عندما يكون أحد الزوجين في حالة السكر، فهناك شواهد عديدة على أن الكحول يمكن أن تصبح سبباً لمجموعة كبيرة من الأمراض التي يتعرض لها الأطفال حديثو الولادة، كأمراض الكلى والكبد والقلب، وجميع أشكال التخلف العقلي بدءاً من الاختلال النفسي وحتى البله التام. وهكذا فليس عبثاً أنه كانت تقوم عند الإغريق القدماء عادة تقضي بعدم تقديم الخمر للعروسين أثناء حفلة الزفاف وبالإضافة إلى هاتين النقطتين المهمتين، التي يؤدي التقيد بهما إلى الحفاظ على صحة الطفل في المستقبل، فمن الضروري أيضاً الاطلاع على ما يسمى بفترات تطور الجنين الحرجة، التي

يكون الجنين فيها شديد التحسس لمختلف أشكال المؤثرات التي تنتقل إليه عن طريق الأم. وقد تم التوصل عن طريق جملة من الأبحاث العلمية إلى أن الجنين السليم وراثياً يمكن أن ينمو بصورة غير طبيعية، إذا تعرض لتأثير العوامل الضارة المختلفة في تلك الفترة الحرجة بالذات وقد حدد العلماء فترتين حرجتين من حياة الجنين.

الأيام الأولى بعد حدوث الحمل والفترة الواقعة ما بين الأسبوع الأول والسابع من الحمل. في الأسابيع الثلاثة الأولى للحياة الجنينية يجري انفصال جميع البدايات الجنينية الأساسية، وتتحدد جوانب تطور مختلف المجموعات الخلوية، التي تتشكل منها فيما بعد مختلف الأعضاء والأنسجة، وفي الفترة ما بين الأسبوع الرابع والسابع من الحمل تتشكل المشيمة: صلة الوصل بين جسم الأم والجنين، وتأتي أهمية هذا الدور أيضاً لأنه يترافق بنمو الأعضاء الداخلية للجنين وتكون جملته العصبية المركزية والأطراف. فلنتذكر المأساة التي حصلت في جمهورية ألمانيا الاتحادية: ولادة الأطفال المعوقين دون يدين أو رجلين، الذين أقدمت أمهاتهم أثناء الحمل على تناول العقاقير الدوائية، التي اعتبرت مسهلة لعملية الولادة، لكنه اتضح فيما بعد أن هذا الدواء ساعد فقط على ولادة المشوهين، ولا سيما عندما تم تعاطيه في الأسبوع الخامس والسادس من الحمل.

لقد بينت دراسات علماء الجنين السوفييت أنه مع وجوب أخذ كلتا الفترتين المذكورتين بالحسبان، إلا أن الفترة الثانية هي الأكثر خطورة، لأن الاختلاطات المختلفة في الفترة الأولى تؤدي غالباً إلى موت الجنين، الذي يكون بالتأكيد أقل شراً بالمقارنة مع ولادة طفل مشوه خلقياً أو نفسياً، بعد كل ما ذكرناه يبرز السؤال التالي: ما الذي يتوجب على الأم أن تخشاه أثناء فترة الحمل؟ وما هي العوامل التي تعتبر مؤثرات ضارة؟

من أجل الإجابة عن هذا السؤال نلجأ إلى الدراسات التي قام بها بعض الأطباء. فقد أوضحوا في هذه الدراسات بأن هذه العوامل تضم جميع أنواع الأمراض التي تصيب الحامل، ولا سيما الأمراض ذات الطبيعة الفيروسية، بالإضافة إلى

التغذية الناقصة وقلة الفيتامينات وتعاطي العقاقير الدوائية كالسولفاميدات، وافتقار الجسم للأوكسجين. ولن نقوم هنا بتقديم البراهين القاطعة والدلائل العلمية من أجل صياغة فكرة معروفة من القدم، وهي أن الحالة النفسية للإنسان ترتبط بشكل وثيق بحالة جسمه الصحية. فكل أم تدرك جيداً أن مسألة تربية طفلها تصبح أمراً مؤجلاً، إذا كان الطفل يعاني من الإصابة بالتهاب الرئتين أو يعاني التهاب القصبات، أو إذا كانت لديه مشكلات صحية مع الكلى أو الكبد ففي هذه الحالة، وإن أظهر الطفل المشاكسة والشقاوة، فإنه يسامح على كل ما يفعل، وإذا طلب شيئاً يلبى طلبه، لأن هذا الطفل متوعك الصحة ونحن مستعدون لأن نخفف عنه بأي ثمن، ولذلك نؤكد القول مرة أخرى: إن تربية الطفل تكون أسهل بكثير عندما يكون موفور الصحة وهذا يستوجب التفكير مقدماً لتهيئة الظروف الملائمة.

ماذا يستطيع الطفل الرضيع أن يفعل، وما هو مجال إدراكه؟ إن هذا السؤال لم يطرح إلا منذ فترة قريبة. فقد كان يعتقد أن الطفل المولود حديثاً عاجز عن كل شيء، وبالطبع فهو لا يدرك أي شيء، إلا أن الدراسات التي أجريت في السنوات الأخيرة تشهد بأن المولود الجديد قادر على فعل أشياء كثيرة تتجاوز مقدرته على الأكل والنوم، التي كان يعتقد سابقاً بأنها نهاية حدود إمكانياته.

وباستخدام طريقة بحث تجريبية دقيقة، تم نقض الفرضية المضللة التي تقول إن مخ الطفل المولود حديثاً غير قادر على ممارسة النشاط العقلي، فقد بينت هذه الأبحاث أن الطفل الذي أتم الأسابيع الثلاثة من عمره يتمتع بملكة انتقاء التأثيرات الصوتية، لهذا فهو يفضل سماع صوت والدته. وإذا حاولت الأم إيهامه بأنها تتحدث بصوت غير صوتها، فإن هذه الحيلة لا تنطوي عليه. وقد قام الباحثون أثناء هذه التجارب بعرض وجوه غريبة على الطفل وأرفقوها بصوت الأم الحقيقي، أو قاموا بعرض وجه الأم الحقيقي مع صوت غريب. وفي كلتا الحالتين كان الرضيع يبدي انزعاجه ويشعر بأن أموراً غير طبيعية تحدث أمامه. إن هذه التجارب، بالإضافة إلى جملة بحوث تجريبية أخرى، تشهد بأن مخ المولود الحديث

قادر على تحليل الظواهر التي يتلقاها: كتمييز الأصوات ووجود الأقرباء، وهو أيضاً يملك إمكانية ربط الظواهر ببعضها، كربط الصوت بصورة الوجه الذي يعرفه مثلاً.

وقد أوضحت التجارب أيضاً أن أولى «العمليات الذهنية» للطفل تترافق بمركبات انفعالية. فشعور الهدوء والراحة والسرور، يحدث إذا كانت الأمور على ما يرام «عندما تكون الأم قريبة وتتكلم بصوتها الحقيقي»، وحالة الاضطراب والقلق وعدم السرور، تحدث إذا أصبحت الأم فجأة غير شبيهة بنفسها، عندئذٍ يأخذ الطفل بالتعبير عن قلقه وعدم رضاه بالبكاء. فبمساعدة البكاء يلفت الطفل انتباهنا إلى أمر غير حسن حصل معه أو شيء يقلق راحته، وهذا ما يجعل الأم تفهم أن الطفل قد أصيب بالبرد، أو يرغب في الأكل أو سماع كلام الآخرين.. إلخ. أما إذا كانت الأمور على ما يرام، فهنا تظهر الأصوات الطفولية المرحة والحركة الحيوية باليدين والرجلين، ثم البسمة أيضاً. وهكذا فالطفل الرضيع قادر على الإحساس بأبسط الحالات الانفعالية التي ذكرناها وهي حالة الرضا والسرور أو الاضطراب والانزعاج. إلا أن هذه الانفعالات الأولى ليست مرتبطة فقط بحاجات الطفل البيولوجية «أنا شبع ونظيف، ولا أشعر بالجوع أو بالعطش ولست متألماً، ولا أعاني من الحر لذلك فأنا أشعر بالارتياح»، وإنما تتداخل بدرجة معينة مع أولى التجارب الاجتماعية التي يعيشها. إذ إن الطفل منذ لحظة ولادته يصبح كائناً اجتماعياً، لأن مخه يحتوي على صفات وراثية تحدد الخصائص التي تميز سلوكه عن السلوك الغريزي للحيوان. ففي أول ردود الفعل العاطفية للطفل تظهر أولى حاجاته الروحية: حاجته للمعاشرة والتأمل والتفكير.

وقد سمحت المراقبة الدقيقة لسلوك الطفل الرضيع بتحديد ما يسمى «بمجموعة الانتعاش» وهي انفعال إيجابي مميز تدخل في تركيبه الأجزاء التالية: الابتسامة، والحركات الحيوية السريعة المتضمنة المد والثني المتكرر لليدين والساقين، وزيادة سرعة التنفس، وبريق العينين، وردود الفعل الصوتية. وفيما يخص العوامل التي تدفع مجموعة الانتعاش والتي هي بلا شك حالة السرور والرضا إلى

الظهور، فهناك عدة وجهات نظر لتحديدها؛ فبعض الباحثين يربط هذه الحالة مع تلبية حاجات الطفل المادية: فالطفل حصل على ما يلزمه من طعام، وسمح له بتحريك يديه ورجليه بحرية، وبدلت لفائفه المتسخة بأخرى نظيفة، لذلك فهو مبتهج ومنشرح، وهذا ما أدى إلى «انتعاشه». وهناك علماء آخرون يؤكدون أن تلبية حاجات الطفل العضوية تؤدي إلى تهدئته فقط، أما من أجل ظهور موجة من الانفعالات الإيجابية لديه فيلزم وجود عوامل محرضة أخرى وعوامل اجتماعية، وجملة الانتعاش برأي هؤلاء الباحثين يمكن أن تظهر عند معاشرة الطفل الصغير للإنسان البالغ، ويمكن أن يكون سبب صراخ الطفل، الذي يظهر كرد فعل يعكس عدم ارتياحه وسروره، هو الجوع وزيادة التأثر قبل النوم والألم، والمؤثرات الحرارية.

أما الانفعالات الإيجابية فتظهر وتتطور تحت التأثيرات السمعية والصوتية: الأم تغني لطفلها أغنية عذبة، وتهدهده، وتبتسم له بحنان، وتتحدث إليه بشيء ما طيب لطيف، وتنحني فوقه وهنا فقط يمكن للانفعالات الإيجابية أن تظهر. كتبت م. إكيستيا كوفسكايا: «... إن مظاهر البهجة تبرز أولاً لدى الطفل عند تلقيه تأثيرات خارجية في أعضاء الحواس، ولا سيما في الجهاز البصري والسمعي. وهذا بالذات يكشف عدم صحة وجهة النظر، التي تؤكد بأن ظهور الانفعالات الإيجابية لدى الطفل مرتبط مباشرة بتلبية حاجاته العضوية. فجميع المعلومات التي استطعنا الحصول عليها تشير إلى أن تلبية الحاجات العضوية للطفل تساهم فقط في تجاوز الانفعالات السلبية لديه، مشكّلة بذلك مقدمات لظهور الانفعالات الإيجابية دون أن تكون هي نفسها من يولد هذه الانفعالات. وهذا يؤكد أيضاً تلك الحقيقة التي تعتبر أن الانفعالات الإيجابية تشير إلى تشكل ما يسمى بالتركيز السمعي والبصري، أي الاستجابة المميزة لعيني وأذني الطفل للتأثيرات الموافقة. وقد اتضح أن تشكل «مجموعة الانتعاش» يتطابق مع بداية التركيز السمعي والبصري. فحتى الأسبوع الثالث من العمر تقريباً لا يستطيع الطفل تحديد مصدر الصوت، على الرغم من مقدرته على سماع الأصوات، ولا يستطيع تركيز بصره على الأشياء، على الرغم من كونه

يستطيع رؤيتها. ولا يستطيع الطفل تركيز سمعه وبصره إلا بعد الأسبوع الثالث من عمره، حيث يبدأ بإدارة رأسه باتجاه مصدر الصوت ويلاحق ببصره الأشياء المتحركة.

نلاحظ قسمات الاضطراب تظهر على وجهه وصراخ الجزع يصدر عنه. ويمكن ملاحظة حالة الاضطراب وعدم الارتياح عند الطفل، التي تظهر أيضاً بشكل صراخ أو احمرار أو تجعد في الوجه، عندما يحاول البالغون تثبيت رأس الطفل أو جسده أو أطرافه في وضعية واحدة مدة طويلة. فكيف ينبغي علينا أن نتصرف تجاه مثل هذه الانفعالات الطفولية الأولى للرضيع؟ وهل يتوجب على الأهل عندما يأخذ الطفل بالبكاء اللجوء إلى هز سريره وحمله على الأيدي، أو غناء الأناشيد الطفولية، والعمل على تهدئته بأي وسيلة، أم من الأفضل عدم تدليله: فليصرخ قليلاً ولا ضير في ذلك، فلا داعي لتعويده منذ الآن على نعومة الأيدي، أم يجب أن نسمعه التأنيب كأن نقول: «... يا لك من صغير شقي، فها قد بدأت منذ الآن تطلب ما تشتهي بالصراخ».

قبل أن نبدأ بتحليل هذه الآراء المتناقضة سوف نستعرض الحالات، التي تظهر فيها عند الطفل انفعالات الرضا والسرور، وانفعالات الاستياء والانزعاج. وهنا سنتعرض بالتحليل لإحدى المسائل البالغة الأهمية: المسألة التي تحدد دور الانفعالات الإيجابية في نمو وتطور الطفل. وأكثر ما يهم الأهل في هذه الفترة المبكرة من حياة الطفل هي الانفعالات السلبية: فالطفل يبكي ويصرخ. معنى ذلك وجود ما يزعجه ويثير استياءه. وبتلبية حاجات الطفل العضوية نقوم بنزع هذه الانفعالات السلبية، مما يؤدي إلى تهدئته وسكونه.

من المعروف أن المعاناة المتكررة من الانفعالات السلبية تلحق الأضرار الفادحة بحالة الإنسان النفسية وبصحته الجسدية. وقد يكون هذا هو السبب الذي دفع البشرية منذ مئات القرون لابتكار الأرجوحة واللهّاية. تلك الوسائل الناجعة في تهدئة الطفل. لذلك فليس هناك ما يبرر التخلي عن استخدام هذه الوسائل، ولا سيما وأن الأبحاث العلمية الحديثة تؤكد ضرورة وأهمية تأمين حالة انفعالية متوازنة عند الطفل منذ مراحل نموه المبكرة، وإزالة الانفعالات

السلبية من نفسه، وإبعاد العوامل التي تثير لديه الانزعاج وعدم الرضا. إذاً ماذا يتوجب أن نفعل عندما يأخذ الطفل بالبكاء؟ هناك جملة آراء مختلفة حول هذا الموضوع، فأطباء الأطفال ينصحون الأمهات بإرضاع أطفالهن في فترات زمنية منتظمة، بانين رأيهم هذا على خصائص نشاط المعدة الإفرازي؛ فعندما يجوع الطفل يصبح الطعام شيئاً ضرورياً بالنسبة له، وبالطبع فهذا الرأي يعتمد على حجة موضوعية. بيد أنه مع ذلك لا يأخذ بالحسبان عاملاً آخر، يمكن أن يكون الأكثر أهمية. تلك الانفعالات الإيجابية التي تظهر لدى الطفل عند معاشرته لوالدته. فالأم تعلم أنه إذا شعر طفلها بالتوعك، أو تعب من الاضطجاع في وضعية واحدة، أو تملكه البرد وانتابه البكاء، فيكفي أن تأخذه بين ذراعيها وتضمه إلى صدرها وتقدم إليه ثديها حتى يركن إلى السكون والاطمئنان، في مثل هذه الحالة لا يستخدم فعل الإرضاع من منحى الحاجة البيولوجية البحتة إلى الطعام، وإنما يقدم شيئاً أكبر حيث يؤمن التماس الانفعالي مع الأم ظهور الانفعالات الإيجابية. مما لا شك فيه أنه يتوجب إرضاع الطفل في مواعيد محددة وثابتة، ولكن إذا ظهرت حالة طارئة،وتملككم شعور بعدم وجود أي شيء يهدئ نفس الطفل سوى أيديكم وحنانكم، فإننا نعتبر أنه يمكن التغاضي عن نصائح الطبيب الصارمة، لأن راحة الطفل وطمأنينته تعتبر أهم عامل في نموه في هذه المرحلة المبكرة وجميع المراحل الأخرى التي تليها. ويجب السعي على الدوام للوقوف على الأسباب التي تدعو الطفل للاضطراب، والعوامل التي تدعوه للصراخ، وذلك عن طريق حمله على الأيدي، وملاطفته بالحديث وهز سريره. فالحنان والاهتمام، وإزالة الانفعالات السلبية في نفس الطفل هي أهم ما يلزمه في أولى مراحل حياته. أما ما يخص تعوده على «الدلال» فإن هذا الرأي يعتبر أقرب إلى التصور الخاطئ من أن يكون برهاناً قاطعاً، فلم يستطع أحد حتى الآن الجزم، بأن الأطفال الذين حملوا على الأيدي وتلقوا الرعاية والحنان قد شبوا فيما بعد وأصبحوا شخصيات أنانية مدللة، إن مثل هذه السمات يمكن أن تظهر عند الطفل في مرحلة لاحقة وتسببها عوامل مختلفة. أما عندما تكون الأم مثقلة بالأعمال المختلفة ولا تملك

الوقت الكافي كي تهب نفسها بالكامل لطفلها، ويصيبها الإعياء من سهر الليالي وغسل الملابس، فالأمر هنا يصبح مختلفاً، إذ إن الحديث يدور هنا حول مسألة عدم جواز إثقال نفس الطفل بالانفعالات السلبية، ووجوب مد يد المساعدة إليه عندما يطلب منا ذلك.

دور الانفعالات الإيجابية
في نمو شخصية الطفل

سنحاول في هذا الفصل من الكتاب تحديد دور الأم في حياة الطفل، إن غياب أو قلة الحنان والعطف من قبل الأم يؤدي غالباً إلى ظهور جملة متنوعة من الحالات الانفعالية السلبية لدى الطفل، وتقود أحياناً لإصابته بحالات نفسية معقدة، بدءاً من شعوره بالعجز والضعف وانتهاءً بشعور الحقد والكراهية تجاه الآخرين بالإضافة إلى تعرضه لبعض المعاناة الجسدية، التي تؤدي في بعض الحالات إلى هلاك الطفل، ومهما تكن الظروف، التي يتربى ضمنها الأيتام أو الأطفال الذين تركتهم أمهاتهم، ملائمة ومثالية فإن هؤلاء الأطفال يأخذون مع بلوغهم سن الصبا في البحث عن الأم، أعز وأطيب وأقرب مخلوق لديهم، ونحن أيضاً، بعد أن نبلغ سن الرشد ونغدو آباء وأمهات، نحافظ في حضرة أمهاتنا على الشعور بأننا لا نزال أطفالاً. أما الإنسان الذي لم تكتحل عيناه برؤية أمه، فإنه يتوق بدرجات مضاعفة للتمتع بشعور الطفولة وحنان الأم. تلك الأمور الغامضة التي تثير اهتمام جميع من حوله وتشغلهم على الدوام، وإذا كان الطفل محروماً من حنان الأم الصافي الرقيق فإنه يفتقد بذلك إلى شيء لا يعوض أبداً.

إذاً كيف علينا أن نتصرف مع الطفل العاجز عن النطق الذي ما زال في المهد، فهل من المعقول أن يكون الأمر بالنسبة له سيان وهو ما يزال في عمره الغض، بأن تقوم هذه الأيدي أو تلك بتلفيق أو تقديم الحليب له من زجاجة الإرضاع. وأن يقوم هذا الشخص أو ذلك بمرافقته لاستنشاق الهواء الطلق أو تلقينه بعض المعارف البسيطة. لقد تبين أن الأمر ليس سيان بالنسبة للطفل، فهناك الكثير من الأبحاث العلمية والنتائج العملية تشهد بأن عشرة الطفل لأمه وذويه، ولا سيما في سني حياته الأولى، تعتبر من أهم العوامل التي تساعد على نموه النفسي والجسدي بشكل صحيح.

إذ تـؤدي هــذه المعاشــرة بالدرجـة الأولى إلى ولادة سلـسلة مـن الانفعــالات الإيجابية الضرورية جداً للمحافظة على حيوية الطفل، أما الأطفال الذين فقدوا أمهاتهم، وإن نـالوا العناية التامـة مـن نظافـة وتغذيـة متكاملـة، وتـوفرت لـديهم الألعاب المختلفة، فإنهم يبقون متخلفين في وضعهم النفسي عـن غيرهـم. فيتـأخرون في البدء بالنطق والمشي، والشيء الأهم أنه لوحظ لديهم اختلالات جدية في حياتهم الانفعاليـة؛ إذ يـصبح الطفـل بعـد فراقـه لأمـه انطوائيـاً حزينـاً، وغالبـاً مـا يبكـي بصوت خفيض، وتظهر لـديه نظرة سلبية تجاه الآخرين ورغبة في الابتعاد والانـزواء. وتضعف عند الكثيرين منهم الشهية للطعام، ويستيقظ البعض الآخر مرات عديدة في الليـل مظهـرين الأقـل والاضـطراب. ويـؤثر فـراق الأم كـذلك في صـفات الطفـل الشخـصية ذات الطبيعـة الانفعاليـة أيـضاً؛ فالأطفــال الـذين شـبوا خـارج الأسـرة يكونون أقل قابلية لإظهار الانفعالات الغنية والتأثر، وأكثر انطوائية وجفافاً. وفي سن المراهقة يسعون لسد هذا النقص الشديد من الحب والحنـان، ولـذلك يبحثـون جاهـدين لمـصادقة مـن هـم في سـنهم نفسه. وكـثير مـن هـؤلاء الأطفـال يمكـن أن يقعوا في حب ذلك الإنسان الذي، حسب اعتقادهم، يمكن أن يذكرهم بالأم ولـو بأي شيء.

ويجب القول، إن مثل هذه الأشكال من السلوك تلاحظ لـدى الأطفـال الـذين ترعرعوا ضمن الأسرة، التي لم يظهر فيهـا الأب أو الأم الحـب والحنـان للطفـل، ولم يبدوا له الاهتمام والرعاية.

بالطبع، لا يتوجب اعتبار فقدان الطفل لأمه قضاءً مبرماً باختلاف شخـصيته: أي إذا مـني الطفـل بفقـد أمـه لـسبب مـا يـصبح بالـضرورة محكومـاً بـأن يـشب كشخصية غير سوية ومتـأخرة في نموهـا العقلـي والنفسي، فكـم مـن الشخصيات الفـذة ترعرعـت في بيـوت الأيتـام ونمـت بـصورة متألقـة غنيـة في روحهـا، ومـن جهـة أخـرى، فيمكـن للأسـرة مـع حبهـا للطفـل والاهتمـام بـه أن «تقـدم» شخـصيات غـير سوية، وغير متكاملة عقلياً، وربما شخصيات خطرة على المجتمع. إننـا باسـتعراضـنـا لهذه المسألة نبغي تأكيد أهمية وضرورة التماس الانفعـالي بـين الطفـل وأمـه، وإبـراز الـدور الكـبير لـلأم في تكـوين شخـصية ولـدهـا ونمـوه النفـسي العـام، فـالأم والأب

والجدة يرتبطون جميعاً في مخيلة الطفل بإمكانية الحصول على المساعدة والحماية، وضمان الهدوء والطمأنينة وتوطيد الثقة بالنفس.

ومما يثير الدهشة، أن مثل هذه الحالات الانفعالية لا تميز الأطفال وحسب، بل هي موجودة عند صغار الحيوانات أيضاً، فقد اشتهرت نتائج أبحاث جين غودول، التي تعرضت على مدى عشرة أعوام لاختبار أنواع قرود الشمبانزي المتوحشة التي تقطن في محمية الوحوش الإفريقية غومبا. في هذه البحوث يلقى الضوء بشكل ساطع على مسألة دور الأم في تطور صغار الشمبانزي، وقد أصبح معروفاً أن سلوك صغير الشمبانزي يتغير في السنة الثالثة من عمره بعد موت أمه، على الرغم من أنه يصبح في هذا السن على درجة كافية من الاعتماد على الذات، وقادراً على تناول مختلف أنواع الغذاء التي يتناولها الكبار من فصيلته. ويصف ج. غودول نتائج أبحاثه وملاحظاته التي حصل عليها من مراقبة صغيري شمبانزي في السنة الثانية من العمر (مارلين وبيتل)، اللذين فقدا في وقت واحد تقريباً والدتيهما. فقد وقع كلاهما في حالة من الكآبة، وفقد الشهية إلى الطعام، وأظهرا القلق والاضطراب. إلا أنه بعد فترة معينة أخذت حالة كل منهما تختلف عن حالة الآخر: إذ أصبحت حالة بيتل زائدة الحيوية نشيطة، أما حالة مارلين فقد بقيت في تدهورها الشديد وقد كتب ج. فودول: «بعد التحليل الدقيق للاختلاف الذي ظهر بين سلوك مارلين وبيتل استطعنا إلى حد ما تفسير أسباب هلاك معظم صغار الحيوانات التي فقدت أمها. فبفقدان الأم اصطدم هؤلاء الصغار وجهاً لوجه مع ذلك العالم الغريب الذي يعيشه الكبار ولم يكونوا بعد مهيئين نفسياً لملاقاته. فقبل ذلك كانوا يهرعون عند أقل شعور بالخطر للاحتماء في ظل أمهاتهم ويتلمسون جسدها ويتمسكون بصوفها، أو يأخذون بلعق ثديها. أما الآن فشعورهم بالعجز والتعرض للخطر أدى إلى ظهور مختلف الأشكال الممكنة من الإحباط النفسي الذي انعكس على سلوك هذه الصغار التي فقدت والديها، إذ إن الأفراد الأكبر في المجموعة لم يتمكنوا من التعويض عن رعاية الأم. لكن حظ بيتل من هذه الناحية كان أوفر، فقد استطاعت أختها الأكبر قوية البنية واليافعة، أن تعوض عن فقدان الأم، ولا سيما أنها سمحت لبيتل الصغيرة ذات السنوات الثلاث بالركوب على ظهرها. وأدى هذا التواصل الفيزيائي مع الحيوان الذي أشرف على

البلوغ إلى بعث الطمأنينة والهدوء في نفس الصغير الذي أصابه الخوف، وغرس الثقة في نفسه بأن كل شيء سيكون على ما يرام.

أما مارلين، فإنها بعكس بيتل، لم تستطع أن تمني نفسها بمساعدة أختها في لحظات الاضطراب التي تحدث في القطيع أو في لحظات الخطر، إذ إن ميف، التي كانت لا تزال صغيرة، لم تستطع تهدئة روع أختها وحمايتها على الرغم من أنها كانت بمثابة الصديقة الوفية لها. ولهذا السبب بالذات يمضي مؤلف الكتاب قائلاً: «إن أسباب هذه الحالة النفسية الصعبة التي وقعت فيها مارلين ذات طبيعة نفسية بحتة، ولا يمكن أن تفسر أبداً بفقدان حليب الأم، بل يجب أن ترجع إلى شعور العجز الاجتماعي عن مواجهة الأخطار».

لنستعرض الأمثلة التالية: «إن أمي رمت بي وحيداً في محطة السفر وأنا في عربتي الصغيرة. يقال: إن الناس وقتها حملوني إلى مركز الشرطة، ومن هناك نقلوني إلى بيت الأطفال المتروكين، حيث تلقيت هناك تربيتي. وكانت الإقامة هناك تعجبني، لكني كنت أنتظر على الدوام ذلك اليوم، الذي تعود فيه أمي إلي وتأخذني معها إلى البيت. لكنها لم تأت. والآن قلما أفكر بتلك المرأة التي أنجبتني ثم رمتني للقدر، وإنما أفكر أكثر بأولئك الذين قدموا لي التربية والعناية في بيت الأطفال، وبالأصدقاء الذين عشت معهم. فلماذا التفكير بالأم؟ إنها لم تتذكرني أبداً، على الرغم من أنني على أبواب العام السابع عشر من عمري».

«أنا لا أعرف ولا أريد معرفة أمي. فلدي شعور باللوعة والأسى على مدى العمر كله». هكذا كتب بعض طلاب الصف العاشر من المدرسة رقم 197 لدى تكليفهم بكتابة مواضيع إنشائية اختيارية أثناء وجودهم في معسكر عمل تربوي في مدينة كولبينو، أولئك الأطفال الذين تركتهم أمهاتهم، ظلوا محافظين على شعور الأسى والاستياء طوال حياتهم.

ما هو السر الذي يكمن في الأم، ولأي سبب يشعر الطفل بالراحة والطمأنينة بين أحضانها؟ بماذا، وبأي وسائل تستطيع الأم كسب ود ومحبة الطفل، ولماذا تصبح بالنسبة له أغلى شيء في الوجود. يؤكد معظم الباحثين أن السبب يعود بالدرجة الأولى إلى محبتها المجردة للطفل. وهذه المحبة متعددة الجوانب؛ فهي تشمل

حماية الطفل ورعايته والاهتمام به والقلق من أجله وغير ذلك من المشاعر. ولا تسمح هذه المحبة للأم بأن تعهد بطفلها لأحد ما «ورميه» للجيران أو للشارع لكي لا يزعجها، أو أن ترسله إلى مكان ما طوال الصيف كي تعطي لنفسها إمكانية الخلود إلى الراحة. بالطبع، إن الأم بحاجة للراحة، ولن يؤدي غياب الطفل المؤقت عنها إلى ضرر كبير له. لكن ذلك يبقى صحيحاً ضمن شرط واحد: أن تستمر تلك العرى الخفية، التي تربط الطفل بأمه، فالأم لا ترسل ولدها إلى المعسكر دون أي مشاعر، وإنما تكون واثقة بأن الهواء الطلق والمناخ الجماعي المناسب والأعمال المفيدة ستقدم النفع والمتعة لطفلها، وإذا تركت الأم طفلها برعاية شخص ما، فإنها تبقى طوال الوقت قلقة عليه، ويبقى في مخيلتها، وتغتنم أقل فرصة كي «تهرع» لرؤيته. كتب الباحث الشهير في علم نفس الأطفال البروفيسور ي. أ. آركين: «... يجب الاعتراف بأن حب الأم، والعلاقات المميزة التي تنشأ بينها وبين طفلها تعتبر من أهم عوامل النمو الطبيعي للمجال الانفعالي، وبالتالي، لحياة الطفل بالكامل».

أما ما يخص تلك الطرائق المحددة، التي تقود إلى نمو وتوطد مشاعر الحب المتبادلة بين الطفل والأم، فسنتوقف عندها بتفصيل أكثر. وقبل كل شيء فالأم تلبي حاجات الطفل العضوية الأساسية: حاجته للأوكسجين والقيام بفعل المص وتلقي المؤثرات المختلفة. يكون تنفس الطفل في بداية حياته غير منتظم ولذلك، فعندما تحرك الأم طفلها وتقلبه، وتمسك به واقفاً، تساعده بهذا الشكل في الحصول على ما يلزمه من الأوكسجين، أما ما يخص حاجة الطفل للمؤثرات، فأهم شيء يحتاجه الطفل في المراحل المبكرة من حياته هو مؤثرات المعاشرة. فأثناء هذه التأثيرات (حين تقوم الأم بتمسيد جسد وليدها وملامسته بيديها الدافئتين وضمه إلى صدرها وغسله) تتشكل أول رابطة روحية بين الطفل والإنسان البالغ. وقد اتضح أن أهم عامل يساهم في نمو حب الأطفال للأم هو جسدها الرقيق الدافئ. وتم التحقق من هذا الأمر تجريبياً على الحيوانات، حيث أخذت صغار النسناس من أحضان والديها بعد عدة ساعات من ولادتها، وأعطي لقسم منها «أم» مصطنعة: أسطوانة خشبية ملفوفة بقماش وثير ناعم مجهزة بحلمة ثدي اصطناعية مملوءة بالحليب، وقدم للقسم الآخر: هيكل من الأسلاك المعدنية ذو شكل أسطواني مجهز بثدي اصطناعي مشابه لذلك

الثدي المستخدم في الحالة الأولى، ثم تبين أن صغار النسناس تبدي تعلقاً أكبر بالأم الاصطناعية يزيد كثيراً عن تعلقهم بالأم المصنوعة من الأسلاك العارية. إن وجود الأم «الوثيرة الناعمة» حرر صغار الحيوانات من الفزع وسمح لهم بإظهار الفضول المميز لهم تجاه الأشياء الجديدة، أي إنهم تصرفوا بشكل أكثر طمأنينة.

وعندما كبرت هذه القرود وأصبحت تمتلك ذرية اتضح أنها غير قادرة على تربية صغارها، إذ كانت غير مبالية بها أو شرسة في التعامل معها بصورة غير عادية: فكانت غالباً ما تعاقبها وتقوم بضربها وخدشها. أما أولئك الذين كبروا بجانب الأم «الناعمة» فكانوا أقل شراسة وعدوانية من الذين وضعوا مع الأم المصنوعة من الأسلاك. على أساس ذلك فقد توصل أصحاب هذه البحوث إلى استنتاج يؤكد أن سلوك القرود يتأثر بشكل كبير في تلك الجملة من علاقات المعاشرة مع الوالدين التي يعيشونها أثناء طفولتهم.

ومن المؤسف عدم وجود معطيات واضحة عن دور مؤثرات المعاشرة في تطور نفسية الطفل. بيد أنه يمكن الاعتقاد بأن الأم عبر ملامستها للطفل وهدهدتها له وملاطفته وتمسيده تقدم له مؤثرات المعاشرة الحسية الدافئة، الضرورية لنموه الطبيعي. وبالتأكيد إذا لم يحصل الطفل على القدر الكافي من هذه المؤثرات الحسية، فإنه يلجأ للتعويض عنها بقيامه بحركات تلقائية بشكل آلي كتقليب الرأس على الوسادة، وهز الجسد وأرجحته وضرب الرأس بالجدار وما شابه ذلك من حركات.

والحاجة الثالثة عند الطفل، والتي لا يمكن لغير الأم أن تشبعها، هي حاجته للقيام بفعل المص، يعتبر الكثيرون أن غريزة مص الأشياء عند الأطفال موجهة فقط لإشباع حاجتهم إلى الطعام. إلا أن بعض الباحثين يؤكدون أن حاجة الأطفال للمص ليست مرتبطة بشعور الجوع فقط، لذلك فإذا أطعم الطفل كل أربع ساعات مرة واحدة يكون سلوكه أكثر اضطراباً، وذلك ليس بسبب شعوره بالجوع، بمقدار ما هو نقص في إشباع حاجة المص لديه. أما إذا خفضت الفترات الفاصلة بين الإطعام حتى ثلاث ساعات مع المحافظة على كمية الطعام التي يتناولها الطفل في الحالة الأولى نفسها، فإنه يصبح أكثر هدوءاً. ومن المعروف جيداً، أنه إذا أرضع الطفل

من زجاجة بفوهة واسعة لخروج الحليب، أو إذا كانت حلمة ثدي الأم ضعيفة، بشكل يؤدي إلى اكتفاء الطفل من الغذاء بسرعة، فإن ذلك يؤدي إلى نمو عادة مص الأصابع عنده، أو تناول أي مادة يقع عليها بصره، ومن المحتمل أن يكون الإنسان قد ابتكر لهاية الامتصاص من أجل إشباع حاجة المص عند الأطفال.

يعتقد بعض العلماء أن فعل المص في مراحل الطفل المبكرة يقوم بدور تحسس واختبار الأشياء. فلنمعن النظر إلى الأطفال ونلاحظ كيف يتناولون كل ما يقع تحت أيديهم ليضعوه في فمهم ويأخذوا بمصه. من المحتمل أن سبب حدوث هذا الشيء كون تجويف الفم الذي يحوي الشفاه واللسان وسقف الحلق واللثة، هو الجهاز الأكثر حساسية عند الطفل، الذي يمكنه في مراحل عمره الأولى من القيام بعملية المص. لذلك فإن عادة الأطفال المتمثلة بالنزوع لتذوق كل شيء يصادفونه يمكن أن يفسر بمقدرة تجويف الفم على تحسس وتذوق المادة بشكل أفضل مما تقوم به اليد. بالإضافة إلى ذلك (وهذا هو كما يبدو أهم ما في الأمر) فإن انفعالات الطفل الصغير التي ترافق عملية المص بالغة الأهمية ليس فقط من أجل تغذيته السليمة، وإنما تعتبر عاملاً حاسماً في تطور العلاقات الحميمة مع الأم ومنبعاً أساسياً للأحاسيس العاطفية الإيجابية.

وهكذا، فقد توصلنا إلى حقيقة مفادها أن المجال الانفعالي للطفل في مراحل تطوره المبكرة يتعلق بصورة مباشرة مع حاجاته. وبالدرجة الأولى حاجاته العضوية، ثم حاجاته الروحية التي تأخذ بالظهور. وتقوم الأم وذوو الطفل المقربون بدور حاسم في تلبية هذه الحاجات وإشباعها. أثناء عملية إشباع هذه الرغبات تتولد العلاقة الحميمة بين الطفل وأمه، التي تأخذ إلى حد كبير توجيه النمو المستقبلي لنفسية الطفل وتحديد طبيعة علاقاته المتبادلة مع من حوله. فأثناء أولى مراحل التماس مع الأم تتشكل لدى الطفل مشاعر التعلق ومحبة الآخرين، ثم السعي لرعايتهم، أي تلك المشاعر التي نتوق لرؤيتها لدى أبنائنا البالغين.

من المؤسف أنه لا توجد في المؤلفات العلمية معطيات كافية عن دور الأب في المراحل المبكرة لنمو الطفل. لكن الكثير من المؤلفات المخصصة لإرشاد الأمهات في تربية الأطفال حديثي الولادة تؤكد بحزم أن الأب ملزم بالمشاركة في رعاية

الطفل الرضيع: مرافقة الطفل للنزهة وغسل ثيابه وكيها والقيام بلفه والاعتناء به... إلخ، بيد أن الحديث في معظم الأحيان يدور حول دور الأب في الحلول مكان الأم للقيام ببعض مهماتها الثانوية. ففي الوقت الحاضر تتولى معظم الأسر الحديثة مهمة تربية أطفالها بنفسها دون مساعدة الأقرباء، أو بقسط لا يذكر من هذه المساعدة (تعيش الجدات بصورة منفصلة وغالباً ما تمارس عملاً معيناً)، ولذلك يقع على عاتق الأم عبء ثقيل: عملها في الوظيفة، والأطفال، والأعمال المنزلية... إلخ. فالحياة نفسها ترغم الأب على «الانخراط» في تدبير أمور البيت والمساعدة في تنفيذ المهمات الجديدة التي تبرز في الأسرة مع ولادة الطفل الجديد. والأب العصري يقوم بغسل الثياب والأواني وتأمين نظافة الطفل، واصطحابه إلى الهواء الطلق وإرساله إلى روضة الأطفال. فمثل هذا التصرف للأب بالذات يعمل على تنمية أهم عامل لنجاح الأسرة المحافظة على الهدوء والود داخل الأسرة، وتجنبها الوقوع في الخصومات والمشاحنات، ويولد بين الزوجين جواً من التفاهم المتبادل والمودة. فالأم الشابة ترتاح نفسياً عندما تلمس أن أعز شخص لديها قد تبدى بالفعل صديقاً حميماً. بالإضافة إلى ذلك فهناك جانب آخر أكثر أهمية لهذه المسألة فلدى قيام الأب بلف طفله وغسله وإلباسه وتحضير الطعام له «يتشبع» بهذه المشاغل. وعلى غرار عملية تكون العلاقات المتبادلة بين الطفل وأمه، يحدث الشيء نفسه عند معاشرة الطفل لأبيه فيتشكل لديه ذلك الشعور بالقرب من الوالدين، الذي لا يمكن من دونه أن تكون هناك أسرة ناجحة. ومما لا شك فيه، أنه مع ولادة الطفل ينشأ عند الأب شعور آخر يتجاوز إحساسه بالافتخار: «فلتنظروا، ولتعلموا: أنني أصبحت أباً، وأصبح لدي ابن»! (أما إذا كان لديه ولدان فسيتحدث مفاخراً بذلك عند كل زاوية)، شعور دافئ بهيج تجاه ذلك المخلوق الصغير. وهذا الشعور ينمو ليتحول إلى شعور بالتعلق والمحبة والعطف على الطفل ورعايته والقلق من أجله، وذلك إذا «تغذى» هذا الشعور بسلوك يتلاءم مع هذه المشاعر من قبل الأب نفسه، فالأب لا يعزل نفسه عن لفائف الطفل وحاجاته ولا يبتعد عن طهي الطعام له، أو شراء ما يلزمه من السوق بحجة «انشغاله» في تنفيذ الخطط الإبداعية واهتمامه بالأحداث السياسية ومشاهدة البرامج التلفزيونية ومباريات كرة القدم والهوكي، وإنما يكرس جزءاً كافياً من

أوقات فراغه لرعاية الطفل، فيتوطد لديه ذلك الشعور الدافئ بالبهجة، الذي يشعر به مع ولادة الطفل وتتشكل بالمقابل لدى الطفل مشاعر مماثلة من المودة تجاه الأب. وعادة يسبب الأطفال «الإزعاج والضيق» لأولئك الآباء، الذين أقصوا أنفسهم عن رعاية أطفالهم في الأيام والأشهر والسنوات الأولى من حياتهم. ومن أجل إثبات صحة وجهة النظر هذه نورد بعض الكلمات التي أفصح عنها الآباء. فقد كتب أحد الآباء وهو والد لطفلين ذكرين مجيباً عن الأسئلة التي وجهت إليه بما يلي: «أنا بالطبع أحب ابني الأكبر لكن شعوري نحو الأصغر هو شعور مميز. أغادر عملي راكضاً، وأسرع قافزاً إلى حافلة النقل لكي أريح بضع دقائق لأصل إليه مبكراً وآخذه من روضة الأطفال. إنني أود دوماً التنزه معه وإثارة البهجة في نفسه بشيء يسعده. لذا فغالباً ما أتجول في الحوانيت باحثاً عن ألعاب مثيرة أو حلويات لذيذة. وقد يكون تعلقي بابني الأصغر راجعاً إلى أن ولادة ابني الأول جاءت عندما كنت في مهمة طويلة الأمد في شمال البلاد، مما لم يتح لي الفرصة برؤيته المتكررة. أما ابني الثاني فنما بين أحضاني، وقد ساعدت زوجتي في الاعتناء به، إذ كان من الصعب عليها تربية طفلين صغيرين، مما دفعني للقيام بكل ما يلزم لرعايتهم. فكنت أقوم بجميع الأعمال التي تفعلها المرأة. وهكذا نما تعلقي الشديد بابني الأصغر».

كما نورد حديث والد آخر: «في البداية كنت أظن أن الرجل لا يمكن أن يقوم بكل هذه المشاغل، ولا سيما تلك التي تتعلق برعاية الأطفال والاهتمام بهم. فقد كنت أخشى حمل طفلي بيدي. لكنَّ زوجتي وقعت طريحة الفراش مدة طويلة فغدوت مضطراً لأن آخذ على عاتقي تحضير الطعام له وإطعامه ووضعه في السرير وقص الحكايا عليه وملاعبته والتنزه معه. وسارت الأمور بصورة لا بأس بها.. وتعودت، وأخذ ذلك يثير الإعجاب والمتعة لدي. وهكذا فقد أصبح هذا الطفل بالنسبة لي - ابنتنا - أكبر سعادة تغمر كياني في هذه الحياة». بالطبع فإن شعور محبة الآباء لأبنائهم سعادة كبرى للآباء وللبنين. وتتم ولادة هذا الشعور عند الأب أثناء عملية الاهتمام بالطفل ورعايته. أما الطفل فيجيب دوماً على ما يتلقاه من المحبة بمحبة مثلها.

إن أصغر طفل يشعر بالمعاناة والسرور والخوف.

ها هو طفلكم قد كبروخرج من لفائفه وأصبح بحاجة للحركة، ومهما حاولتم تثبيت يديه بالأربطة فسوف يطلقها، وهو الآن يرغب في الجلوس والزحف، ثم لا تلبث أن تراه واقفاً في سريره متمسكاً بعارضته بقوة. وها هو الآن يستطيع أن يقطع المسافة بين إحدى زوايا السرير وزاويته الأخرى، ويرفع رجله محاولاً الانطلاق نحو الفراغ. وقد آن الأوان لنقله من السرير الضيق ليستقر في مضمار أوسع وأكثر راحة وأماناً يتسع لمختلف الألعاب والدمى التي يتسلى بها. إن المضمار يأتي لمساعدة الأم في أشد فترة من فترات نمو الطفل حرجاً، وذلك عندما تكثر حركته وتقل فترات نومه. بيد أن الطفل يأخذ بعد فترة بإظهار عدم الرغبة في الجلوس في مضمار اللعب، فهو يظهر استياءه باكياً أو متشاقياً، أو إنه يأخذ بمحاولة الخروج من المضمار بهدوء وجد لاهثاً من شدة التأثر. وبالطبع نضطر هنا إلى أن نطلقه إلى أرجاء البيت الرحب. فيبدأ بالزحف على البساط الوثير، ثم ينجح للمرة الأولى بقطع مسافة النصف متر القائمة بين يدي الأم والأب ماشياً على قدميه الغضتين «بالتلويح» فقد بدأ صغيرنا بالمشي! «سرعان ما نزف هذا الخبر السار لجميع الأقرباء والأصدقاء بكثير من البهجة والافتخار». وهنا تبدأ الشقاوات والمشاكسة... فإما أن نجد هذا المشاكس الصغيروقد تسلل إلى الفراغ الضيق بين خزانة الملابس والمنضدة الصغيرة، وما علينا إلا أن نهرع لمساعدته راكضين، أو أن يأخذ فجأة بالركض منطلقاً من غرفة إلى أخرى، ومن قاعة الجلوس إلى المطبخ، دون أن نستطيع إيقافه أو كبح جماحه. ونكون محظوظين إذا اكتفى الطفل أثناء تطوافه في البيت باستخدام أشياء غير خطرة كأدوات للعب، وإذا اقتصر الأمر على تناوله قلم حمرة الشفاه أو معجون الأسنان. أما إذا كانت هذه الأشياء أدوية ذات خطورة كبيرة عند تعاطيها بكميات كبيرة، أو مساحيق منظفة، أو حمض فماذا يحدث. فنحن لا نستطيع أن نحزر الأشياء التي يمكن أن تثير لدى الطفل الفضول والاهتمام.

إن الأطباء يعرفون الكثير من المآسي، التي نتجت عن إهمال الأهل وقلة اهتماماتهم بحركات الطفل هذه. فترى الكثير من الأطفال يدخلون المستشفيات وهم في حالة خطرة لأنهم تناولوا كميات كبيرة من حبوب الفيتامينات، أو الحبوب المسكنة أو مساحيق التنظيف، أو شربوا جرعات كبيرة من الخل.. إلخ أما الحروق

فهي خطيرة أيضاً، إذ يمكن للطفل أن يدلق على نفسه مقلاة الزيت المحمى حتى الغليان، أو أن يقفز من كرسيه على حوض غسل الثياب المليء بالماء المغلي، أو أن يمسك بالقدر الساخن بكلتا يديه.

إن رغبة الطفل في تناول أي شيء إلى فمه وتذوق كل ما يقع تحت يده لا يمكن أبداً أن تفسر بأنها تمرد منه على إرادة الأهل أو زيادة في تدليله، بل هي تطور طبيعي لنمو وظائفه الحسية: إن فراغ الفم لدى الطفل منطقة شديدة الحساسية وتعتبر وسيلة للتعرف على الأشياء وتحسسها، أنجع بكثير من اليد. لهذا السبب بالذات ينزع الأطفال إلى تناول كل ما يصادفونه من أشياء إلى الفم. وقد يثير فعل اللمس والتحسس ذاته عند الطفل متعة وانفعالات إيجابية.

ويمكن أيضاً لحاجة الطفل الجامحة إلى الحركة أن تنقلب إلى وقائع مأساوية بكل معنى الكلمة. فأمامنا مشكلة ولا نعرف كيف ينبغي أن نتصرف: هل علينا أن ندع الأمور تسير كما تشاء، أم الأفضل أن نلجأ إلى المنع والمعاقبة والإقناع والتفسير؟ إن الكثير من الآباء والأمهات يسلكون أسهل السبل: طريقة المنع: «لا تلمس هذا»!!، «لا يجوز أن تأخذ ذاك»، «دع هذا الغرض من يدك»، «لا تنزع تلك اللوحة من مكانها»، «لا تدخل هذا في فمك»، وتستمر هذه الطريقة بعد فترة من نمو الطفل على هذا الشكل، «يا لك من ولد عاق»!، «كم مرة قلت لك ألا تأخذ هذا».. إلخ لكن تعالوا لنحاول النفوذ إلى جوهر سلوك الطفل هذا. وبالتأكيد فإن توق الطفل لأخذ كل شيء بيديه، وتلمس جميع ما يصادفه، وتحريكه من مكانه وتذوقه بلسانه ناتج عن أمر مغاير تماماً للرغبة في إثارة الغضب في نفوس الأهل، أو إظهار الصلف والعناد وعدم الطاعة والغباء. إن مثل هذا السلوك هو أمر مميز لجميع الأطفال.

إن الرغبة في استقصاء كل شيء تظهر لدى الطفل بشكل حاد، مهما حاولنا منعه وعرقلته عن فعل ذلك. فلتحاولوا أن تنزعوا من يد طفلكم زجاجة العطر التي وجدها على منضدة التجميل وأخذ يتفحصها باهتمام، طارقاً بها أرض الغرفة تارة والجدار تارة أخرى، ثم منتقلاً لنزع غطائها وشم رائحتها، لينتهي به الأمر لصب ما فيها على نفسه. وهنا تسمعون صرخته التي تنبئ عما فعله.

إن توجه الطفل لمعرفة وتفحص الأشياء يتمتن لديه بتأثير الانفعالات السارة التي ترافق ذلك، مما يدفعه للمطالبة بتلبية هذه الرغبة الجامحة على الدوام. عدا ذلك فإن ضرورة تنمية حب الاطلاع والمعرفة لدى الطفل متعلقة أيضاً بالعمليات الفيزيولوجية المتطورة التي تجري في قشرة المخ. ومن المؤكد أن الانفعالات «تنضم» إلى سلوك الطفل وتصبح «مقياساً» لحالته النفسية في ذلك الوقت، عندما تبرز هذه الجملة من مركبات نفسية الطفل أو تلك وتتقدم إلى المركز الأول، لتقوم بالدور الأساسي لنموه النفسي اللاحق. في هذه الحالة تساهم الانفعالات في تقوية تأثير تلك المركبات. وتتغير هذه المركبات على امتداد مراحل نمو الطفل المختلفة وسنتعرض لها بالبحث مع بدء قيامنا بتحليل عملية تشكل المجال الانفعالي للطفل. أما في مراحل نمو الطفل المبكرة فتكون الغلبة لأهم حاجة روحية لديه: حاجته لتكوين الانطباعات المختلفة عما يراه. لذلك فالطفل يتفحص ويتلمس ويتذوق بلسانه جميع الأشياء التي يصادفها ولا سيما للمرة الأولى. كتب البروفيسور ل. إزيوجوفيتش الدكتور في العلوم النفسية: «إن الحاجة لتكوين الانطباعات هي أهم حاجة لنمو الطفل النفسي من بين جميع حاجاته الأولية».

فالأهمية النفسية لهذه الحاجة تكمن في أنها الأساس لتطور ونمو حاجات اجتماعية أخرى، والقاعدة التي تنمو عليها نفسية الطفل هي أنها تتطور فيما بعد لتتحول إلى حاجته للمعرفة والاطلاع.

وتتمتع هذه الحاجة بالخصائص المهمة التالية، أولاً: إن الحاجة إلى تكوين الانطباعات، باختلافها عن حاجات الطفل العضوية، هي حاجة لا يمكن إشباعها، إذ إنه كلما حصل الطفل على انطباعات أكثر، ظهرت لديه رغبة أكبر بالحصول على المزيد من هذه الانطباعات، ثانياً: إن حاجة الطفل للحصول على الانطباعات، التي تتحول فيما بعد إلى حاجته للمعرفة والاطلاع، تضمن نموه النفسي والمتكامل، الذي لا يمكن أن يتم دون التعلم واستيعاب الخبرات السابقة، التي اكتسبتها البشرية. والحاجة للانطباعات مرتبطة مع الانفعالات الإيجابية: يحصل الطفل على المتعة ويداخله شعور الفرح لدى اكتشافه الأشياء الجديدة، وتعرفه على أمور كانت مجهولة بالنسبة إليه. لهذا السبب يصغي الأطفال في هذه السن إلى الحكاية

التي تسرد عليهم ببالغ السرور والدهشة، ويرجون الأهل بشدة أن يقرؤوا لهم، ويمعنون النظر بمتعة شديدة إلى الرسوم التي تحتويها الكتب، ويتوسلون: «اشتر هذا، وهذه أيضاً وهذه، وأريد هذه أيضاً». وهكذا فحاجة الطفل للانطباعات تولد لديه الانفعالات الإيجابية وذلك السرور البالغ بمعرفة الأشياء، التي تتشكل على أساسها في المستقبل المشاعر الذهنية، والتي تعتبر في حقيقة الأمر منبعاً للإبداع. ويمكن القول إن هذا هو الجانب النفسي للموضوع، إلا أن تطور الحاجة للانطباعات يتضمن، كما بات واضحاً تشكل بنى المخ الإنساني أيضاً.

وتم التوصل عن طريق الأبحاث التي أجراها علماء الفيزيولوجيا إلى أن الكثير من بنى المخ تتشكل أثناء حياة الإنسان. ومن أجل توضيح هذه الحقيقة سنسمح لنفسنا بالتذكير ببعض أسس مادة التشريح البسيطة الخاصة ببنية الجملة العصبية. الجميع يعلم بأن نشاط الجملة العصبية قبل كل خلايا الجسم الأخرى تملك فروع قنوات ناقلة، ويعود لها الفضل في نقل التأثير، الذي تتلقاه أجهزة الحواس، من خلية عصبية لأخرى حتى يصل إلى قشرة المخ، ثم يعود إلى الجهاز الحسي الذي قام بإرساله. في حقيقة الأمر فإن جميع مظاهر نفسيتنا البالغة التعقيد والتنوع تقوم على أساس عمليات التأثير والكبح التي تجري في قشرة المخ.

إن الطفل الذي ولد لتوه لا يملك جملة عصبية متطورة؛ فالكثير من الخلايا العصبية تكون في حالة جنينية ولم تتشكل فيها بعد الأقنية الناقلة (وتكون غير مغطاة بعد بتلك القشرة الخاصة التي تؤدي دور المادة العازلة). وتكون عملية الكبح متجلية بصورة ضعيفة. ولا تتشكل الجملة العصبية بصورة كاملة إلا مع نهاية السنة السادسة من عمر الطفل. وهذا التشكل - تكوُّن الخلايا العصبية وتشكل قنوات الاتصال - لا يمكن أن يتم إلا في ظروف التدريب والتمرين المستمرين، أي في حالة النشاط المتنوع للجملة العصبية، التي تسمح للطفل بالحصول على المؤثرات الموافقة. إذاً من المعلوم أن أي عضو في الجسم الحي يستطيع القيام بوظائفه عندما يحصل على «الغذاء» الموافق له.

وغذاء الجملة العصبية هو المؤثرات التي يصادفها الطفل على اختلاف أنواعها. وبالطبع فإذا ساهمنا بتكوين تيار جديد من المؤثرات أو بعث المؤثرات

القديمة في صور جديدة جذابة فإننا نقوم بتدريب الجملة العصبية وتقوية نشاطها، أي إننا نساهم في التعجيل في نموها. لهذا السبب بالذات فإن الطفل يرجو ويصرخ ويطالب بتقديم الألعاب إليه، وإثارة الانطباعات عنه، وقص الحكايا عليه وقراءة الكتب الممتعة والتحدث معه. أما إذا لم تشبع هذه الحاجة لدى الطفل فيبرز لديه ما يسمى بالجوع الروحي، أي التعطش لتلقي الانطباعات.

وإذا أصيب الطفل بهذه الحالة يصبح مضطرباً ومشاكساً وغير مطيع وعنيداً وجامحاً وتسيطر عليه بسهولة الحالات الانفعالية العنيفة. وكان ذلك يدعى سابقاً بنقص التربية، حيث أكد الكثير من العلماء خطورة هذا الوضع بالنسبة لتطور الطفل النفسي. فالبروفيسور ن. م. سيلوفانون يعتبر أن نقص التربية حتى عند توفر أفضل صورة لتغذية الطفل المتكاملة ورعايته الصحية، يؤدي إلى عرقلة نموه وتطوره العقلي والذهني وتطوره الجسدي أيضاً، وقد اعتبر أن نقص التربية يزيد من نسبة الوفيات بين الأطفال بشكل حاد.

لقد أكد العالم النفسي الإنكليزي ت. باوير في كتابه «التطور النفسي للطفل الرضيع» بتقديمه مواد تجريبية متنوعة وواسعة أهمية الدور الكبير للفترة المبكرة من حياة الطفل على تطوره اللاحق فكتب يقول: «إن دور الرضاعة حسب اعتقادي يعتبر المرحلة الحاسمة في تطور الطفل الذهني، ففي هذه الفترة يمكن للطفل أن يكتسب الكثير ويمكنه في الوقت نفسه أن يخسر الكثير. والشيء الأهم من ذلك أن ما يفقده الطفل في هذا الدور لا يمكن أن يعوض عند الكبر بسهولة، أما ما يكسبه أثناء ذلك فيترسخ لديه لأمد بعيد».

وهكذا فقد بينت البحوث أن تعرف الطفل على ما يحيط به من أشياء هو حاجة ماسة يؤدي إشباعها لإثارة شعور البهجة والسرور، أما عدم إشباعها فيؤدي إلى الجوع الروحي. إن الألعاب والكتب والأقلام، كل هذا يساعد الطفل في الحصول على الانفعالات الإيجابية، لأن هذه الأشياء تعتبر وسيلة لإشباع حاجة الطفل في تكوين الانطباعات. ولهذا السبب، إذا طلب الطفل شراء لعبة فيجب شراؤها. وبالطبع فالحديث لا يدور هنا حول ضرورة ملء البيت بالسيارات والدمى والمسدسات، ولا عن تعويد الطفل على الصراخ من أجل تلبية أهوائه والمطالبة بالمزيد

من الألعاب، فليس هناك حاجة البتة في الزيارات المتكررة لمحلات الألعاب، بل يجب التخطيط السابق لزيارة هذه المحلات. عند ذلك يجب أن نقول للطفل: «لنذهب اليوم إلى حانوت الألعاب، إذ يجب أن نشتري لك بعض الأقلام الملونة، كما أنني وعدتك بشراء ذلك الأرنب الطريف، الذي أعجبك بشدة في المرة الماضية. إلا أنه لم يكن لدي آنذاك النقود الكافية، أما اليوم فبإمكاني شراؤه». وإذا أبدى الطفل رغبة في شراء الأسد بالإضافة إلى الأرنب فيمكن إقناعه بهدوء أن هذه الدمية يمكن شراؤها في المرة القادمة، أو إنه ليس هناك إمكانية لشرائها بسبب غلاء ثمنها. وهنا أيضاً لا يتوجب دفع الطفل بعيداً عن منصة المعروضات أو الصراخ في وجهه أو إلهاؤه بالوعود: «في البيت سأعطيك هذا وذاك وكل ما ترغب، فهلم نبتعد عن هذه الدمى والألعاب». وعليكم ألا تعتقدوا بأن طفلكم سينسى وعودكم هذه، فهو سيتذكرها بالتأكيد، وإذا لم تنفذوها فسيكون بكاؤه في البيت أشد، وستتولد في نفسه أولى الشكوك وعدم الثقة تجاهكم. ومن الأفضل قول الحقيقة بهدوء: «لا أستطيع شراء هذه الدمية في الوقت الحاضر، فلا بأس أن ننتظر إلى أجل آخر». فالطفل سيتفهم بالتأكيد هذا الموقف. ومهما يكن فيجب التقليل ما أمكن من استخدام عبارة «لن أشتري» لأن الألعاب والدمى هي أشياء ضرورية بالنسبة للطفل. ولن نتوقف أكثر عند دور الألعاب في تطوير شخصية الطفل. فمن المعروف أنها يجب أن تكون متنوعة ومتناسبة مع عمر الطفل وميوله لتساعد في تطوير شخصيته، وألا تكون مرعبة ومخيفة بشكلها الخارجي أو بالأصوات التي تطلقها. وبالتأكيد يفضل عدم شراء الجرار الصاخب للطفل الذي لم يكمل السنة الثانية من عمره، كما يفضل الابتعاد عن شراء البنادق الآلية التي تخيف حتى الأطفال الكبار بأصواتها الشبيهة بأصوات البنادق الحقيقية. أما النمر الوثير زاهي الألوان، فهو من الدمى المفضلة التي يحبذها الطفل الصغير. ويجب الأخذ بالحسبان الدمى والكتب والوسائل الأخرى، التي تساهم في إشباع حاجة الطفل للمعرفة والاطلاع، وتوجه نمو الطفل في منحى مميز. ولذلك يعتقد الكثيرون بأنه ينبغي أن نشتري للفتيات الصغيرات الدمى والثياب والأواني وقطع الأثاث المنزلي وغير ذلك من الحاجات التي تدخل ضمن الاهتمامات النسائية البحتة، أما المطارق وعدد الإصلاح

والمكعبات الإنشائية والتصاميم الهندسية، فهي تخص الأطفال الذكور فقط. بيد أن العلماء يعتبرون هذا التخصيص المقصود للألعاب في عصرنا الحاضر أمراً يؤثر سلبياً في تشكل نفسية الإناث والذكور على حد سواء. فالآن يقوم الكثير من الرجال في أسر عديدة بأعمال تعد ذات طبيعة نسائية بحتة، كما أن النساء يقمن بتنفيذ الكثير من العمليات الإنتاجية بصورة تضاهي الرجال، ولهذا السبب ينبغي عدم التفريق بين اهتمامات الأطفال الذكور والإناث. فلندع الصبي الصغير يلف الدمية باللفائف ويحضر لها «الغذاء» و«يطعم أسرته» ويغسل الأواني. فكل ذلك سوف ينمي لديه الاهتمام بمثل هذا النشاط، وإذا قمنا فيما بعد بتعويد الطفل الذكر على المساعدة في جميع الأعمال المنزلية، فإن ذلك سيؤدي إلى تمتين عرى الترابط في الأسرة التي سيقوم بتكوينها في المستقبل. هذا ينطبق أيضاً على الفتيات الصغيرات، فإذا تمكن منذ الصغر من اكتساب خبرة التعامل مع مختلف الأدوات والعناصر الإنشائية، فإن ذلك سيساعدهن على استيعاب المواد العلمية الدقيقة كالرياضيات والفيزياء بصورة أفضل، هذه المواد التي كانت على مدى العصور تستوعب من قبل الذكور بصورة أفضل. وهكذا فعندما نقدم على شراء الدمية يجب ألا نفكر لمن هي موجهة، للصبي أم للفتاة، إذ إننا سنجذب الصبية والفتيات على حد سواء إلى نوع واحد مشترك من الألعاب لتنمي فيهم الجوانب النسائية والرجولية من توجهاتهم واهتماماتهم بالمقدار نفسه.

بيد أن عملية معايشة الطفل لعالم الأشياء يثير في نفسه الانفعالات الإيجابية، والسلبية أيضاً، ولا سيما الشعور بالخوف والفزع. ولنتذكر: أن أولى ردود الفعل العاطفية لدى الطفل الرضيع أشد ما يوحي بشعور الخوف والفزع. وهي تظهر عند سماعه للأصوات الحادة والقوية، أو عندما يشعر بفقدان نقطة الارتكاز. ومع ازدياد مقدرة الطفل على إدراك الأشياء واستيعابها فإن إمكانية ظهور مشاعر الخوف السافرة عنده تزداد بشدة. ويمكن للطفل أن يفزع من رؤية الأشياء الجديدة غريبة المظهر أو كبيرة الحجم، أو المجهولة، أو المستعصية على الفهم والإدراك، أو التي تظهر أمامه بصورة مفاجئة. فقد وصفت حوادث انتاب الأطفال أثناءها فزع من رؤية بساط زاهي الألوان معلق على الحائط بجانب سريرهم، على الرغم من أن

الوالدين كانا يعتقدان بأنهما سيدخلان البهجة والسرور إلى نفس أطفالهما، أما النتيجة فكانت العكس تماماً، واختبأ أحد الآباء وهو يلاعب ابنه، ثم ظهر أمامه فجأة واضعاً قبعة كبيرة غريبة الشكل، وذلك بغية إثارة الضحك والمرح لديه، وكانت النتيجة أن أصيب الطفل بالفزع بدلاً من السرور والضحك، فالطفل يمكن أن يصاب بالفزع إذا سمع نباحاً قوياً مفاجئاً، أو إذا أخذت القطة بالهمهمة ونفض الشعر، أو إذا اصطفقت النافذة بشدة، أو إذا رن الجرس فجأة. وأحياناً نكون عاجزين عن معرفة الأشياء التي تثير في الطفل شعور الخوف، لكن من المعروف أن الإنسان لا يملك خوفاً غريزياً من الظلام والزواحف والوحوش البرية، وإنما يتولد خوفه منها كرد فعل منعكس شرطي، وتبرز بالطبع ضمن شروط وحالات محددة، عندما يتوافق العامل المثير للخوف مع جملة عوامل مساعدة أخرى.

بيد أن غياب الخوف الغريزي عند الطفل هو حالة أولية، حيث لا يتم المحافظة عليها عند معظم الأطفال، وفي الكثير من الأحيان يكون الأهل بالذات مذنبين في زرع شعور الخوف في نفوس أبنائهم، فنحن نحذر الطفل بصوت «مخيف»: إياك أن تقرب ذلك الكلب، فإنه يعض..، أو نتذمر أمامه قائلين: «عليكم أن تبعدوا كلبكم من هنا في الحال، ألا ترون أننا بصحبة طفل»؟ أو أن نلقنهم: «الأفاعي والضفادع هي مخلوقات مخيفة وتثير الاشمئزاز، وهي زاحفة ولعينة»! أو كأن نقول: «آه، كم أفزع من رؤية الصرصور البشع». ثم نولول في حالة الذعر لرؤيته راكضين من المطبخ والطفل في إثرنا يزعق من الهول. ويناقش الأهل في حضرة الطفل باهتمام مسألة العثور على الشخص والمكان المناسب الذي يمكن أن يرعى الطفل أثناء غيابهم عن البيت، لتقوم الأم أخيراً بالذهاب مع طفلتها التي بلغت السادسة من عمرها إلى جارتها كي لا تتركها وحيدة في البيت، أو «تسحبها» وراءها للمكان الذي ترغب في الذهاب إليه خوفاً من تركها بعيدة عن ناظريها، وهنا يبدأ الطفل بالتحسب والخوف من كل شيء فهو يخاف الضفادع والصراصير والأفاعي والسحالي والكلاب والفئران وحتى القطط، ويخاف البقاء في البيت وحيداً. وتتولد الكثير من صور الفزع عند الطفل تحت تأثير الأصوات المدوية الحادة أو ظهور الشيء المفاجئ أو الأشياء التي يوحي مظهرها بشعور المعاناة والألم.

فكثيراً ما تكون الأم مضطرة لتهدئة روع طفلها لدى رؤيته للطبيب في ردائه الأبيض، أو عند دخوله غرفة المعاينة، وكل ذلك لأن الرداء الأبيض أصبح يرتبط في ذهنه بشعور الألم؛ فقد كان الطفل يوماً مضطراً لدخول المستشفى للمعالجة وقام هذا الشخص المتلفع بالثوب الأبيض بإعطائه حقنة مؤلمة، أو أجرى له عملية أثارت لديه أحاسيس الألم والفزع، أو تألم بشدة عند طبيب الأسنان الذي اقتلع له ضرسه المصاب بالتسوس.

إذاً كيف علينا أن نتصرف، وأين المخرج من هذه المشكلة؟ هل يتوجب علينا القضاء على كل ضجيج في البيت؟ وأن نمشي على رؤوس أصابعنا ونقفل المذياع والتلفزيون، أو أن نتحدث همساً، وألا نأخذ الطفل أبداً إلى عيادة التلقيح، وألا نريه الطبيب مطلقاً. بالطبع ليس هناك من يدعي ذلك أبداً، فالحديث يدور هنا فقط عن وجوب الابتعاد ما أمكن عن كل شيء يمكن أن يثير الفزع لدى الطفل، وأن نخفف إلى حد ما من تأثير هذه الحالات التي يمكن للطفل أن يصاب فيها بالخوف، وألا ندفع الطفل بأنفسنا إلى حالات الرعب والخوف. وهذا أمر ليس بالمستحيل، وفي متناول كل أسرة. فقبل الذهاب إلى الطبيب يجب الإيحاء للطفل بأن الحقنة ليست مخيفة أبداً، وأنكم أخذتم هذه الحقنة في الماضي بكل هدوء وسكينة. ويمكن أن تعرضوا ما سوف يفعله الطبيب وتجربوه على الدمية، وأن تلعبوا لعبة المستشفى، أي أن تهيئوا طفلكم نفسياً لملاقاة الطبيب، إن هذا بحد ذاته يحسن إلى درجة كبيرة من حالته؟، وينزع الاضطراب من نفسه، ويخفف من حدة الشعور المفاجئ بالألم. أما زيارة طبيب الأسنان فيجب القيام بها في وقت مبكر، أي عندما تبدأ أعراض الإصابة الأولى بالظهور، وليس بعد أن تصل حالة الطفل إلى درجة الصراخ من الألم والمعاناة، وأما فيما يتعلق بالأصوات الحادة المفاجئة، فمن الأفضل تحاشيها في البيت ما أمكن، وإبعاد المواد المخيفة التي تصدرها. وبالتأكيد فإن الصراخ واللهجة الحادة التي يمكن أن يتحدث بها الأهل في البيت أمام الطفل، لا يمكن في أي حال من الأحوال أن تدخل الهدوء إلى الطفل أو تخفف من اضطرابه. ومن المؤكد أنكم لاحظتم كيف ينتفض الطفل خوفاً لدى سماعه صرخة حادة، ويخاف بدرجة أكبر إذا أخذتم بالصراخ الواحد في وجه الآخر أثناء وجوده بقربكم.

شعور الغضب
و مشتقاته، المشاكسة و العناد

مع بلوغ الطفل السنة الثالثة من عمره نلاحظ ظهور أشكال جديدة من السلوك لديه تجعلنا نشك بمقدرتنا على كسب طاعته ووده. «إذا كان يقوم بمثل هذه الأعمال المريبة في هذه السن، فكيف سيكون الأمر في المستقبل؟». نأخذ بالتحسب والقلق، مما يجعلنا ننظر إلى طفلنا بصرامة أشد وقساوة أعنف، محاولين ألا نفلت أي شيء من أيدينا. فنأخذ بتقديم الملاحظات عند كل خطوة يخطوها، ونقدم المواعظ والإرشادات لأي سبب، وإذا لم تنفع فإننا لا نتورع عن ضربه. «كيف يمكن التصرف بشكل آخر؟». إنه يفعل ما يريد دون التقيد برأي الآخرين، إنه يصمم على ما يريد، يريد أن تكون الأمور على هواه، يطالب «أريد بنفسي». وهذا يعني أنه ينبغي أخذ الحذر والحيطة، وإيقاف نزعاته قبل فوات الأوان. ونأخذ بتبرير تصرفاتنا...

وبالفعل فإننا نصطدم بأولى الصعوبات الجدية في تربية الطفل في هذه الفترة من عمره بالذات، التي تقارب السنة الثالثة. فقبل هذه الفترة كان طفلنا سلس المعاشرة مطيعاً، رقيقاً وأنيساً فإذا حدث وأخذ في البكاء، يكفي لتهدئته أن نقدم له دمية طريفة أو أن نقربه من النافذة لينظر عبرها إلى السيارات العابرة. وعندما يبدي الرغبة في الحصول على شيء صعب المنال، مطالباً بشدة بصراخه الحاد، ننجح بإقناعه بالصمت إذا قدمنا له قطعة حلوى صغيرة، ولا نرى بعد ذلك أي أثر لتلك الدموع التي كانت تنهمر بغزارة. أما الآن فإذا أبدى الرغبة في شيء ما، فإنه يريد تحقيقها للتو، ولا يمكن لأي شيء أن يسكنه حتى يحصل على ما يريد. وإذا طالب بشيء، فإنه يقوم بذلك بصورة حادة ضارباً الأرض بقدميه، ومالئاً البيت بصراخه وملقياً بنفسه على الأرض، أما وجهه في هذه الحالة فلا ينبئ إلا بالحنق

والهياج الشديدين. وهنا ليس بإمكانك إلهاؤه عما يريد أو خداعه. أما هذه «الـ أريد أنا بنفسي»!. فهو يريد أن يفعل كل شيء بنفسه، ويجرب قواه في كل شيء يصادفه. وإذا لم تسمح له بذلك، فلتكن صبوراً لسماع الصراخ والزعق ورؤية الدموع الغزيرة المريرة. وهنا يضطرب الآباء وترتبك الأمهات ويسقط في يدهم، ويأخذون باتهام من حولهم بإفساد الطفل.

«إنكم أنتم من أفسد الطفل بالتدليل وغالباً ما يعاتب الوالدان الجد والجدة: وبالسماح له بفعل كل ما يرغب فيه، تحققون جميع ما يطلب وتلبون كل ما يبدي من رغبات ونزوات، ولذا فقد أصبح كما هو الآن». أما إذا لم يشارك الجد والجدة في تربية الطفل، فإن «الذنب» ينتقل إلى ساحة الأب أو الأم، وذلك حسب ما يبدي كل منهما تجاه الطفل من لين.

ففي هذه المرحلة من تطور الطفل بالذات غالباً ما تظهر في الأسرة الخلافات المتكررة، والمشاحنات بين الوالدين بسبب الاختلاف في مسألة تربية الطفل. والوالدان بلا شك يلاحظان أن الطفل يمر بمرحلة غير سهلة، وأنه تغير كثيراً وأصبح أكثر نشاطاً وعناداً ومشاكسة، وأصبح يزيد في الإلحاح والمطالبة. وهنا يبدأ الأهل بالبحث عن الشخص المسبب لهذا التغيير والمذنب في ذلك.

أما جوهر الأمر هنا فلا يتعلق بتاتاً بذنب اقترفه أحد ما، أو بسبب وجود شخص لطيف وآخر صارم وهو من يملك الحق الأكبر.

إن الأمر أعقد من ذلك بكثير، مما دعا لتسمية التربية بالفن، لأنها تتطلب الإبداع والإحاطة بجميع الأسباب والظروف المتنوعة، وتفهم «المادة» ومقدار مرونتها وطواعيتها وكيفية التأثير الصحيح فيها. ويمكن فقط لإظهار الاستياء أحياناً أخرى. التغاضي والسكوت عن فعل ما، والظهور بمظهر الإنسان الذي لم يشاهد شيئاً، وفي حالة ثالثة يمكن توبيخ الطفل وتقريعه، وأخيراً يمكن معاقبته.

لنأخذ من أجل إيضاح هذه الفكرة الحالة البسيطة التالية: لنفرض أن الطفل استرسل بالضجيج واللهو وعلينا أن نقوم بتهدئته. فهناك طفل يكتفي بنظرة زجر واحدة، وآخر يحتاج لمن يصرخ بوجهه حتى يكشف عن شقاوته،

وثالث لا يستطيع أن يدرك ما اقترف من ذنب إلا بعد أن يعاقب بحشره في زاوية البيت لفترة طويلة. وهنا يجب التذكر بأن الطفل بحاجة ماسة للعب وللركض وللمرح وكذلك للصراخ. لكن الأم في هذه اللحظة مشغولة بالحديث المثير مع جارتها عن طريقة تحضير كعكة العيد في الظروف البيتية. أما الأطفال فقد قرروا هنا ممارسة لعبتهم المفضلة: لعبة الكلاب؛ فارتدوا قفازات الأم على اليدين والرجلين، وربطوا على رؤوسهم شيئاً متهدلاً يشبه آذان الكلاب، وأخذوا بالركض والدوران على أربعة في جميع أرجاء البيت، مزمجرين عند ذلك ومستغرقين بالنباح. لكن الأم ترغب بشدة في كتابة طريقة التحضير بشكل دقيق، والأشقياء الصغار لا يدعون لها فرصة لسماع أي شيء بنباحهم المسترسل. فتلجأ إلى تهدئتهم وإجلاسهم ومعاقبتهم. وبالطبع فمن الضروري تعليم الطفل احترام الآخرين وتقدير رغباتهم. لكنه هو أيضاً يملك رغباته الخاصة وأحاديث الأم لا تعنيه في شيء، فكمية الطحين والسكر والبيض اللازمة للحصول على الخلطة الجيدة لصناعة الحلوى لا تهمه أبداً في هذه اللحظة، إذ إن أهم ما في الوجود الآن هو لعبة الكلاب إذاً قد يكون من الأفضل فسح المجال أمام الأولاد ليمارسوا لعبتهم المفضلة، وعندما يشبعون من الركض ويملون النباح والزمجرة ويبدون الرغبة في الرسم أو النظر إلى الكتب بهدوء، فيمكن هنا كتابة جميع ما يلزم من طرائق للتحضير ومناقشة قضايا الساعة...

التربية مسألة معقدة، إذ غالباً ما نشعر بصعوبتها، ونغضب ونصاب بالحنق ونتذمر من أطفالنا العاقين على الرغم من عدم وجود مانع أحياناً من وضع أنفسنا مكان الطفل ومحاولة فهمه. لكننا لا نفعل ذلك، أحياناً بسبب الكسل الذي يسيطر علينا، وأحياناً أخرى بسبب أنانيتنا، وأحياناً لأننا نكون واثقين تماماً بأن الطفل ملزم بالعيش بالطريقة التي نحددها له نحن بشكل صارم ومنظم، ولا يحق له مخالفة أوامرنا أبداً. وغالباً ما نجهل ببساطة تلك المبادئ المنطقية التي تتطور نفسية الطفل وفقها. فالحقائق العلمية تشير إلى أنه يتشكل لدى الطفل عند بلوغه العام الثالث شعور الوعي للذات (شعور «الأنا»)، مع ما يرافق ذلك من ظواهر موافقة

للاعتماد على النفس. حينما يبرز هذا الشعور بصورة أفعال عملية، يصبح بإمكان الطفل أن يلبس ثيابه دون مساعدة الآخرين، والاغتسال وتناول الطعام بصورة ذاتية. لكن هذا التوجه للقيام بجميع الأفعال العملية دون مساعدة الكبار، والتصرف بشكل مستقل عنهم، واجتياز بعض العقبات التي تعترضهم تظهر بصورة جلية في سلوك الطفل بإلحاحه الدائم «أريد بنفسي»، «أنا بنفسي سأرتدي ثيابي»! تنتزع الطفلة ثيابها من يدي أمها بحدة، وعلى الرغم من أنها ترتدي ثوبها بالمقلوب فهي تتابع ارتداءه بنفسها. «أنا وحدي سأربط حذائي». يؤكد الصبي الصغير وهو يلهث مجاهداً النجاح بذلك ومبدلاً مكان الشريطة بالأخرى دون أن يتوصل إلى ما يبتغي! إن مثل هذا النزوع لاكتساب الخبرات الجديدة بصورة ذاتية، هو نتيجة جلية لتشكل الوعي الذاتي لدى الطفل، أي إدراكه لشخصيته المميزة «الأنا»، وإحساسه بإمكاناته المتفردة.

ويأخذ الطفل تدريجياً بإدراك ووعي العمليات التي يستطيع فعلها باستخدام طاقاته الذاتية، وتقدير الأعمال التي يمكن أن يقوم بها بنفسه، وتحديد الأشياء التي يعجز عن التصدي لها دون مساعدة الأهل، والأمور التي يستطيع إظهار استقلالية فيها، والمواقف التي يتوجب عليه اللجوء فيها لطلب مساعدة ونصيحة الآخرين. وبالطبع، فإذا استطاعت الأم فهم طفلها، فإن ذلك يساعدها فيما بعد على تجنب الخلاف معه. «هل ترغبين بوضع الأكواب على الطاولة بنفسك؟ حسناً، فلتضعيها، لكن عليك أن تأخذيها كل واحدة على حدة، فإن ذلك أسهل لك ولن يكسر عند ذلك أيٌّ منها». تنصح الأم ابنتها على الرغم من معاناتها بعض الخوف على مجموعة الأكواب الثمينة. «كأنك ترغبين في غسل الثياب معي؟ إذاً هيا أحضري الحوض. هلم اغسلي مناديلك وسراويلك القصيرة». تشجع الأم بهذا الشكل طفلتها لتفعل العمل نفسه الذي تشاهده بنفسها.

بالطبع، إن أولى أعمال الطفل الذاتية تكون غير متناسقة وغير متقنة؛ فالطفل لا يستطيع القيام بكل شيء ويلزمه لذلك الوقت الكافي والخبرة المكتسبة. فالخبرات تأخذ في التشكل لديه تدريجياً عن طريق التدريب

والتمرين المستمر. لذلك، لا بد من فسح المجال أمامه ليدرب نفسه، وكي يشعر بمقدرته الذاتية على القيام بفعل ما. ولا ينبغي لنا إظهار التذمر والغضب إذا لم يتمكن طفلنا الصغير، الذي باشر لتوه تعلم تناول الطعام بنفسه، من تناول حسائه بصورة حسنة، وصب نصفه على ثيابه وعلى مائدة الطعام، ولم يقم بإسقاط قطع المعكرونة على الأرض والمائدة فحسب، بل وأوصلها بمقدرة فائقة إلى رأسه أيضاً!

إن نتيجة هذه التمارين بالغة الأهمية، فهي تشعر الطفل بشخصيته المستقلة، التي تسمح له بفعل شيء ما دون مساعدة الآخرين.

وإلى جانب هذه الاستقلالية تنمو لدى الطفل رغباته الخاصة: «أنا أريد هذا»، أو «أنا لا أرغب ذاك»، «أنا لن أفعل». يبدأ الطفل بالإعلان عن رغباته. وهذا أيضاً صيغة طبيعية لسلوك الطفل ترتبط أيضاً بتشكل الشعور بوعي الذات لديه، حيث يأخذ الطفل بوعي رغباته ونوازعه. وإذا كانت المراحل المبكرة من عمره لا تشهد تبايناً يذكر بين رغبات الطفل ووالديه، حين كان إقناع الطفل وإلهاؤه عن الأشياء الممنوعة وصعبة التحقيق أمراً سهلاً، فإن رغباته في المراحل التي تتلو تصبح أشد قوة وأكثر ثباتاً، لذا يصبح من الصعب إقناعه بسهولة.

ولهذا السبب يطلق الكثير من علماء النفس على الفترة التي تقع بين السنة الثانية والثالثة من عمر الطفل تسمية الفترة الحرجة، أو دور التأزم، لأن هذه الفترة تترافق مع ظهور أولى التناقضات بين مطالب الإنسان البالغ ورغبات الطفل الجامحة، التي تأخذ شكلاً حاداً بسبب تشكل شعور الاستقلال الذاتي لدى الطفل في هذا السن بالذات، وزيادة نشاطه. من هنا تظهر الصعوبات في التربية: عناد الأطفال وسلبيتهم. أما إذا أظهر الإنسان البالغ مقاومة شديدة لهذه الرغبات وحاول كبتها، فإن الطفل يأخذ بإظهار استيائه ومعارضته عن طريق الغضب. فيأخذ بالصراخ وضرب الأرض بقدميه. والتدحرج على أرض الغرفة.. إلخ. لقد بينت البحوث الخاصة بدراسة شعور الغضب عند الأطفال، أن هذه الفترة من عمر الطفل بالذات تشهد نمو هذا الشعور وتحوله إلى شعور ثابت وجليِّ المعالم، ويظهر أكثر

شيء أثناء اختلاط الطفل بغيره كباراً وصغاراً. وشعور الغضب بالذات هو الذي يصبح سبباً لجميع المظاهر السلبية في سلوك الطفل التي ذكرناها أعلاه. وعلى الرغم من أن تشكل النشاط والاستقلالية هو اتجاه عام في تطور الأطفال في هذه المرحلة من العمر، فليس جميع الأطفال بالضرورة يظهرون نشاطاً مميزاً في إبراز رغباتهم وإبداء غضبهم بصورة جلية. كتب الأكاديمي أ. ن. ليونتيف: «إن الأزمات، في الحقيقة، لا تعتبر عوامل حتمية مرافقة لنمو الطفل النفسي. إذ يمكن لهذه الأزمات ألا تظهر أبداً، لأن التطور النفسي للطفل ليس أمراً عشوائياً بل عملية مقصودة. وتربية موجهة».

وبمقدار ما تستطيع التربية والتهذيب تجاوز العناد والمشاكسة في سلوك الطفل، بمقدار ما يمكنها أيضاً المساهمة في تقوية هذه الظواهر السلبية، ولذلك تظهر الصعوبات في تربية الطفل أثناء هذه المرحلة بسبب عدم ملاحظة البالغين لهذا المنحنى الجديد في تطوره النفسي والاستقلالية النامية لديه، وعدم مقدرتهم على إدراك حقيقة أن الطفل لم يعد بمثابة الكتلة اللدنة التي تأخذ الشكل الذي نريد، وتسمح أن نصنع منها أي شيء نبقيه. فشعور الطفل بذاته الذي ينبعث من داخله يتطلب نشاطاً كبيراً، لذلك فعندما يقوم البالغون بالحد من استقلاليته واعتماده على ذاته، ويحاولون المحافظة على نمط العلاقات الذي يروق لهم، أو يسعون لمعرفة وتحديد رغبات الطفل وتلبيتها بالكامل، فعند ذلك يصبح الطفل صعب المراس متقلب الأهواء: «ما بالكم، فالطفلة ما زالت صغيرة وضعيفة البنية وتمرض باستمرار، فالأفضل أن أطعمها أنا بنفسي». هكذا تعلن لنا الجدة لتبدأ بعد ذلك باستمالة الطفلة واستدراجها في رجائها لأن تتناول ملعقة من الطعام لأجل الأم وأخرى لأجل الأب، وثالثة لأجل الجدة، ورابعة لأجل القطة، وخامسة لأجل الكلب... «أمن المعقول أن نسمح للطفل بالخوض في المياه؟ لا ينبغي السماح له بغسل الثياب أبداً فقد يصاب بالبرد ويمرض». «لا تستطيع ارتداء ثيابك بنفسك، سوف تبقى في محاولاتك ثلاث ساعات، وأنا ليس لدي الوقت للتفرج عليك». «ما زال الوقت مبكراً لكي تبدأ بمسح أرض الغرفة، وما زلت صغيراً على ذلك ولن تفيد في شيء إلا زيادة الأوساخ فيها». وما شابه ذلك.

إننا بهذا الشكل نحد من حرية الطفل ونقتل فيه النشاط المتفجر في داخله والشعور بالاعتماد على النفس، لأننا نخشى ألا يتمكن من إنجاز العمل المطلوب أو تنفيذه بشكل سيء، نحن نسرع دوماً وليس لدينا الوقت لانتظار طفلنا حتى يتمكن من فعل نقوم به نحن بمهارة وسرعة بيديه البطيئتين المرتبكتين، نحن نخشى إصابته بالرشح والتهاب اللوزات والنزلة الصدرية، ونتكاسل ببساطة عن التفكير بالأسباب التي تدعو الطفل لأن يقوم بعمل ما بنفسه ودون مشاركة الآخرين. وإن ذلك لا يعجبنا البتة: «أنا أريد». إننا نرى في هذه العبارة تطاولاً مبكراً على هيبتنا التي لا تُمَس، وسلطتنا اللا محدودة على الطفل. وكذلك نرى فيها حداً لحريتنا الواسعة.

وهكذا، فكيف ولماذا تظهر هذه الـ «لا أريد»؟. دعونا نبحث في هذه المسألة ونتفهم بعمق أكبر لماذا وفي أي ظروف يظهر لدى الطفل شعور الغضب، والمظاهر التي ترافقه وتنتج عنه: كالعناد والمشاكسة والسلبية. لتتذكروا: أن الغضب يظهر أولاً عندما نأخذ بالحد من حرية التصرف لدى الطفل. إن معرفة ما إذا كان تصرف الطفل هو غضب مقيت أو شعور بسيط بالاستياء وعدم الرضا هو أمر عسير، ومع نمو الطفل يتسع المجال لاختلاطه مع من يحيط به، كما تتسع دائرة تجلي مظاهر الغضب لديه. بالإضافة إلى ذلك، فالطفل الذي بلغ الثانية أو الثالثة من عمره يكون غير قادر بعد على التحكم بعواطفه وتقييدها: سيريوجا يصرخ عندما تنتزع كولا السيارة منه قسراً، أما ساشا فهو يقدم بهدوء على لطم فوفا بالمكعب القاسي على رأسه لأن فوفا داس على قدمه، ومارينا تزعق بملء صوتها عندما تقوم أوليا بزيارتها وتسمح لنفسها بتناول الدمية الجالسة على حافة النافذة دون إذن منها.

إن شعور الغضب عند الأطفال ينبثق أثناء مخالطتهم الآخرين، وغالباً ما يحدث أثناء الاستعمال المشترك للألعاب والكتب. انتزع كوليا من يد فولديا القطار الأخضر، وعلى الرغم من وجود مثل ذلك القطار مرمياً بالقرب منهما، إلا أن كوليا معجب بالقطار الذي في يد فولديا بالذات، ولا يريد أي قطار آخر غيره. وأوليا ترغب في اللعب بهذه الدمية بالذات ولا يمكن لأي دمية أخرى أن تحل

مكانها. والطفل في حالة الغضب لا يقوم بالصراخ وسكب الدموع فحسب، بل يمكن أن يضرب زميله وينتزع منه ما يبتغي من أشياء بالقوة، على الرغم من المعارضة والصراخ الذي يبديه الطفل الآخر.

ويظهر شعور الغضب لدى الأطفال في هذه المرحلة من العمر بهذه الدرجة نفسها أثناء معاشرتهم للبالغين أيضاً، لكنه يظهر هنا على صورة عناد ومشاكسة. فالطفل يدرك بجلاء، أنه إذا كان باستطاعته مع أقرانه إعطاء الحرية لقبضتيه، وانتزاع الأشياء والاستيلاء عليها بالقوة، فإن هذا السلاح لا يجدي مع الكبار، ومن الأفضل اللجوء إلى وسيلة أخرى: كالدموع، والوجه المكشر والصراخ. لذا ينزع الطفل أثناء غضبه مع الكبار إلى العناد والصراخ والتشبث بما يبتغي، إلى أن يستسلموا له وإذا استسلموا له في المرة الأولى، فيمكنه في المرة القادمة التالية أن يصرخ بصورة أقوى ولفترة أطول، لأن ذلك سيساعد بالتأكيد في الوصول إلى الهدف.

ويجب على الأهل التذكر بأن عملية الكبح والسيطرة على الانفعالات عند الأطفال الذين بلغوا عامهم الثالث تكون ضعيفة للغاية، لذا فالطلب إلى الطفل أن يفعل ما لا يستطيع، وأن يوقف ويلجم النشاط الحركي الذي هو في أشد الحاجة إليه، هو شيء سابق لأوانه، فالكثير من شقاوة الأطفال في هذه المرحلة من العمر لا يكون مبعثها الرغبة في التسبب بالإزعاج والأسف لمن حوله وإثارة الغضب في أنفسهم، وإنما تكون مدفوعة بتلك الخصائص المميزة لتطور نفسية الطفل في هذا السن. فكثيراً ما يشاغب الطفل لأنه لا يجد ما يشغل نفسه به، أو بسبب حاجته الماسة للحركة. فهو لا يصغي لما نقوله له، ولا يخضع لما نطلبه منه، لأن حاجته للاطلاع والمعرفة والحركة تكون أقوى من طاقته على كبح ذاته والسيطرة على أهوائه، ولا سيما وأن عملية الكبح هذه التي تشكل أساساً لإرادة الإنسان، تكون لديه في هذه المرحلة من عمره في طور التشكل. وهكذا، فإذا كان الأهل مثلاً يعلمون سلفاً أنهم سيمضون بصحبة طفلهم وقتاً طويلاً في مكان ما، فما عليهم إلا أن يصطحبوا معهم بعض «المثيرات العقلية» التي تضمن إشباع حالة النشاط والحركة عنده، وتجعل ظهور الدلال

والمشاكسة لديه أمراً مستحيلاً. وهنا من الأفضل أيضاً الأخذ بالحسبان جوهر تلك الحالة، التي ينبغي للطفل أن يعيشها بصحبتكم، فلنقل إنكم عازمون على الذهاب إلى مركز البريد، فلا بأس أن تأخذوا معكم قلماً وورقة وشيئاً شبيهاً بالخاتم، لكي يتمكن الطفل من تمثيل العمليات التي تجري أمامه مباشرة بحيوية زائدة واهتمام بالغ. فالطفل في هذه السن لا يتميز بشدة الملاحظة والانتباه فحسب، بل وبتوقه المنقطع النظير لأن يمثل في الألعاب التي يقوم بها كل ما يراه ويسمعه.

والشيء المعاكس للتطرف بزجر الطفل وتقييده بالمطالب الصارمة هو التدليل الزائد والملاطفة الفائضة عن الحد، والتلبية الفورية لكل رغباته وأهوائه، وتقييد شعور المبادرة والاعتماد على النفس لديه بسبب السهولة الفائقة في التعامل معه. وهذا الأسلوب يمكن أن يصبح أيضاً تربة خصبة صالحة لأن ينمو عليها العناد والمشاكسة بصورة مزدهرة. ولنتذكر ذلك المثال الباهر الذي أورده ك. تشوكوفسكي في كتابه «من الثانية حتى الخامسة»: «هيا يا نورا فلتكفي عن البكاء! أنا لا أبكي لك وإنما لعمتي سيما». وبالفعل فالطفل يعي تماماً معنى الابتزاز ولمن يجب أن يوجه: «إذا بكيت في حضرة الأم أو الأب فمن المستبعد أن تحصل على شيء بهذه الدموع الساخنة، أما عند الجدة فيكفي أن تكلف نفسك بالصراخ قليلاً دون سكب الدموع، مسترقاً النظر في الوقت نفسه عبر الأصابع المغطية للعينين «كي لا يلاحظ أنه لا أثر للدموع فيها» لتحصل في الحال على ما تبتغيه: «خذ يا صغيري العزيز، ولتهدأ ولتكف عن البكاء»! إن هذا النمط من التربية خطير بشكل خاص في تلك الأسر التي تشارك فيها الجدة بتربية الطفل.

فمعظم الجدات لا يستطعن تحمل دموع الأحفاد، وما إن يبدأ الطفل بالبكاء حتى تهرع الجدة إليه، وما إن يبدي رغبة في شيء ما حتى تلبيها في الحال، وعادة فإن هذا النمط من العلاقات المتبادلة يتميز بأشكال متنوعة للخلافات والمنازعات داخل الأسرة، حيث يلقي كل فرد التهمة على الآخر بإفساد تربية الطفل، مما يؤدي أحياناً إلى تولد الشعور بالنفور والاغتراب بين أفراد الأسرة الواحدة.

إذاً كيف علينا أن نتصرف مع أهواء الطفل ونزواته؟ يقول البروفيسور ي. أزآركين: «ليس لتلبية نزوات الطفل وأهوائه معنى ولا إمكانية. فالأمر هنا يشبه تلك الهيدرا الأسطورية، التي كلما قطع رأس من رؤوسها المتعددة تنمو للتو عندها رؤوس عديدة مكانه، وبالمثل، فكل نزوة تلبى للطفل تولد في نفسه سلسلة جديدة من الرغبات الجامحة».

وبالطبع، فإن ما أوردناه من أفكار وشواهد لأقوال مفكرين عظماء لا تعني البتة أنه لا ينبغي ملاطفة الطفل، أو لا يجوز التنازل أمامه في أي شيء، أو تهدئته، وأنه يتوجب عمل كل شيء لإغضابه، وذلك كي لا يصبح مشاكساً وعنيداً. لقد تكلمنا بما فيه الكفاية في الفصول السابقة عن أهمية الحنان والاهتمام والرعاية والمحبة لصحة الطفل النفسية والجسدية. لكن الحديث يدور هنا فقط عن وجوب تقييد نزوات الطفل وأهوائه بدرجة لا تسمح لها بالتحول إلى عصبية بالغة في سلوك الطفل، وكي لا تغدو شكلاً عادياً لإظهار رغباته. إن الحنان المعتدل واللهجة الهادئة الممتزجة بتفهم أهمية استقلالية ومبادرة الطفل، والمقدرة على إشغاله بالألعاب المثيرة، كل ذلك سيساعد في تطور العلاقات المتبادلة بين الطفل وذويه بشكل طبيعي.

لكن، ماذا علينا أن نفعل إذا قام الطفل مع ذلك بالمشاكسة؟ وكيف ينبغي أن نتصرف؟ إننا في معظم الأحيان نكرر خطيئة نموذجية عندما نبدي رغبة لا تقاوم بكسر إصرار الطفل وعناده مهما كلف الثمن. لكن، لنتخيل أنفسنا ونحن في سورة الهيجان (علماً بأن نوبات المشاكسة والتقلب هي سورات هيجان بحتة)، عند ذلك يصبح بمقدورنا إدراك أن الطفل في حالته هذه لا يسمع أبداً كلمات المواساة أو التهديد التي نوجهها إليه، فهو في حالة تأثره الشديد لا يعي أي شيء ولا يسمع ولا يستوعب ولا يفهم. أما إذا ضرب الطفل في هذه الحالة فإن ذلك سيزيده هيجاناً وتوتراً، لأن ضربه لا يملك أي صلة منطقية في عقله الصغير بتصرفه العاق. لذلك يفضل الانتظار حتى يهدأ الطفل ويركن إلى السكون، وإلى أن تتحول حالة الهيجان إلى شعور بالهدوء. عند ذلك يمكن التقدم منه والتحدث إليه وإقناعه بما نرغب لنثبت له صحة ما نعتقد. إن قلقنا الشديد أو تعنتنا هما

أيضاً تصرفان غير منطقيين بالمقدار نفسه. فالتعنت يساهم فقط في ترسيخ العناد والمشاكسة عند الطفل، أما القلق والاضطراب فيمكن أن ينتقلا إلى الطفل ويأخذا بالتأثير فيه.

يتولد عادة رد الفعل العنيف والامتعاض الشديد والمشاكسة بصورة في غاية البساطة. فالطفل يرجو في البداية بهدوء: «ماما، لنذهب إلى الهواء الطلق»! لكن الأم تجيب بالرفض، فلديها مشاغلها الخاصة ولا تستطيع تأجيلها في هذه اللحظة، ثم يعود الطفل للرجاء ثانية، لكن الأم ترفض مجدداً. وهنا يلجأ الطفل إلى استخدام «آلية التأثير» التي يمتلكها، حيث يأخذ بالصراخ، وضرب الأرض بقدميه والتمرغ على الأرض. أما الأم فإما أن يصيبها الفزع «يا للهول، يا له من صبي عصبي»، أو أن تأخذها الشفقة على طفلها: «يا للمسكين الصغير، كم هو متأثر»!، أو أن ينتابها الخجل أمام جاراتها: «ماذا سيقول الناس عن طفلي؟» وهنا تغير الأم قراراتها على جناح السرعة: «حسناً، فلنذهب، لكن فلتكف عن البكاء أولاً»!. وتأخذ هذه الصورة الهستيرية من ردود الطفل بالترسخ تدريجياً لتصبح فيما بعد جلية وثابتة، هنا يعرف الطفل أنه إذا لزمه أمر ما أو رغب في الحصول على شيء معين، فما عليه إلا أن يصرخ ويضرب الأرض بقدميه حتى يحقق مبتغاه.

أليس من الأفضل أن تخرج الأم مع طفلها للتنزه، ثم تعود بعد ذلك لمتابعة أعمالها؟ فبهذه الطريقة يمكن تجنب الوقوع في حالة الخلاف مع الطفل.

بالطبع، ليس بالضرورة أن يصبح كل من يظهر العناد والمشاكسة من الأطفال في المستقبل طفلاً جموحاً عاقاً. فالجملة العصبية تأخذ بالترسخ تدريجياً لتنحو نزوات المشاكسة نحو السكون والضعف ثم إلى الزوال. وعلى الرغم من ذلك فإن الطفل الذي تعود على نوبات المشاكسة الهستيرية منذ صغره يحمل في داخله «قنبلة موقوتة»، يمكن أن توقعه في حالة مماثلة من الهستيريا عند أول صعوبات حياتية جدية يمكن أن يصطدم بها في كبره.

وهكذا يجب ألا ننسى أن مرحلة عمر الطفل التي تسبق دخوله إلى المدرسة تكون مليئة بالانعطافات المفاجئة في سلوكه كالنزوات، والعناد، وسبب هذه الظواهر غالباً ما يكمن في طبيعة العلاقات المتبادلة بين الطفل وذويه، وفي التناسب غير الصحيح بين مطالب البالغين والشعور بالاستقلالية والاعتماد على النفس المتولدة عند الطفل.

شعور
الـ «أنا» و الأنانية

إن سني الطفولة تخلق آثاراً لا تمحى في حياة الإنسان. ففي هذه السنوات بالذات يشيد أساس شخصيته. فإما أن تترسخ كشخصية نشطة، قوية الإرادة فعالة وطموحة، أو بالعكس كشخصية لا مبالية اتكالية ضعيفة الإرادة، وفي هذه السنوات تتكون سمات الطبع الرئيسة. الطيبة في التعامل مع الناس، أو الاتكالية والأنانية، كما وتنمو مقدرات الطفل الذهنية، ورغبته الشديدة في المعرفة والاطلاع والتفحص واللجوء إلى النصيحة والمساعدة وقراءة الكتب، أو بالعكس خموله الذهني الكامل، وثقته العمياء بأن التعلم هو عمل ممل ومقيت، إن كلمات أ. س. ماكارينكو، التي تؤكد أهمية السنوات الخمس الأولى في حياة الطفل، معروفة جيداً لدى القراء كما أشار ل. ن. تولستوي مراراً في مؤلفاته التربوية إلى أهمية هذه السنوات بالذات في منحى تشكل الصفات الروحية لدى الإنسان فيما بعد. ما هو السبب الذي دفع المربين لتركيز الاهتمام على هذه الفترة المبكرة من العمر؟ ولماذا يقبل الكثير من الباحثين النفسيين في الوقت الحاضر باهتمام بالغ على دراسة هذا الدور بالذات؟ لقد قمنا في مجرى حديثنا السابق بالإجابة عن قسط معين من هذا السؤال عبر تحليل دور الأم في التطور النفسي للطفل الرضيع واستعراض أهمية حاجة الطفل إلى تكوين الانطباعات من أجل تشكل قوة الإدراك لديه. وبالفعل، ففي هذه المرحلة من العمر يتم تشييد الأساس لجميع صفات الإنسان النفسية الأساسية: تشكل حب الاطلاع وقوة الإدراك، والأسلوب الشخصي في المسلك، وأولى التصورات والمشاعر والصفات الأخلاقية، ونمو الشعور بالذات والمقدرة على كبح جماح النفس، أي أولى مظاهر تميز السلوك والمقدرة على تجاوز الرغبات الأنانية. كما تتميز هذه المرحلة «بازدهار» الملكة التخيلية. تلك العملية النفسية المهمة جداً، والتي لا يمكن أن يظهر الإنسان من دونها أي شكل من أشكال الإبداع.

وبالطبع، لا ينبغي اعتبار فترة عمر الطفل التي تسبق دخوله إلى المدرسة أنها شيء يشبه الوعاء الحجري يتخذه الطفل كقالب ثابت لشخصيته، بحيث لا يمكن فيما بعد تغيير أي شيء - لا زيادة ولا نقصان - ومن دون شك فإن سنوات الطفولة تخلف في أنفسنا آثاراً لا تمحى، لكن هذا لا يعني البتة أن دور الطفولة يشمل تشكل جميع الجوانب المختلفة لنفسية الإنسان.

فمن المعروف جيداً أنه مع ازدياد معاشرة الطفل لأقرانه واتساع اطلاعه وتعرفه على جوانب الحياة، والعلاقات المتبادلة بين الناس تتغير الكثير من الصفات الروحية المميزة له.

ويمكن لمفاهيمه أن تتبدل، فتأخذ تصوراته الأخلاقية شكلاً مغايراً، كما يمكن للصفات السلبية في الطبع أن تعالج وتستأصل، إذا اعتبر الإنسان أن ذلك شيء لا بد منه. ومع نمو الطفل تظهر عوامل جديدة متنوعة، يمكن أن تؤثر في تشكل نفسيته سلباً أو إيجاباً، فيشتد تأثره في من يحيط به من الناس ومجموعة أترابه، والمدرسة بمجال تأثيرها الواسع، والوسط الاجتماعي الذي يعيش ضمنه. ولذلك، وعلى الرغم من وجوب عدم إنكار الأهمية القصوى للسنوات الأولى من عمر الطفل، إلا أنه لا يمكن اعتبارها قدراً محتوماً يحدد بصورة نهائية منحى تطور الطفل النفسي في المستقبل.

إن الفترة التي تسبق دخول المدرسة في حياة الطفل. هي القاعدة الأساسية لكل ما يمكن أن ينمو ويتطور في المستقبل بشكل معتدل، أو أن يذبل كما تذبل النبتة الغضة التي تعاني طويلاً من العطش، أو أن يتفتح بصورة بهية مزدهرة ليعطي ثماره المتنوعة الطيبة أو الخبيثة. والكثير هنا سوف يتعلق بالمصادفات أيضاً، بالإضافة إلى تدخلنا المقصود في توجيه هذه التربية، وبقوة إرادة الطفل وتصميمه ودرجة تطور شعوره بذاته ومقدار نشاطه. ولهذا السبب فإننا في السنوات التالية من عمر الطفل لا نكتفي بتأمل الأخطاء التي ارتكبناها والهفوات التي وقعنا فيها، وطأطأة رأسنا الذي خطه الشيب أمام تلك السنوات الأولى القدرية التي لا يمحى تأثيرها، بل بالعكس فإننا نتابع سعينا لعمل شيء ما، ولا نفتأ في تعليم الطفل وتهذيبه وتقديم النصح إليه وإقناعه، كما نغير من أسلوبنا في التعامل معه من أجل أن نولد لديه الرغبة في الارتقاء بشخصيته إلى مستوى أسمى. وإذا أراد الأهل التأثير بصورة فعالة في

الطفل من أجل جعله إنساناً جديراً حقيقياً، فيجب عليهم معرفة تلك «الآليات» في نفسيته، التي ينبغي عليهم استخدامها أو اجتثاثها إذا كانت سلبية. وتكون هذه «الآليات» في كل مرحلة من مراحل تطور الطفل ذات شكل مختلف، ويكون دورها في تكوين تلك الجوانب من شخصية الإنسان أو غيرها بالغ الأهمية.

إذاً، نحن نصدم في مرحلة عمر الطفل التي تسبق دخوله للمدرسة ببداية تكون تلك السمة التي تدعى بالاستقلالية والاعتماد على النفس، وهي تماثل في طبيعتها شعور الـ «أنا».

وفي الحقيقة فإن هذا الشعور يتولد منذ أمد سابق كإدراك من قبل الطفل للأفعال الجسدية التي يقوم بها.

فلتلاحظوا كيف يقدم طفلكم الصغير بكل اهتمام ومتعة على شد الباب بكل قواه للتغلب عليه بنفسه «سأفتح بنفسي»، وكيف ينقض باحتدام على الطائرة التي اشتريتموها له مساء البارحة لينتزع دواليبها وأجنحتها. ويظهر هذا الشعور بالصورة نفسها في رغبات الطفل: «أريد»! «أعطني»!. يأخذ بالمطالبة وهو لا يقدر على كبح جماح اندفاعه نحو اللذة، ويريد كل شيء، فالدمى والحلويات والأشياء الجديدة لي، «إنها من أجلي»، «هذه خاصتي». بهذا الشكل يستوعب الطفل ما يحيط به. وفي الحالة التي تتعرض هذه الـ «خاصتي» للانتقاص: «فلتعط لسيريوجا أيضاً قطعة حلوى، اسمح لفوفا أن يلعب قليلاً بطائرتك، فهذا بالنسبة للطفل مأساة حقيقية. ولا سيما إذا كانت هذه المطالب تتجاوز الرجاء البسيط: «فلتسمح باللعب قليلاً» أو «أعط لسيريوجا قطعة أيضاً لأنك تملك قطعاً كثيرة غيرها»، وتأخذ شكل أمر «متسلط» صعب الإدراك: «أعط في الحال»! أو «دع هذا لزميلك»! إن الطفل الذي لم يتجاوز الثانية من عمره لا يملك المقدرة على التخلي عن أشيائه بتاتاً، لأنه يعتبر الشيء الذي في حوزته عضواً كأي عضو من أعضاء جسده. ولهذا فإن سعينا الحثيث «لانتزاع» هذا «الطمع» من نفسه ليس له أي معنى ولن نحصل من وراء ذلك إلا على الدموع الغزيرة التي يذرفها الطفل (ونكرر هنا القول إن ذلك يكون في المراحل المبكرة من حياة الطفل فقط). فهذا لن يجدِ شيئاً، لأن تلك «الآليات» التي تمكن الطفل من اقتسام ما لديه من ألعاب وحلوى وفاكهة مع من بجواره، والسماح لهم بمشاركته في ألعابه المختلفة، لا تزال غير

ناضجة، ثم يبدأ الطفل تدريجياً بتمييز الشيء الذي يخص ذاته، وهنا يصبح من الواجب علينا أن نضع أمامه مطالب أخلاقية. عند ذلك ينبغي الأخذ بالحسبان أن الاجتثاث الجذري لمشاعر الأنانية لدى الطفل «لعبت قليلاً وكفى، أما الآن فلنعد هذه الدمية لصاحبها فهي ليست لك» غير ممكن البتة، ولا يملك معنى أخلاقياً عميقاً، فالإنسان بحاجة دوماً لتملك أشياء خاصة به. وهناك ما يمكن اقتسامه مع الآخرين، وأشياء يمكن التخلي عنها للغير، وأمور أخرى يمكن إعارتها مؤقتاً. وعندما يكف الطفل عن إظهار القلق الشديد لدى مطالبته بمشاركة الآخرين في ممتلكاته، أي عندما تترسخ عنده عملية انفصال الذات عن الأشياء التي تخصه يمكن عندئذ صياغة المطالب الأخلاقية ووضعها أمام الطفل بألا «يكون أنانياً وبخيلاً». أما ذلك «الطمع والبخل» للطفل الصغير، الذي كان يثير الدهشة في أنفسنا: «عجباً من أين جاءه هذا البخل. لا أدري أبداً، فإنه لا يعطي شيئاً لأحد، وإذا طلب منه أحد شيئاً ما فسرعان ما يخفيه خلف ظهره»، فهو لا يعتبر أبداً طمعاً حقيقياً، وإنما مظهر من مظاهر شعور الـ «أنا» الذي يتشكل لدى الطفل في هذه المرحلة من العمر».

وهكذا، يمكن تلخيص الاستنتاجات التي توصلنا إليها بما يلي: في نهاية مرحلة الطفولة المبكرة التي تسبق دخول الطفل إلى المدرسة يأخذ شعور الـ «أنا» أو وعي الذات بالتشكل لديه. ويأخذ هذا الشعور بالظهور في وعي الطفل لإمكاناته الجسدية، وفي سعيه لإشباع رغباته دون أي إدراك لإمكانية ذلك أو عدم إمكانيته، وفي الوحدة العضوية بين ذاته وبين ما يخصه من ممتلكاته، بدءاً من والديه الحميمين وانتهاء بتلك الدمية التي حصل عليها مؤخراً. ويتبادر إلى الذهن السؤال التالي: ما هو جوهر هذه الـ «أنا» أهي خطيرة ومؤذية، أم تحمل النفع والفائدة للطفل؟ هل يتوجب محاربة هذه الـ «أنا» واجتثاثها؟ إن الجواب عن هذه الأسئلة يمكن أن يعطى بالصيغة التالية: إن أي ظاهرة تحمل في طياتها مكونات إيجابية وسلبية، وتتجلى فيها وحدة وصراع اتجاهين متناقضين، وذلك الشعور المتولد بوعي الذات، وبقدر ما نحدد بشكل صحيح لحظة بدء تشكل شعور الـ «أنا» يكون التعامل معه أسهل وأسلم، فهذا الشعور هو أهم شكل من أشكال نشاط الشخصية وعلى أساسه تتكون سلسلة بالغة الأهمية من الصفات الشخصية والقيمة، لأن الـ «أنا» ليست مجرد وعي وإحساس بالطاقات

الجسدية، وإنما إدراك فيما بعد للصفات الأخلاقية، وهي تقويم للذات، ونظرة انتقاديه من قبل الفرد تجاه مزاياه السلبية، كما تعتبر بمثابة دفة القيادة التي توجه أعماله وتصرفاته، وأخيراً فهي تحكم إرادي بالذات. إن شعور الـ «أنا» يكون سلسلة بالغة الأهمية من الصفات القيمة، التي ترتقي بسلوك الإنسان في المجتمع إلى درجات سامية.

ومن دون شك، فإن شعور الـ «أنا» المتولد لدى الطفل، هو «نعمة» كبيرة. وفي الوقت نفسه يمكن لهذا الشعور أن يصبح أساساً لتطور تلك التوجهات الأنانية، التي تكون دفينة في داخله، لتمو فيما بعد وتزدهر إذا سار تطوره وفق طريق تقوية وتشجيع مثل هذه الرغبات الأنانية: «كل شيء لي وحدي، كل شيء من أجلي فقط، كل ما في الوجود هو مكرس من أجل إشباع رغباتي». لكننا أحياناً نقوم أنفسنا بتشجيع مشاعر الطفل الأنانية: «فلتفكر بنفسك قبل كل شيء، لا داعي لأن تعطي ألعابك للآخرين، فقد يكسرونها أو يعرضونها للتلف، فلا تنس أنك دفعت ثمنها نقوداً»، «إياك أن تعير كتبك لأحد، انظر كيف مزقوها لك»، «هذه التفاحة لك وحدك، لتأكلها في المدرسة بمفردك»، «لماذا دعوت هذا الجمع الكبير من رفاقك وملأت بهم أرجاء البيت»؟، «لا تكن ضعيفاً. فلترد بالمثل»، «يجب أن تكون شديداً لكي تستطيع دوماً الوقوف عند ما تبغيه»، «عن أي احترام تتحدث. عندما يصبح لديك المال فستشتري به كل ما تبغي من احترام». هكذا نفعل أحياناً فنربي شخصية خطيرة على المجتمع فاسدة الخلق..

كتب المربي الروسي الشهير ب. ف. كابيتربيف: «إن أول الأشكال للمشاعر الأنانية هو السعي اللا محدود لبلوغ المتعة، واللهاث السافر وراء ملذات ومباهج الحياة دون امتلاك حق التمتع بها أو ذلك الجهد اللازم لبلوغها. وتتكرس هذه الصورة الأولية في حياة الإنسان البالغ أيضاً.

فالسرقة والنهب والغش في جميع صورها المتعددة لها الأصل نفسه الذي يميز تصرف الطفل عندما يقوم على انتزاع قطعة الحلوى من يد أخيه أو قرينه.

أما ما يخص تغذية الأهل غير المقصودة لنبتة الأنانية في طفلهم، فيمكن أن تنجم عن سعيهم الدائب لوهب الطفل كل شيء من أجل أن تكون الأمور جميعها لديه على ما يرام، ومحاولتهم لإشباع كل رغبة يبديها، طبيعية كانت أم نزوة عابرة، دون تمييز، معرّضين بذلك أدنى رغبة يبديها لإظهار المبادرة الذاتية أو

الاعتماد على النفس إلى العناء، ولا سيما لدى أولى الخطوات الصعبة التي يقوم بها، وأخيراً المبالغة في الإطراء على الطفل والثناء الزائد على مناقبه. إن هذا السعي لتحقيق جميع ما يطلبه الطفل يقود إلى تبدلات جوهرية في نفسه يصعب فيما بعد محاربتها والتغلب عليها، حيث تتقلب إلى إظهار لنكران الجميل وعدم الاعتراف بالفضل وشعور باللا مبالاة تجاه الأهل، أو ملاحقتهم بالمطالب التي لا تنتهي. وهنا نصاب بالدهشة وخيبة الأمل: «لقد عملت كل ما بوسعي من أجل ابني، وبقيت وحيدة دون زوج لأجله، وكي لا أعكر صفوه بوجود رجل غريب في الأسرة، أما النتيجة فها هي: إنه لا يرغب بالدراسة ويشرب الخمر باستمرار، وقد تزوج ثم ترك زوجته، ثم تزوج ثانية، وها هو مرة أخرى يستطيع أن يهدأ. أما أنا فلا أنام الليل وأعاني وأقلق من أجله». أو نرى حالة أخرى: «لقد عملنا كل شيء من أجل إسعاد ولدنا. كانت دراسته ضعيفة. فدعونا المعلمين لإعطائه دروساً خاصة، ثم نقلناه إلى مدرسة أخرى لأننا كنا نظن أن المعلمين مذنبين معه. وبالكاد استطاع الوصول إلى الصف الثامن، ثم نقلناه إلى مدرسة مسائية، وبعد جهد جهيد وعناء بالغ استطعنا إدخاله إلى المعهد الصناعي المتوسط، وهنا أيضاً قدناه إلى المعهد بقوة السلاح. وماذا كانت النتيجة؟ إنه سرعان ما ترك الدراسة فيه وشرع بممارسة أحد الأعمال لكنه لم يعجبه أيضاً: عمل صعب، إذ يجب النهوض مبكراً. فانتقل لممارسة عمل آخر، وهناك أيضاً لم يطب له المناخ؛ فمن غير الممكن الوقوف أمام الآلة طوال النهار. وهكذا فهو يتسكع من مكان إلى آخر وما زال يمني نفسه بالحصول على عمل مريح».

«إنه من دواعي الأسف والعناء الشديد بالنسبة إلي - تتحدث إحدى الأمهات - أنا أعترف بأني لم أجن أي شيء من جهودي التي بذلتها تجاه ابنتي. فليس هناك أي مودة بيننا أو تفاهم متبادل بل توجد فقط مطالبها التي لا تنتهي. كل ذلك بدأ عندما تركت زوجي وسافرت إلى الشمال لجمع الثروة. وهناك بدأت أقتصد. اقتصدت في كل شيء، لأنني كنت راغبة في ادخار النقود الكثيرة، لكي لا تشعر ابنتي فيما بعد بأي حاجة. لقد قترت على نفسي لدرجة أن البيت كان يخلو أحياناً من كل شيء عدا الخبز والبطاطا. وكنت أبخل بشراء حتى قطعة الحلوى لابنتي. وماذا كانت النتيجة؟

ادخرت تلك النقود وأعطيتها لابنتي. وهنا بالطبع فقد ارتدت ثياباً جديدة واقتنت سيارة وشقة جديدتين، أما أنا الآن فلم أعد أعني بالنسبة لها شيئاً. وفوق كل ذلك فهي تلقي علي باللوم: «لقد انتزعت مني بهجة الطفولة، فأنا لم أعرف مصادقة الآخرين، لأنك لم تدعي أحداً لزيارتنا في يوم من الأيام، ولم تجعليني أتذوق طعم الحلوى التي يحلم بها الطفل، ولم أشعر بالسرور والسعادة لأنني لم أعش بهجة ارتداء الثوب الجديد، أو رؤية الدمى المثيرة. ولم أكن أراك في البيت إلا نادراً. فقد كنت طوال الوقت مشغولة بجمع الثروة». إن ابنتي لا تأتي لزيارتي إلا عندما تضطر لطلب مبلغ جديد من النقود». «أما نحن فقد أهلكنا ابنتنا أليونا بأنفسنا، فقد كانت في طفولتها فتاة ضعيفة البنية وتمرض باستمرار، لذلك كنا نسعى لعمل كل شيء من أجل أن تستعيد عافيتها: كنا نصطحبها إلى البحر كل عام، ولم نكن نبخل عليها بأي شيء، وحاولنا أن نخفف عنها عناء الدراسة ما أمكن، لأننا كنا نخشى إرهاقها، أما ما يخص عملها في البيت فلا حاجة للحديث عن ذلك، فهي لم تكن تملك أي تصور عن كيفية غسل الأواني. وقد أعطت مساعينا هذه نتائجها: كبرت الطفلة وشبت فتاة معافاة يانعة دون أي شيء آخر. فهي ترغب بمتابعة الدراسة، ولا تبدي الرغبة في ممارسة أي عمل، تزوجت لكنها لم تستقم فترة طويلة، لأن زوجها سئم من القيام بجميع الأعمال في المنزل وحده: غسل الثياب وكنس الأوساخ وطهي الطعام.

فتخاصما وافترق كل في سبيله. أما الآن فقد سارت الفتاة في سبيل آخر فهي ترتاد النوادي الليلية برفقة أصحاب مشبوهين، وتدخن، وتعود إلى البيت في ساعات متأخرة، وأحياناً تقضي الليل بكامله خارج البيت، وهي تطلب النقود منا باستمرار، بالإضافة إلى أحدث الثياب. وإذا توانينا عن تلبية أي رغبة من رغباتها أو حاولنا توجيه أي ملاحظة إليها فإنها تهاجمنا بهجائها المر وكلماتها النابية: إنها مصيبة لا أكثر».

إن مثل هذه النتائج التي تبدو وكأنها شيء مفاجئ وغير متوقع تأتي أحياناً من وراء مساهمتنا العفوية بتكوين التوجهات الأنانية في نفس الطفل. نحن نظن أن كل ما نفعله صحيح، وأننا نبذل الاهتمام من أجل مصلحة الطفل، ونضمر له الخير والسعادة والراحة فلا نجني من وراء ذلك سوى النتائج المحزنة. وبالطبع، فنحن لا نقصد بكلامنا هذا أن تكون الطفولة خالية من البهجة، وأن يحرم الطفل من كل شيء ويعيش في جو دائم من

الزجر وتلقي النصائح والتوجيهات، وأنه لا يتوجب تلبية أي رغبة يظهرها. بل على العكس، فإن الحنان والطيبة والجهد الذي نبذله لجعل الطفل يعيش طفولة سعيدة، وسعينا لتأمين حياة هادئة للطفل وتكوين نظرة متفائلة لديه نحو المستقبل هي جميعاً أمور لا بد منها.

إن هذه الطريقة في التعامل مع الطفل تقدم بالفعل ثماراً طيبة في تكوين شخصية إيجابية فعالة، شريطة ألا يحصل الطفل على الرفاهية والبحبوحة على حساب الآخرين. ويجب ألا يتكون لدى الطفل انطباع بأننا نقدم أنفسنا ضحية من أجله، وأننا مستعدون للتخلي عن كل شيء من أجل أن نوفر له البهجة والسرور، والأهم من ذلك يجب ألا يشعر أن بإمكانه الاتكال على من حوله واستخدامهم من أجل بلوغ غاياته الشخصية، وأنه يجب الاستفادة والحصول على كل ما يمكن في كل مناسبة دون بذل المقابل.

إننا غالباً ما ننزع إلى تفسير أنانية الطفل، لكي نجنب أنفسنا عناء تحليل الأسباب الحقيقية لتكونها والبحث عن منابعها الأصلية. بمقولة واسعة الانتشار: «إنه طفل وحيد عندنا، وقد كرسنا حياتنا من أجله، وقدمنا له ثمرة جهدنا وعملنا، وهكذا فقد نشأ أنانياً محباً لذاته. فلو كان لدينا طفلان أو ثلاثة لاقتسموا كل شيء فيما بينهم بالتساوي، ولعرف كل منهم أن عليه التفكير بغيره». لكن ذلك في معظم الأحيان لا يزيد عن كونه تبريراً لتغطية عجزنا أو أخطائنا التي نرتكبها في تربية الطفل. فيمكن أن ينشأ الطفل أنانياً وإن تربى في أسرة عديدة الأطفال، كما يمكن أن يشب إنساناً طيباً متفانياً وإن كان وحيداً في أسرته، فعلة الأمر لا تكمن في عدد الأطفال في الأسرة، وإنما في أسلوب التربية المتبع. فهناك شواهد كثيرة على نشوء أطفال في أسر متعددة الأطفال، بحيث لا يدع مجالاً للأهل بتبرير أسلوبهم الخاطئ في التربية بعوامل خارجة عن إرادتهم. فهذا الابن الأول يعلن لأمه أنه لا يستطيع استقبالها للعيش معه، لأن شقته ضيقة ولا تتسع لسرير صغير لوالدته، أما الابن الثاني فعلى الرغم من أن شقته أوسع لكنها مليئة بالأثاث والفرش ولا مجال لتخصيص مكان لهذه الأم العجوز، وأما الثالث فلا مجال للتحدث معه بهذا الأمر، فقد أصبح شخصاً بارزاً ويشعر بالحرج الشديد أمام أصدقائه الكبار حين يروا والدته البسيطة. وهكذا يقوم الأبناء «برمي» الأم من بيت أحدهم إلى بيت الآخر لتضيع كل ليالي السهاد التي قضتها بجانب أطفالها هباءً، وتلك الدمى والألعاب التي كانت تسعى لإبهاجهم برؤيتها، عدا

الطعام والثياب التي كانت تشتريها لهم بنقودها المكتسبة بالجهد والعرق، والقلق الدائم على راحتهم: «هل استطاع الأطفال تسخين الطعام وتناوله بأنفسهم»؟، «ألم يحدث لهم شيء أثناء غيابي عنهم في العمل»؟ كل ذلك أصبح منسياً لانشغالهم الشديد بهمومهم اليومية: «يجب شراء مجموعة جديدة من الأثاث للبيت»، «يجب ادخار النقود اللازمة لشراء السيارة»، «يجب اقتناء أقراط مرصعة باللؤلؤ» وما شابه ذلك. ويحدث أحياناً أن تعيش الأم وحيدة، ولا يجد الابن أو الابنة وقتاً لزيارتها، إنها تعيش بعيدة والمسافة طويلة (قد تكون مكان عيش الأبناء)، كما يجب توفير النقود اللازمة للسفر إليها، فليس من المعقول زيارتها بيدين فارغتين، كما يجب مساعدتها هناك في بعض الأعمال، فيجب تعشيب الحديقة وإصلاح السقف المتهدم.

وهناك خطيئة شائعة أخرى حول تفسير الأسس التي تنشأ عليها الأنانية، وهي وجهة النظر التي تقول إن الأنانية التي تتولد فقط عندما تكون رغبات الطفل لا محدودة، وعندما يأخذ الأهل جميعاً دون تمييز بتدليل الطفل وزيادة ملاطفته، فتنشأ لديه صفة الأنانية والاتكالية وعدم الاكتراث بالآخرين. بالفعل فهذا التفسير لأسباب الأنانية شائع على نطاق واسع. لكن اتضح أن الأنانية لا تتولد عن الحنان والاهتمام والدلال الزائد وحسب، بل أكثر ما تنشأ بسبب النقص الشديد في إظهار هذه المشاعر تجاه الطفل. ومهما يكن هذا الأمر غريباً، فالحقيقة هي هكذا، وليس من الصعب أبداً فهم آلية هذه الظاهرة.

إن الطفل الصغير يحتاج إلى حنان أمه وإلى أن تأخذه بين يديها وتقبله، وأن تزيد من عطفها عليه عندما يتألم، فهو دائماً بانتظار العطف والاهتمام. وعند توفر هذه العواطف فإنه يشعر بالسكون وبالطمأنينة، لأنه يعرف أن الأب والأم سيأتيان إليه في كل لحظة يحتاج فيها المساعدة وسيحميانه ممن تسول له نفسه الإساءة إليه، وسيدفعان عنه كل مكروه. ثم يتجلى هذا الحنان والعطف أمام نظر الطفل عبر اهتمام والديه بأموره الدراسية ورغبتهم في تنمية الصفات الروحية والأخلاقية في شخصيته. ولذلك فليس هناك حاجة عند الطفل لأن «ينتزع شيئاً ما من الأيدي» وأن يطلب حاجة لتكون له فقط، وأن يلفت الأنظار إلى نفسه؛ فهو واثق أن بإمكانه الحصول على كل ما هو ضروري له. وعندما يفتقد الطفل إلى مثل هذا

العطف والحنان يصبح مضطراً للبحث عن السبل التي تؤدي به لبلوغ ما يرغب. فمثل هذا الطفل الذي لم يتذوق طعم الحنان أو الشفقة لا يستطيع أن يكون مثل هذه المشاعر في نفسه تجاه الآخرين. إذ إنه لم يحصل في طفولته على ذلك المقدار الضروري من حرارة المحبة والعطف، الذي تصبح حياة الإنسان فيما بعد من دونه خالية من أي معنى، فالطفل الذي يشب في الأسرة دون عطف وحنان يحافظ بعد أن يصبح رب أسرة على هذا النمط القاسي والفظ في التعامل مع زوجته.

فمثل هذا الزوج لا يستطيع معايشة مشكلات أسرته والشعور بحاجاتها أو الالتفات إلى هموم طفله، فهمه الوحيد هو تحقيق الراحة والمتعة الشخصية. وإن كان يعلم أن زوجته مريضة وتقوم طوال النهار بأعمال البيت ورعاية الأطفال الصغار، فيمكن أن «يتأخر» في العمل وكأنه لا يوجد أي شيء يمكن أن يثير قلقه، ثم يذهب إلى غرفته ليخلد إلى النوم والراحة، دون أن يسأل عن صحة زوجته أو أن يقترب منها: «ما هذا المرض السخيف، إنه توعك بسيط وسيزول أثناء يومين». وكل هذا ليس لأنه لا يحب زوجته أو لعدم مبالاته بطفله، أبداً، وإنما لأنه تعود على هذا التصرف منذ طفولته، وبهذه الصورة كان أهله يعاملونه؛ ففي طفولته كان متروكاً لنفسه، ولم يظهر له أحد أي شيء من العطف والاهتمام، ولم يكن ليسأله أحد هل أنجز واجباته المدرسية أم لا، أو كيف حالته الصحية.

إذاً فالأسباب التي تؤدي إلى تكوين النزعات الأنانية في تعامل الإنسان مع الآخرين كثيرة، وهي تنشأ على أساس التربية الخاطئة للطفل في الأسرة ونمط تعامل الأهل مع طفلهم.

ولكن ما هي صور تجلي الأنانية؟ إنها كثيرة وتأخذ أشكالاً مختلفة في كل مرحلة من مراحل نمو الطفل. فالطفل الصغير يعلن عن ذاته ويصوغ مطالبه بالصراخ، أما الطفل الأكبر فإنه يشعرنا بما يرغب عن طريق النوبات الهستيرية من الصلف والعناد، وإذا منعناه من شيء ما فيما بعد، فيجيب بالغيرة والطمع، ثم تأخذ الأنانية بالتجلي في المجال الأخلاقي على صور من اللا مبالاة والخيلاء والتكبر على الآخرين، وعدم الشعور بمعاناة الغير وحاجاتهم وتركيز الاهتمام على الرغبات والمصالح الذاتية.

العطف و الشفقة
«كدواء مضاد» للأنانية

إذا أجرينا تحليلاً لتاريخ نشأة الفكر التربوي بانتباه منذ أقدم الأزمنة وحتى عصرنا الراهن، نلاحظ أن الفكرة الأساسية التي تعتمد عليها معظم النظريات التربوية تدور حول زرع المشاعر الإنسانية في نفس الطفل. فمحبة الإنسان والنظر إليه نظرة إنسانية، هي القاعدة الأساسية في التربية. وقد أكد وجهة النظر هذه الديمقراطيون الاشتراكيون الروس، حيث نجدها واضحة بجلاء في أعمال ك. د. أوشينسكي، واتبعها ن. ك. كوربكسايا كمنهج لأبحاثها التربوية. ودافع عنها أ. س. ماكارينكو، كما تعتبر محوراً مركزياً لمؤلفات ف. أزسوخاملينسكي.

لقد تكون المبدأ الإنساني منذ أمد بعيد. ويعتبر أيضاً هذا المبدأ الإنسان أسمى مخلوق في الطبيعة وأهم ما في الكون، ويؤكدون أن الإنسان أهل لأن يكون حراً من أي اضطهاد اجتماعي أو روحي، وهو قادر على التخلص من الظلم والجور والجهل والرذائل، لذا فعليه أن يصقل شخصيته ليصل بها إلى حد الكمال.

ويمكن بلوغ أعلى مراحل الإنسانية في المجتمع الاشتراكي المتطور، الذي يسمح بتجسيد جميع المبادئ الإنسانية ويكفل، كما أشار ف. إ. لينين، بتحقيق الرفاهية الشاملة لجميع أفراد المجتمع والعيش الحر الكريم لهم. وتدعو الإنسانية إلى نشر الألفة والمحبة بين الناس وتكريس احترام الإنسان، كما تهدف إلى خلق الظروف الإنسانية الحقيقية الضرورية للنمو المتناسق لشخصية الإنسان.

إذاً كيف ينبغي أن نربي الطفل كي يصبح مرهف الإحساس مطيعاً ولبقاً في تعامله مع الآخرين، وكيف يمكن إدخال الطيبة إلى قلبه؟ إن المعاملة الطيبة

التي يتلقاها الطفل من ذويه هي العامل الأول الذي يساهم في نمو هذه المشاعر في نفس الطفل. وقد تكلمنا عن هذا سابقاً، ومع ذلك يمكن أن نكرر باستمرار: إن الأسرة المتفاهمة، التي يتعامل أفرادها بود ومحبة متبادلة، هي الأساس لتربية السمات الطيبة عند الطفل ومعاملته الحسنة للآخرين. لكن ماذا تتضمن هذه المعاملة الحسنة والاهتمام، وكيف تتولد عند الطفل؟ وماذا تعني محبة الناس؟ وكيف نبدأ في تنمية هذه المحبة من كلمات «فلتحب سيريوجا»، «ولتحب جدتك»، و«لتحب كل إنسان»؟ من المستبعد أن نحقق أي نجاحات ملموسة بهذه الطريقة المباشرة. أما الأسلوب الصحيح فيتمثل في أن نجعل أنفسنا قدوة حسنة ومثالاً يحتذي به الطفل في سلوكه: «سيريوجا! إن الجدة مريضة، لذا فأنا ذاهبة لزيارتها وسأبقى عندها لأفعل كل ما يلزم، أما أنت فلتهتم بشؤون البيت، ولا تنس أن تحضر أولغا من روضة الأطفال وأن تطعمها». لكن هذا وحده قليل أيضاً، لأننا بذلك نربي عند الطفل الشعور بالواجب والمسؤولية فقط: «علي أن أغسل الأواني والذهاب لإحضار أختي من روضة الأطفال ولا بد من ذلك، فأمي ذهبت لزيارة جدتي المريضة». وهنا نقوم بتعليم الطفل الاهتمام بالآخرين ومد يد المساعدة إليهم دون أن نمس عند ذلك الشيء الأساسي: قلب الطفل، فعندما يقوم في هذه الحالة بالمساعدة والعمل سوف يشعر بعدم الرضا: «لماذا تمرض جدتي هكذا باستمرار، فأمي تظل بسببها متغيبة عنا لتبقى بجوارها، أما أنا فعلي دائماً صب الحساء وسلق البيض والمعكرونة! لقد سئمت الذهاب إلى روضة الأطفال لإحضار أولغا إلى البيت، إنني أريد اللعب وليس لدي الوقت لذلك!» إن تدريب الطفل على مساعدة الآخرين لا يكفي وحده لأن يولد لديه شعور المحبة تجاههم، وإنما يجب أن يترافق بشعور المشاركة والعطف والشفقة. فعندما يدرك سيريوجا أن الأمر لا يقتصر على وجوب الذهاب إلى روضة الأطفال، وإنما تداخله مشاعر الشفقة على والدته المتعبة، والعطف على جدته المريضة، عندئذ لن تبقى هذه المهمة عبئاً ثقيلاً عليه. إن المشاعر ترغم الطفل على الإحساس بمعاناة الآخرين كشعوره بصعوباته الخاصة. كتب و. و. وايتمان: «إنني لا أسأل الجريح عن جرحه، وإنما أشعر كأنني جريح مثله» «العطف والمشاركة هي أحد

أشكال الود الإنساني» غالباً ما تكرر هذه العبارة في مراجع علم الأخلاق. ويصاغ شعور العطف وتفهم حالة الإنسان الآخر عبر الدعم المعنوي المقدم له، والتهيؤ لمد المساعدة إليه. فالعطف: هو الشعور بحالة الآخرين والإحساس بالشفقة والمواساة التي نقدمها لهم. وكما قال سوخوملينسكي: يمكننا الركون إلى السكينة والاطمئنان عندما يصبح الطفل قادراً على الإحساس بألم الآخرين بقلبه لا بعقله. فهنا نكون قد زرعنا في نفسه أهم شيء وهو محبة الناس...

وبالطبع فإن تنمية شعور العطف في نفس الطفل لا تشمل جميع مسائل التربية الخلقية، لأن الأخلاقية مفهوم أوسع بكثير. «الأخلاقية الاشتراكية لا تتطلب شفقة فائضة نحو الإنسان، ولا تألماً كبيراً من أجله، وإنما تتطلب تقديم العون الحقيقي إليه. والعطف على مصالح الإنسان يجب أن يصاغ عملياً عبر النضال ضد الظلم والجور الاجتماعي. وهذا العطف لا يستند إلى شيء نتحسن به على الآخرين، بل هو اعتراف بحقوق الإنسان كمطلب مشروع. إن مثل هذا العطف لا ينتقص من كرامة الإنسان وإنما يؤكد جدارة وقداسة شخصيته». (من القاموس الموجز بعلم الأخلاق: موسكو 1965 ص 55).

وهكذا فالعطف والشفقة من المركبات الانفعالية لشعور إرادة الخير للآخرين، الذي يجعل طريق الإنسان درباً إنسانياً صادقاً. إن مشاعر الإنسانية تميز الإنسان وحده، وقد تشكلت أثناء عملية تعايش المجتمعات الإنسانية مع بعضها. فهي تعبير عن وحدة وتعاضد المجتمع الإنساني...

إن الطيبة الحقيقية لا تجتمع أبداً مع الدناءة والتزلف والمراءاة. كما أن شعور الشفقة يثير لدى الإنسان الرغبة الشديدة في مساعدة الإنسان الآخر إذا كان بحاجة إليها، أو مصارحته دون مواربة بذنبه الذي ارتكبه، ودون أن يحاول جرح شعوره أو الانتقاص من خطيئته، ليريه موقع الخطأ الذي اقترفه. فهذه المشاعر بالذات تكمن في أساس تشكل إرادة الخير ومشاعر الطيبة والود التي يبديها الطفل تجاه الآخرين، والتي تعتبر بمثابة «البلسم الشافي» من الأنانية والقسوة.

تحوي المؤلفات التربوية الكثير من الموضوعات التي تدور حول قسوة واستبداد الأطفال. إذ تشير أعمال لسيغامت وكابتيرييف وسيلليه وأوشينسكي والمؤلفات التربوية الحديثة، إلى وجود بعض المظاهر السلوكية عند الأطفال الذين لم يدخلوا المدرسة بعد، والتي تكشف عن مشاعر القسوة في أنفسهم، فالطفل يظهر عدم المبالاة بوفاة أقربائه ووفاة الأخ أو الأخت بالنسبة له لا تتجاوز فقدان الرفيق الذي كان يشاركه في اللعب.

ويكون الطفل بمثل هذا المقدار لا مبالياً... بجميع المخلوقات. فهو يقدم على تمزيق الفراشة الحية إرباً إرباً، ويدوس الخنفساء الصغيرة بقدميه، ويشد القطة من ذيلها. ويشير الكثير من المؤلفين إلى أن الطفل بعمله هذا كأنما يتلذذ بهذه القسوة، ولا يشعر بأي إحساس من قبيل العطف والشفقة. ويمكن للطفل أن يظهر الفظاظة والقسوة تجاه أخيه الصغير الذي يظهر كعضو جديد في الأسرة. كل ذلك أعطى المبرر لاتهام الأطفال بالقسوة النادرة وعدم الشعور بالشفقة، وكون تصوراً بأن هذه السمات هي خصائص مميزة للمرحلة التي تسبق دخول الطفل إلى المدرسة. إلا أن القسوة والجور يمكن أن تطلق بحق على ذلك السلوك، الذي يقصد من ورائه إلحاق الأذى والألم النفسي والجسدي للآخرين بشكل متعمد، والذي يتغذى بالحقد والكراهية لذلك المخلوق الآخر، دون أن يكون هناك رادع من الشفقة والرحمة يمنع الطفل من ضرب زميله، أو احتقاره أو إهانته بالكلام البذيء، أي إقدامه على التسبب بالآلام الجسدية والمعنوية لمن حوله. ولذلك فعندما يصرخ المراهق في إثر زميله: «أي، أنت أيتها الضفدعة السمينة»، «أيها الخلد الأعمى»!، أو عندما يضربه بحذائه على رأسه، فعند ذلك يمكن تسمية تصرفاته بأنها جائرة وقاسية. وإذا كان تلميذ الصف الخامس قادراً على قطع أرجل طير الحمام الحي، ولا يتورع عن ربط عصاً إلى ذيل الهرة، أو مهاجمة الطيور بالحجارة وإتلاف لحاء الشجر من أجل حفر اسمه على ساقها، فإن ذلك يجب أن يدعونا أيضاً للتأمل والقلق. وإذا عاد الشاب إلى البيت مخموراً، وقام بتنكيل والدته لتعطيه النقود كي يبذرها، فإن ذلك أيضاً قسوة وجور. وهكذا فالقسوة تظهر بأشكال متعددة، إذ يمكن أن تبرز عبر

التعامل الفظ، والمقدرة على إذلال الشخص الآخر وإهانته والتهكم فيه والتجريح به، والذي غالباً ما يفعله عوضاً عن توجيه النقد الصحيح. كما يمكن للقسوة أن تظهر عبر الألم الجسدي الذي يلحقه الإنسان بالمخلوقات الحية من إنسان وحيوان ونبات.

لكن دعونا نعود ثانية إلى قسوة الأطفال الصغار، فهي يمكن أن تنتج عن تأخر في التطور الانفعالي للطفل ناتج عن إصابته بأمراض نفسية واضحة، وبالدرجة الأولى معاناته من التأخر العقلي...

وقد سجلت حوادث كثيرة في المؤلفات الطبية، يقدم الطفل المتأخر عقلياً فيها على صب الحساء بهدوء على رأس زميله دون أن يعبر وجهه عن أي علامات للتأثر، أو يقوم بربط أسنان رفيقه بخيط ويأخذ بشدها، على الرغم من العويل والصراخ الذي يسمعه، أو يأخذ بضغط رجل جاره بشيء ثقيل مع النظر إليه وهو يتألم ويزعق إلى أن يهرع الأهل على صوت الصراخ لإنقاذ طفلهم. لكن ما أوردناه هو أعراض لمرض نفسي، فهذه البلادة الانفعالية والقسوة الناجمة عنها ما هي إلا بوادر مرض نفسي خطير. أما ما يخص الأطفال الأصحاء نفسياً، فغالباً ما تكون أسباب القسوة في تصرفاتهم عائدة إلى عوامل أخرى، لقد أظهر التحليل الدقيق لتصرفات الأطفال التي تنم عن القسوة، أن دوافع هذا السلوك يمكن أن تشمل الفضول وحب الإطلاع، ورغبة الطفل في النفوذ إلى جوهر الأشياء، والحيوية الزائدة والتعطش لعمل شيء ما. فيقدم الطفل على مشاكسة القطة لأنه يرغب بمداعبتها، ويحمل السحلية من ذيلها لكي يتحقق من أن السحالي يمكنها بالفعل التخلي عن ذيلها والعيش من دونه، ويقوم بكسر أجنحة الفراشة لرغبته الشديدة في معرفة إن كانت تستطيع الطيران دون أجنحة أم لا.

إن مثل هذه «القسوة» بعيدة عن الرغبة المقصودة بإلحاق الأذى والألم بالآخرين، وعن التلذذ بمشاهدة معاناتهم. كما أن عدم مبالاة الطفل الصغير بمصائب وأحزان الكبار يمكن تفسيرها بغياب المقدرة عند الطفل على تفهم جوهر هذه المعاناة.

وهكذا نكون قد توصلنا إلى استنتاج أن القسوة والعنف لا تأتي مع الطفل بالولادة، أما تلك المظاهر التي توحي بوجودها عند الطفل الصغير فبعيدة كل البعد عن القسوة الحقيقية. وعلى الرغم من هذا علينا أن نحذر هنا أمراً خطيراً؛ فإذا أخذنا بتكريس هذه المظاهر عند الطفل ومساعدتها على النمو، فإن تلك القسوة الطفولية «البريئة» التي فرضناها كفضول من قبل الطفل وقلة وعي للأشياء وما شابه، يمكن أن تتحول إلى قسوة حقيقية.

وهذا التحول يمكن أن يتم عندما يصطدم الطفل أثناء نموه بقسوة ظاهرة في البيت، أو بجفاء وتكبر وأنانية ولا مبالاة بالناس الآخرين. «ماما انظري كيف تمشي تلك العمة بتثاقل والطفل بين يديها، وفوق كل ذلك فالمسكينة تحمل حقيبة»!. «لا تتلهى بمراقبة الآخرين! هيا فلنتابع المشي، إنها المذنبة وما كان عليها أن تأخذ معها كل هذه الحاجات»، ثم تمر الأم برشاقة بجانب المرأة المسكينة التي تتعثر من ثقل ما تحمله. «ثم تأتي الجارة إلى الأم وتطلب: هل بإمكاني استعارة آلة فرم اللحم من عندكم؟ فقد تعطلت آلتنا»! «وا أسفاه، فالتي عندنا غير حادة أبداً» تؤكد الأم ذلك كذباً، ثم تشرح لابنتها: «وهكذا إذا رغبت في إعارة هذه الآلة لكل من يطلبها فستصبح بالتأكيد غير حادة». «تقولين أن الجدة مريضة؟ تباً لها هذه العجوز! كم أذاقتني من عذاب في هذه الحياة». إننا نادراً ما نصادف مثل هذه الحقائق ولكنها مع ذلك موجودة. ومن العوامل التي تساعد على تولد القسوة والعنف في نفس الطفل تأتي المنازعات والشجار داخل الأسرة الذي يجري أمام الأطفال، والإهانات المتبادلة أو الاحتقار والتعالي في التعامل المتبادل بين الأهل وإن كانت العلاقات هادئة نسبياً: «لقد وقعت الأم طريحة الفراش ودخلت المستشفى لارتفاع ضغط الدم عندها. والأب من دونها يشعر بالطبع بالارتباك والضيق ولذا فهو يئن: «لم تمرض للدرجة التي تدعوها لدخول المستشفى، وكي تلقي بكافة أعباء المنزل علي: فها أنا مضطر لطهي الطعام وغسل الثياب والذهاب إلى روضة الأطفال للعودة بك إلى البيت. ولا تنسَ أن لدي عملاً ينتظر الإنجاز، ولا أجد الوقت لعمل أي شيء. وماذا في الأمر إذا آلمها رأسه قليلاً! فرأسي يؤلمني على الدوام - ولا بأس». يفصح الوالد عن كل ذلك والطفل

مصغ بانتباه وتأمل. وليس من الغريب أن يقول لوالدته فيما بعد: «وماذا في الأمر إذا كان رأسك يؤلمك، فبإمكانك التحمل قليلاً، أما أنا فأرغب في الأكل، فلتحضري لي الطعام»!.

ومن المؤكد فإن طفلاً كهذا لن يفكر يوماً بتنظيف البيت أو تحضير الطعام قبل أن تعود أمه من العمل. فأباه لم يعلمه بعد ما معنى أن «يمرض» بنفسه دون مساعدة الآخرين، وأن يقلق إذا مرضت والدته ويهتم من أجلها، وأن يسرع إلى المستشفى لرؤيتها والاطمئنان عليها وتقديم شيء لذيذ لها، أو على الأقل إدخال السرور إلى قلبها بزيارته. إن القسوة تنمو على تربة الاغتراب والابتعاد النفسي بين أفراد الأسرة الواحدة واللا مبالاة تجاه الآخرين وغياب أي رغبة في مساندة الإنسان الآخر أو مد يد المساعدة إليه دون مقابل. ولكن مهما أبدينا من رغبة وبذلنا من جهد لتنمية المشاعر الطيبة في نفس الطفل وقطع دابر أي إمكانية لنمو القسوة والجفاف لديه، تبقى هناك عوامل خارجة عن إرادتنا. ونقصد هنا أنه يمكن للطفل التأثر بمظاهر القسوة عبر اختلاطه بالناس الآخرين، ورؤيته لأفلام العنف على شاشات السينما والتلفاز. في الحقيقة لا تعرض عندنا أفلام الرعب والقسوة التي يجري أثناءها التلذذ بالمشاهد الساديّة، وتنزف فيها الدماء بغزارة، ويسيطر عليها العنف والقتل كأمور عادية. ومع ذلك فالكثير من الأفلام تعرض جرائم القتل وتحوي على مشاهد العنف والقسوة: رشقات الرصاص من البنادق الآلية، جثث القتلى، المطاردات، الإعدام رمياً بالرصاص إلخ... وهذه العروض التي يقصد من ورائها إثارة شعور الغضب عند المشاهد وتفهم عدالة معاقبة العدو على أفعاله القبيحة لا يمكن أن تلقى استيعاباً وتفهماً إلا من قبل الكبار. أما كيف يتقبلها الطفل فهذا أمر غير واضح حتى الآن. فقد يدرك الطفل أنه من الواجب مصارعة الأعداء، لكنه قد يظهر في وعيه بالإضافة إلى ذلك فكرة تسوغ القتل والعنف. وبالطبع فلا يستطيع كل طفل أن يتشرب فكرة القسوة والعنف، لكن هذه المشاهد يمكن أن تنطبع في مخيلته ليأخذ في تقليدها، إذ إن آلية التقليد هي من أهم مكونات نفسية الأطفال. يعتبر الأكاديمي ل. أزأوبيللي أن أساس آلية التقليد يعتمد على أفعال وراثية ثابتة تعمل على تحفيز الطفل

ليتصرف وفق ما يرى ويسمع: «بالإضافة إلى ردود الفعل الإرادية العادية، فإننا نملك بعض ردود الفعل الوراثية الفطرية غير المشروطة، التي تشمل قبل كل شيء فعل التقليد والمحاكاة، الذي يعتبر من دون شك فعلاً فطرياً وراثياً... فسيقوم الطفل الصغير بالتأكيد بتقليد تصرفات الأهل والزوار، وتصبح هذه السمة في مرحلة معينة من مراحل نموه إحدى الوسائل الرئيسة لتعلم صور جديدة من السلوك والتصرفات».

لذلك علينا أن نولي اهتماماً أكبر بمسألة زرع بعض المشاعر المهمة في الطفل، كاحترام الآخرين والشفقة والعطف، على الرغم من أن البعض يعتبر هذه العواطف تقليداً قديماً. فمتى تنشأ هذه المشاعر؟ وما هو الطريق الذي تسلكه أثناء تطورها، وكيف يمكن التعرف عليها؟ تشير الدراسات الخاصة في هذا المجال إلى أن المشاعر التي ينعكس عبرها موقف الطفل من الآخرين تتولد لديه في السنوات الأولى من حياته. إذ ينشأ عند الطفل في وقت مبكر جداً الإحساس بالبهجة والسرور. فهو يبتسم رداً على الابتسامة وعلى تعابير الفرح التي يفصح عنها وجه الإنسان البالغ. وفيما بعد يمكن أن نلمس بوضوح عند الطفل الذي بلغ السنة الثانية أو الثالثة من عمره بعض المظاهر التي تنم عن شعور بالشفقة والتأثر؛ فالطفل يأخذ في البكاء إذا رأى رفيقه يبكي، ويحاول التخفيف عنه بقدر ما يستطيع ومد يد المساعدة إليه (يحاول أن يساعد الطفل الذي سقط على النهوض ويقبله)، أي إن الطفل يبدأ بتفهم الآخرين، والإحساس بمعاناتهم، ولا يكتفي بالتأمل وحسب، بل يحاول التدخل بنشاط لمساعدتهم.

«هل تتألم؟ اقترب كي أقبلك وسيخف الألم حالاً»، «هل أصيبت قدمك؟ يجب مسحها بالمطهر وستشفى بالتأكيد»!، «خذ قطعة الحلوى هذه، وسوف يزول الألم»! بهذا الشكل الطفولي الساذج يقوم الطفل بتجسيد تلك «الطرائق» في تعامله مع الأطفال، التي نستخدمها نحن الكبار عندما ننظر بعين العطف والشفقة على الطفل لدى إصابته بأي سوء أو مكروه. ويمكن أن نلمس مثل هذا الشعور لدى الأطفال موجهاً نحونا بالذات إذا أظهرنا للطفل على الدوام كيف يتوجب عليه التعبير عن تعاطفه ومشاركته للآخرين.

ساشا الصغير يلعب مع والدته. وعندما ينجح في التقاط الكرة تصبح فرحته كبيرة بلا حدود. ولكن تضرب الكرة فجأة وجه أمه، فتظهر الأم هيئة الإنسان المتألم وتخفي وجهها بيديها وتأخذ «بالبكاء». فتتغير تعابير وجه ساشا مباشرة، وتتبدل ملامح المرح والسرور لتحل مكانها علامات الدهشة والحذر. وتتابع الأم «بكاءها المرير» فينغم وجه ساشا ويكفهر ليصبح مهيأ في أي لحظة للانخراط في البكاء. ويركض الطفل إلى أمه ويأخذ بتمسيد رأسها، ثم ينتزع قطعة الحلوى الملتصقة في جيب سرواله ويمد يده قائلاً: «خذي، هيا ولتكفي عن البكاء»! فهذا الإنسان الصغير لا يشعر بألم الأم وحسب، وإنما يحاول التدخل لتخفيفه، فيستنهض الأم، ويواسيها ويقدم لها الحلوى. وفي هذه الحالات الاعتيادية البسيطة بالذات تبدأ تربية المشاعر الإنسانية الحقيقية، مشاعر الشفقة التي تتجسد فيما بعد في تصرف عملي. كتب ف. إ. دزيرجينسكي: «يصبح الإنسان قادراً على الإحساس بالمصائب الاجتماعية العامة إذا استطاع أن يشعر بمصيبة الفرد الواحد».

إن مشاعر العطف والشفقة هي ذلك الترياق الذي يساعدنا في مكافحة الجفاء واللا مبالاة والقسوة التي يظهرها الطفل في تعامله مع الآخرين. ولا نقصد هنا مشاعر الإشفاق والطيبة السلبية التي تتجلى في الكلام فقط، وإنما نعني المشاركة الفعالة وتجسيد هذه المشاعر بتصرفات عملية. وعلى الرغم من كل ذلك، فهناك الكثير من الناس، الذين ما زالوا يعتنقون أفكاراً لا إنسانية: «ما هذه الشفقة السخيفة؟ إنها لا تعمل إلا على إضعاف الطفل وشل إرادته. أما الإنسان فيجب أن يكون قوياً وشجاعاً. لذا فلا ينبغي تعويد الطفل على هذه الشفقة». نعم يجب على الإنسان أن يكون قوياً وشجاعاً، إلا أن الرجولة دون الشفقة تتحول إلى قوة بطش عمياء وعدم مبالاة بالآخرين، ويمكن للشفقة أن تضعف مقدرة الإنسان عندما لا يرغب بإبداء المساعدة الفعلية للإنسان الآخر. في الحقيقة إن التربية الأخلاقية للطفل تبدأ من تنمية المشاعر الإنسانية لديه، وبالدرجة الأولى محبة من حوله وإظهار العطف أو الشفقة والحنان تجاههم. وقد قال هيغل إن الأخلاقية يجب زرعها في نفس الطفل كنبتة من الشعور ومع

تكرس الشعور في النفس يتحول بالتدريج إلى حافز أو دافع للقيام بتصرف معين «أنا أشعر بمصيبة ذلك الرجل، لذلك لا أسمح لنفسي بالإثقال عليه بالطلبات المتتالية»، «إنني أشعر ببالغ الشفقة نحو ذلك الطفل، فقد تركته والدته بعد ولادته مباشرة، لذا سوف أتبناه وأرعاه وسأربيه مع أطفالي»، «يتملكني شعور العطف على هذا الرجل، فقد أهانوه دون حق، وأنا أقف بجانبه حتى نتوصل إلى إحقاق الحق». بهذا الشكل يصبح شعور الشفقة دافعاً لتصرفات الإنسان. إن هذا الشعور يكون عند الطفل في حالة التشكل والصيرورة، لذلك فإذا عملنا بكل قوانا لتنمية هذه المشاعر الإنسانية وتكريسها في نفسه، فإننا بذلك نعمل الكثير من أجل تربية المشاعر الأخلاقية عنده، وتصبح الشفقة والعطف تدريجياً مكونات لبنى تتمحور حولها فيما بعد سمات أكثر تعقيداً وهي النظرة الإنسانية للآخرين واحترامهم.

وفي البدء، كما أشرنا، يكون العطف عند الطفل مجرد انعكاس لتأثير مشاعر التأييد والمحبة التي يظهرها الإنسان البالغ للآخرين، ثم يأخذ تدريجياً بالتحول إلى الشعور بالشفقة والمشاركة؛ فعند سماع الطفل لبكاء زميله ينخرط في البكاء معه، على الرغم من عدم وجود أي مبررات للشعور بالمعاناة أو الحزن، كما تبدو على الطفل ملامح الفرح والسعادة عندما يرى علامات البهجة والبشر على وجوه الآخرين، لكن عندما يبلغ الطفل الثالثة أو الرابعة من العمر لا يشعر بالحاجة إلى البكاء عندما يبكي الطفل الآخر، وإنما يسارع إلى مساعدته ليكف عن بكائه، ويأخذ بتقبيله وتمسيد المكان المصاب ومواساته بكل السبل، وإظهار الحنان له، ويسارع للحصول على الدواء. قد يكون هذا التصرف مجرد تقليد لما يقوم به الكبار، إلا أن هذه التصرفات بالذات تأخذ بالاشتداد تدريجياً لتتجمع مع المركبات الانفعالية وتكون مشاركة ومعاناة حقيقية، ولا سيما في تلك الحالات التي يظهر فيها الطفل تأثره الحقيقي دون أن يدفعه أحد إلى ذلك، فعندما يلاحظ الطفل أن زميله وقع في سوء يسارع إلى مد يد المساعدة إليه: «أماه لماذا تعصبين رأسك بهذا المنديل؟ هل تشعرين بتوعك؟ اذهبي واضطجعي، أما أنا فسأغسل الأواني بنفسي». «هل أصبت يا أبي ثانية بآلام الظهر والفقرات؟ إذاً عليك أن

تضطجع، ولن أقوم بإزعاجك أبداً، وبإمكاني ألا أشاهد التلفاز كي لا أزعجك، «هل مرضت أولغا؟ سأقول للأولاد ألا يأتوا إلينا اليوم، فسنؤجل عملنا في تجميع جهاز المذياع إلى وقت آخر». «هل ينبغي السفر إلى الجدة؟ تقولين إن الطرقات متجمدة ويصعب السير عليها، وإن جدتي لا تستطيع أن تأتي لأخذ الأطعمة التي اشتريتموها لها؟ إذاً سأسافر في الحال إليها، أما الذهاب إلى السينما فيمكن تأجيله إلى يوم الغد» هذه هي الشفقة التي تصبح شعوراً حقيقياً، عندما تتحد مع الرغبة النشطة والعزم على مساعدة الآخرين، وهنا فقط يصبح بإمكاننا التحدث عن الشعور الحقيقي، ويمكننا التأكيد لأنفسنا بشيء من الاعتزاز بأننا نجحنا في تنمية الطيبة في نفس طفلنا، وذلك عندما يقوم من تلقاء نفسه بإظهار الطيبة نحو ذويه والناس الآخرين.

إن الشعور الفعال، الذي يكمن في أساسه التأثر والمشاركة لا يتكون بصورة مباشرة. فلكي تتولد الشفقة كتألم من أجل الإنسان الآخر، يلزم الطفل إدراك حقيقة أن هذا الإنسان يتألم أيضاً، وأن يصبح قادراً على فرز تلك الحالات المؤلمة والمكروهة وملاحظة الحركات التعبيرية التي تنم عن المعاناة، وأن يتمكن من مقارنة الإحساس الكريه بالألم، الذي يشعر بنفسه في مثل تلك الحالات مع شعور الإنسان الآخر. إن الشفقة في جوهرها هي نقل ومقارنة الأحاسيس الذاتية بالألم مع معاناة الإنسان الآخر، وعندما يتكرس هذا الشعور في نفسية الطفل يأخذ بالانتقال إلى «مواضيع» جديدة إلى أترابه ومن يحيط به من الناس وإلى الطبيعة وعالم الحيوان، وهنا بالطبع نستطيع ضمان النجاح في تربية شعور الشفقة في نفس الطفل إذا قمنا بتركيز انتباهه على المعاناة التي يعيشها الأتراب والكبار، وعندما يتبين له أن الحيوان يتألم أيضاً، وحتى الزهرة تتألم إذا تعرضت إلى القسوة والعنف. ولا تصبح الشفقة شعوراً أخلاقياً فعالاً إلا عندما تتحول إلى سمة خلقية عامة يبديها الطفل نحو الجميع عبر معاملته الإنسانية الطيبة لهم.

لننظر إلى الصبية ونرى ماذا يبنون بتلك المكعبات، سيريوجا يبني مرآباً، ويورا يبني قصراً، وهنا يحتاج سيريوجا فجأة لاستعمال ذلك المكعب الذي يلزم

أيضاً لقصر يورا، لذا يقوم سيريوجا دون أي مقدمات بانتزاع هذا المكعب من يد يورا. فيأخذ يورا طبعاً في البكاء: «أعطني، أرجع المكعب لي»، لكن، يرد سيريوجا متابعاً عمله بتركيز وعناية: «ولكن فلتقل: أعطني من فضلك!» يطلق يورا هذه الجملة عبر دموعه السخية مغالباً الغصة التي تخنقه. ثم يأمر سيريوجا وهو يحاول أن يخفي البناء الذي شيده عن عيني يورا: «فلتقل ذلك بصوت أعلى»، ويتابع عمله لاهثاً من شدة الاهتمام. إننا غالباً ما نلاحظ في ألعاب الأطفال مثل هذه المساعدة. فأحد الأطفال يستطيع أن يتأمل مع زميله بهدوء. فلا يدخل في شجار ولا ينتزع الدمى من يد رفيقه بفظاظة، ولا يزعق للمطالبة بما يريد، أما الطفل الآخر فنجده عدائياً، يريد كل شيء لنفسه ويصر على ما يريد على الرغم من بكاء ومعارضة زميله الشديدة.

مما لا شك فيه أن مشاعر العطف والشفقة يمكن أن تظهر لدى الأطفال إذا سعينا بصورة حثيثة لتربية هذه المشاعر فيهم، فعندما يرى الكبير أن طفله يبكي يأخذ «بالإشفاق» عليه؛ فيمسد رأسه، ويخاطبه بكلمات رقيقة ويقبله، ويقوم الكبير بتعليم الطفل في مثل هذه الحالات أن يتصرف بشكل مماثل «هل رأيت، أن سيريوجا يبكي، فلتشفق عليه»، «لقد سقطت ناتاشا وهي تتألم بشدة، هيا فلنذهب لمواساتها، ولنقدم لها دمية ما» إن مثل هذه الحالات، التي يمكن فيها تعليم الطفل الشعور بالعطف والشفقة كثيرة للغاية، ويتوجب فقط فرز هذه الحالات وتركيز انتباه الطفل عليها، فيأخذ الطفل بتطبيق معاملته الطيبة على الطبيعة وعالم الحيوان، والطفل الذي تربت فيه المشاعر الإنسانية لا يستطيع أبداً التلذذ بتعذيب الكلاب، ولا يقدم على قتل الحشرات غير المؤذية. «وإن لدى الخنفساء أطفالاً فهل من المعقول قتلها»؟ «إن السلحفاة تحمل الطعام لأبنائها الجائعين، فلا يجوز تأخيرها طويلاً، فلندعها تذهب».

لكن، كيف علينا أن نتصرف انطلاقاً من وجهة نظر أخلاقية للتفريق بين الحيوانات والحشرات المؤذية وغير المؤذية والمفيدة، هل ينبغي تعليم الطفل الإشفاق على الحيوانات والحشرات النافعة وقتل المؤذية؟ إن الإجابة عن هذا السؤال يفضل أن

يعطى بالشكل التالي: لا يتوجب قتل أي كان، سواء كان ذلك حشرة ضارة أم مفيدة، وإن كانت هذه الحشرة تضر بالمحاصيل الزراعية، فلندع الكبار يفكرون بمكافحتها، أما الطفل فيفضل عدم تدريبه على القسوة والعنف، وإن كانت «مبررة» بتلك الأضرار التي يجلبها هذا الحيوان أو تلك الحشرة. وبالدرجة نفسها يجب للطبيعة أن تكون «موضوعاً» لتجلي إنسانية الطفل: «لا يجوز الدوس على الأزهار، الأعشاب هي مخلوقات حية أيضاً وتشعر بالألم»، «انظر! لقد كسر أحدهم غصن الشجرة، لذلك تسيل قطرات النسغ منها كالدموع». وإذا تعود الطفل منذ الصغر احترام المخلوقات الحية وعدم إتلافها، فإنه لن يترك النار مشتعلة في الغابة، بعد استخدامها، ولن يتلف ساق شجرة الحور، ولن يلقي بالأوساخ والفضلات في أنحاء الغابة دون تمييز، وذلك ليس بسبب خوفه من تأنيب الآخرين، أو دفع الغرامة، أو تلقي العقوبة، وإنما لأن ضميره لا يسمح له بالتصرف بشكل مغاير.

بداية تشكل المدارك الذهنية أولى التساؤلات «لماذا؟».

«لأي شيء»؟، «لأي سبب»؟ ومظاهر الخوف عند الأطفال.

مع نهاية العام السادس من العمر يتغير سلوك الطفل بصورة حادة، فإذا كان هذا الطفل سابقاً مشغولاً بكل حواسه باللعب والركض، وكانت الرغبة في الحركة والصخب واحدة من أهم رغباته، وإذا كانت الأحداث التي تدور من حوله لا تثير فيه اهتماماً يذكر، لأنه لا يستطيع الربط فيما بينها، وكانت القوانين التي تجري الظواهر وفقها عصية على عقله الصغير لأن يستوعبها، فإنه هنا يأخذ تدريجياً باستيعاب الظواهر الطبيعية وقوانينها والعلامات المتبادلة السائدة بينها، والصعوبات والتناقضات التي تسودها ويتحفز هذا الإدراك للعالم إلى درجة كبيرة بتأثير المشاعر التي تدعى بالمشاعر الذهنية.

وتظهر هذه المشاعر أثناء عملية التعرف على العالم المحيط، وأثناء عملية حل تلك المسائل التي يصطدم بها الإنسان في حياته، وهذا يشمل الدهشة والتعجب من رؤية الظواهر المعقدة وغير المفهومة، والرغبة في الاطلاع على الشيء الجديد، والتشكك بصحة الحل الذي تم العثور عليه، والمساعدة باكتشاف الشيء

المجهول، والثقة أو الشك في صحة هذا الاستنتاج أو ذاك... إلخ. وهذه المشاعر المذكورة بعيدة عن أن تكون متماثلة، فهي تختلف بمحتواها وبدرجة تعقيدها، ولهذا فهي لا تنشأ عند الطفل دفعة واحدة. فبعضها يتشكل ويأخذ بالظهور في الفترة التي تسبق دخول الطفل إلى المدرسة، والبعض الآخر لا يشاهد إلا عند الإنسان البالغ.

ومع ذلك يأخذ الطفل الصغير بالشعور بالدهشة أمام الشيء المجهول والعصي على الفهم، كما تغمره الفرحة عند حل أي مسألة تعترضه، وإن كانت في غاية البساطة، ويندفع تحت تأثير الفضول للاطلاع على كل شيء، ويشعر بالرضا من أولى الأعمال الذهنية والمحاكمات العقلية التي يقوم بها. وعندما يقترب الطفل، الذي كان قبل ذلك لا يعرف إلا اللعب والركض من سنته الرابعة أو الخامسة ينهال علينا بسلسلة لا تنتهي من الأسئلة: «لماذا يكون القمر دائرياً، ثم يصبح أحياناً حاداً كالسكين»؟، «من أين تأتي النجوم»؟، «ومن يهز الأشجار»؟، و«ما معنى الحدود، ولماذا يقومون بحراستها، ومن يعيش وراء الحدود، وكيف تكون هذه الحدود»؟، و«لماذا تعيش الأسماك في الماء، ولماذا تموت عندما تخرج من الماء؟ وكيف يموتون؟ وماذا تأكل الأسماك؟ وهل الأخطبوط سمكة أيضاً، وهل من المعقول ألا يكون الحوت سمكة أيضاً. وكيف يمكن لذلك أن يكون»؟ ويساهم في عملية إدراك الطفل الذي لم يدخل المدرسة بعد للواقع المحيط به عامل انفعالي جديد يجعل من هذه العملية شيئاً أخاذاً ومشوقاً. ولذلك فلا يكتفي الطفل بمراقبة الوقائع فقط، فهو يرغب بمعرفة مسبباتها، ومن الممتع له أن يستوضح ماذا يجري حوله، ولماذا يجري بهذه الصورة بالذات وليس بشكل آخر.

إن الطفل يثق ثقة مطلقة بكلمات الإنسان البالغ، ولديه تصور راسخ بأن أمه وأباه وجدته على علم كامل بكل ما في الوجود، وبإمكانهم الإجابة بوضوح وعمق عن كل سؤال يطرح عليهم.

وكل ما حول الطفل يثير لديه الانتباه والقلق، فهو متعطش دوماً لسماع الإجابة الشافية عن تساؤلاته، ولهذا فهو يلاحق الكبار بأسئلته الكثيرة «ولماذا»،

«ولأي شيء؟»، و«لأي سبب؟» وهنا يجب أن يكون موقف الإنسان البالغ متناهي الدقة: فإما أن يقدم جواباً دقيقاً واضحاً ومفهوماً للطفل في هذه المرحلة من عمره، أو أن يستند إلى أن هذه الظاهرة ما زالت غير مفهومة حتى بالنسبة للكبار، أو أن ينهي المسألة مؤكداً أنه لا ينبغي على الطفل في هذه المرحلة من العمر الإحاطة بمثل هذه الأمور. ويتوجب أحياناً الرجوع إلى الموسوعات الثقافية والكتب العلمية وزيارة المكتبات من أجل تفسير تلك الظواهر التي يصر على معرفتها ويكرر السؤال عنها.

أما في تلك الحالات، عندما يكون محتوى أو علة الظواهر ليست بعيدة عن مدارك الطفل، ويمكنه بذاته تحليلها دون مساعدة الكبار، عند ذلك يجب التدخل فقط لتشجيع الطفل على التفكير بنفسه: «فلتفكر أنت بنفسك»!، «فلتتفحصي الأمر بنفسك فقد تقفين على السبب»!، «لتحاول فعل ذلك بنفسك، فهذا بمقدورك». بهذه الطريقة بالذات يجب أن نشجع الطفل ونحفز فيه تلك الرغبة الذاتية في البحث والاطلاع والتفكير والاستنتاج والتعميم وإيجاد القانون والرابطة التي تربط بين الظواهر ليتحد كل ذلك مع مداركه الذهنية ويصبح فيما بعد أساساً للاهتمام والتعلق وحب الاطلاع، ثم يتطور ليصبح إبداعاً. ويجدر التأكيد بأنه لا يجوز مطلقاً الرد على تساؤلات الأطفال بجفاف وقسوة: «اتركني وابتعد»!، «لا تزعجني بأسئلتك الحمقاء»، «إنني مشغولة الآن، فيما بعد». وهذه الـ «فيما بعد» تصبح عديمة النفع بالنسبة للطفل، لأننا إذا لم نزرع اهتمام الطفل بالمعرفة في الوقت المناسب، ولم نغذه بالدفء والحرارة فإن هذه الرغبة لديه سوف تموت. ويكون الأمر أسهل شراً إذا كان الطفل شديد الرغبة بالبحث والاطلاع من تلقاء ذاته وجاداً بالسؤال عن كل ما يثير فضوله. أما إذا لم يكن لديه مثل هذا الفضول الجارف بالمعرفة؟ عندئذٍ نصطدم بعدم رغبة الطفل في الاطلاع والمعرفة: «لا أريد دراسة هذه الكيمياء الكريهة»، «لا أريد حل مسائل أخرى، لقد سئمت»، «لن أقرأ قصة «الحرب والسلم» فيكفي أنني شاهدت فيلماً عنها في التلفزيون»؟ ويأخذنا هنا القلق والحيرة والاضطراب والخوف: «لا يرغب ابننا بالدراسة! فما العمل؟ لقد حلمنا كثيراً بأن ينهي

دراسته الثانوية، لو أنه أكمل المرحلة الإعدادية على الأقل!. «إن ابنتنا تصر بعناد على عدم إتمام دراستها الثانوية، فهي مصممة على ممارسة مهنة تجارية: فهذا شيء أكثر متعة من الجلوس ساعات طويلة واستظهار المواد عن ظهر قلب»!. نعم قد يكون سبب هذا الرفض الشديد، هو تلك اللا مبالاة تجاه أسئلة الطفل واهتماماته عندما كان صغيراً، وذلك الاستهتار بسعيه المتفاني والتعطش للمعرفة، الذي قمنا بخنقه! لقد بدت لنا تلك الأسئلة غبية ولا تعني شيئاً، ولم يكن باستطاعتنا دوماً الإجابة عنها بسهولة، وكنا نتجنب عناء البحث عنها في بطون الكتب، أو نخجل من سؤال الآخرين حولها.

من الواجب تشجيع هذا الشعور المتولد في نفس الطفل، الذي يدفعه نحو الاطلاع والمعرفة وتحفيز فضوله، ولإيقاظ شعور التعجب من المجهول والمقدرة على رؤية الشيء الجديد، وتفسير الشيء غير المفهوم وتشجيع الرغبة الذاتية لديه لإدراك ما هو غير جلي وواضح، واكتشاف الشيء الذي كان يعتبر بالنسبة للذات أمراً غامضاً. إن مثل هذه المشاعر لا تعمل فيما بعد على تحفيز البحث والتفكير بالدراسة وعملية المعرفة وحسب، بل والإبداع أيضاً. كتب ك. تشوكوفسكي: «مهما بدت لنا حياة الطفل العقلية (ولا سيما في سنوات عمره الأولى) متأرجحة وغير ثابتة، فعلينا ألا ننسى أن الطفل «منذ الثانية حتى الخامسة»، هو أكثر مخلوق محب للاستطلاع على وجه الأرض، وأن أكثر الأسئلة التي يتوجه بها إلينا تتولد عن الحاجة الماسة لدماغه الذي لا يمل من السعي لإدراك العالم المحيط بأسرع ما يمكن».

لكن، إذا كانت المشاعر الذهنية لا تتشكل إلا في المرحلة التي تسبق دخول الطفل إلى المدرسة، فإن المشاعر الأخلاقية تكون في هذا الوقت قد قطعت شوطاً معيناً من «النضوج». وقد تحدثنا سابقاً إنه مع بلوغ الطفل عامه السادس يتجلى عنده على قدر كاف من الوضوح شعور الشفقة، وأن الطفل يتأثر بهذا الشعور وينطلق عبره في التعامل مع الناس الآخرين. ويتجسد لديه في هذه المرحلة شعور الخجل، وتأخذ العناصر الأولى المكونة للضمير بالتشكل على هيئة معاناة حادة وشعور بالذنب، ويتحول شعور الارتياح للزميل إلى شعور

ثابت من المحبة والتعلق، ويصبح فراق الأم والأب بالنسبة للطفل شيئاً مؤلماً وصعباً لأنه يأخذ بالشعور بالحنين والشوق، وإذا حرم من معاشرة أترابه يمكن أن ينتابه الأسى والشعور بالغيرة في علاقته المتبادلة مع الأصدقاء، أي إن لوحة مشاعره تصبح أكثر سطوعاً وتعداداً في الألوان. لتتابعوا طفلتكم وهي تلعب مع الأطفال، فتروا كيف تنزعج عندما تتدحرج الكرة التي يلعبون بها وتختفي وراء المقعد، وكيف تشعر بالأسى، عندما لا يرضى سيرغي البقاء إلى جانبها واللعب معها، وكيف تعاني عندما تطيل مارينا اللعب مع دميتها المحبذة. ولتتذكروا كيف انتاب طفلتكم القلق وخشيت ألا يأتي أترابها لحضور حفلة عيد ميلادها، وكم بكت عندما سقطت عينا دميتها وضاعت في مكان ما، وكيف ضمت بسرور ذلك الأرنب الأزغب، الذي حلمت كثيراً بالحصول عليه، والذي اشتريتموه لها أخيراً، وكيف بكت بمرارة عندما فقدت تلك الكرة الحمراء التي أهداها لها زميلها ساشا. كل ذلك يشهد بأن الطفل يستوعب تدريجياً جميع تلك الحالات الانفعالية التي تميز الإنسان. لدى معاشرة الطفل لأترابه وأقاربه ومعارفه والناس الذين لا يعرفهم تنتابه مشاعر مختلفة: الفرح والأسى والغضب والخوف والحزن والمعاناة والشفقة والخجل... إلخ. ويكون بعض هذه المشاعر عابراً وطارئاً، أما البعض الآخر فيترك أثراً عميقاً في نفسيته، والقسم الثالث يظل راسخاً في نفسه وتظهر تأثيراته فيما بعد. إن ذلك يحدث بشكل خاص مع شعور الخوف. تحوي المؤلفات التربوية وصفاً واسعاً لحقائق تجلي مشاعر الخوف عند الأطفال، كما تضم المؤلفات الطبية شرحاً عن عصبية الأطفال التي تأتي كنتيجة لمشاعر الخوف عندهم. إن أولى مظاهر هذا الشعور (أو لا يمكن تسميته شعوراً بعد) تتجلى عند الطفل الرضيع؛ إذ يمكن أن يصاب بالخوف لدى سماعه أصواتاً مدوية وحادة، أو عند انتقاله إلى حالة جديدة غير عادية بالنسبة إليه، أو عند الظهور المفاجئ للشيء الذي أصبح معروفاً لديه. ومع نمو الطفل لا يزول الشعور بالخوف وإنما يتخذ أشكالاً أخرى ويظهر عند مؤثرات مغايرة. فالشيء الذي كان يخيف ابنتنا في صغرها إلى درجة كبيرة، يصبح فيما بعد أثراً عادياً: «كم كانت ابنتنا إيرينا تخاف المكنسة

الكهربائية فيما مضى، فقد كانت تزعق عندما تسمع صوتها الحاد، وتهرب إلى غرفة أخرى لتختبئ هناك في خزانة الملابس، أما الآن فهي تقوم بتشغيل هذه المكنسة بنفسها وتطلب السماح لها بتنظيف البيت بواسطتها». «وكم كانت تخاف ذلك البساط الذي علقناه على الحائط بالقرب من سريرها!. أما الآن فينتابنا الضحك جميعاً لدى تذكر ذلك. إلا أنها اليوم أصبحت تخاف شيئاً آخر، فهي تخاف رؤية الطبيب، ومهما حاولنا إقناعها، وبذلنا من الجهد لنبين لها أن أولغا بيتروفنا، طبيبة حيّنا، هي إنسانة طيبة وتبغي مساعدة الأطفال دائماً، وتداويهم من الأمراض، إلا أننا لا نفلح في عمل أي شيء؛ فهي تصاب بالرجفة ويمتقع لونها عند رؤية أولغا بيتروفنا». نعم، فإن هناك الكثير من أشكال الخوف يمكن أن «تزول» عندما يصبح الأطفال في سن أكبر. لكن هناك أشكالاً أخرى تبقى عند الطفل إلى أمد طويل. ومن أجل إثبات هذه الفكرة سنورد أحاديث لأشخاص بالغين تأثروا في طفولتهم بأشكال مختلفة من الخوف: «كنت في طفولتي أعاني شديد الخوف والرهبة من العتمة والظلام، ولا سيما عندما أكون خارج البيت. وقد كنا نعيش بالقرب من الغابة، لذا فعندما كنت أبقى وحيدة في البيت، والظلام والأشجار تحيط بكل ما حولي، كنت أشعر بمنتهى الجزع والهول، وكان يكفي أن أسمع صوتاً حاداً ما لأشعر بالقشعريرة تنتاب جسدي كله، والعرق البارد يتصبب مني. وما زلت حتى الآن لا أستطيع أبداً الخروج من البيت في الظلام».

«ولدت في منطقة تغطيها الغابات، ولذا فقد تعودت منذ صغري على العيش في الغابة. وأثناء تجوالي إحدى المرات بين الأشجار صادفت بقعة كبيرة من الأرض مليئة بالفطر الأبيض. فجلست على ركبتي وأخذت في جمع هذا الفطر الجميل زاحفاً من زاوية لأخرى. وكنت أزيح أوراق الشجر المتساقطة بيدي اليسرى لأكشف عن الفطر وفجأة ظهرت بجانبي أفعى مرعبة وزحفت مبتعدة. لم أستطع النوم أسبوعاً كاملاً بعد هذه المفاجأة، فقد كنت أرى مختلف الأحلام المرعبة عندما تغط عيناي في النوم. وامتنعت طويلاً عن الخروج إلى الغابة، وبعد أن تشجعت على الخروج والتجول هناك كنت أجفل لسماع أقل حفيف أو خشخشة للأوراق. وما زلت

أخاف الغابة حتى الآن، وأفزع لرؤية أي مخلوق زاحف، وتنتابني الرجفة حتى لدى رؤية السحلية».

عبر الاطلاع على هذه الذكريات لأشخاص أصبحوا بالغين يمكن أن نتفهم أطفالنا الصغار بشكل أفضل، ونستخلص من ذلك لأنفسنا بعض الدروس والعبر. فقبل كل شيء يجب التأكيد أن الخوف ليس مجرد شعور عابر عديم الأثر في نفس الطفل، لذلك فعند رؤية الطفل الصغير مجهشاً في البكاء ويقاوم بشدة وتنتابه سورة من الانفعال يجب التوقف والتفكير إن كان لا بد من أخذه في هذه اللحظة قسراً إلى عيادة الطبيب لتلقيحه، أو إذا كان من الضروري تقريعه والصراخ طويلاً في وجهه أو ضربه لاقترافه ذنب ما، وهل يجوز أن نبقي الطفل في جو دائم من الخوف والفزع؟ من المؤكد أن المعاناة من الخوف والفزع، ولا سيما الخوف من العقوبة الصارمة. «يزحف في قنوات خفية وينتشر كالورم الخبيث ليقيد إرادة الطفل ومبادرته بالأغلال، ويحد من حريته، ويقتل فيه شعور الثقة بالنفس والاعتماد على الذات». ويمكن لشعور الخوف الشديد أن يتعزز إلى الأبد في نفسية الطفل، كما يمكن لنوبات الفزع الحادة أن تنتاب الإنسان في الحالات الحقيقية، وكذلك عند تخيله لمواقف مفزعة. بالطبع، إن المواقف التي يمكنها إثارة الفزع في نفس الطفل هي كثيرة، بحيث لا يمكن للأهل تفادي حدوثها: كأن يهجم مثلاً الكلب فجأة على الطفل، أو أن يصادف الطفل ثعباناً، أو يرتعب لدى سماعه أصوات الرعب المدوية أو عند بقائه وحيداً في غرفة مظلمة، ولكن إلى جانب ذلك هناك حالات يتعلق حدوثها أو عدم حدوثها بإرادتنا. فلا ينبغي أبداً أن نسارع إلى معاقبة الطفل أو ضربه عند كل هفوة يرتكبها، ولا يجدر أن نباشر بقصاصه فوراً عند كل علامة سيئة يحصل عليها في دراسته، بل من الأفضل التروي ومحاولة الوقوف على الأسباب التي أدت إلى تدني مستوى دراسته. كما يتوجب التفكير ملياً بمسألة ترك الطفل الصغير في البيت وحيداً، وهل يمكن أن نفعل ذلك دون تعريضه لشعور الفزع، ولا سيما إذا كان الفصل شتاء والظلام يحل في وقت مبكر، ولا ينبغي أبداً إخافة الطفل بتهديده بحقنة أو دعوة الطبيب أو الشرطي، فمن المستبعد أن يعطي الطفل مع مثل هذا الأسلوب نتائج

إيجابية، وفي الحقيقة فإن الكثير من حالات الخوف نسببها نحن بأنفسنا. وذلك إما لأننا نجهل أن مثل تلك الحالات يمكنها إثارة الفزع في نفس الطفل، أو بسبب نظرتنا اللا مبالية للتعامل مع الطفل، فلتفكروا ملياً، ألا تحوي تصرفاتكم تجاه طفلكم ما يثير الفزع في نفسه، إذ توجد معطيات كثيرة تشير إلى أن أسباب الانحرافات النفسية الكثيرة عند الطفل، كالتوتر العصبي واللعثمة في النطق، والقلق النفسي والاضطراب، بالإضافة إلى بعض الصفات الخلقية السلبية كالجبن والتهيب وعدم الثقة بالنفس، ترجع إلى تلك المعاناة الحادة من الفزع والوقوع بسور التأثير الشديد، التي يتعرض لها الطفل أثناء معاشرته للآخرين أو عبر تعرفه على الواقع المحيط.

غالباً ما يلجأ الأهل إلى الطبيب النفسي ليشكوا من أن الطفل أصبح يتلعثم في كلامه، أو أصيب باضطراب عصبي بعد أن قفز عليه فجأة من وراء سور البيت كلب هائج وأخذ ينبح في وجهه، أما الطفل الآخر فقد أخذ يفيق من نومه في الليل مراراً ويصرخ وينادي أمه لتحميه بعد أن طارده قبل أيام تيس مخيف. أما الثالث فقد أصبح مضطرباً ومتوتراً بعد أن لبس أخوه الأكبر معطفه المصنوع من الفراء وظهر أمامه بهيئة تمثل صورة الدب المروع. لقد كان سائداً لفترة طويلة أن أسباب نشوء العصاب عند الأطفال تعود إلى تأثرهم في حالات استثنائية من الفزع الشديد، ولا سيما أولئك الأطفال شديدو التأثر والحساسية وضعيفو الأعصاب، إلا أنه، وعلى الرغم من أن العصاب يتولد لدى الطفل إثر إصابته بصدمة نفسية حادة أو تأثره بفزع شديد، فإن أسباب ظهور الاختلال العصبي هي أكثر تعقيداً وترتبط بمجمل جوانب العملية التربوية، ومن المفيد أن نتوقف بتفصيل أكثر عند هذه الأسباب، لأنه كما بات واضحاً، فالكثير منها يعود إلى أخطاء ترتكب في التربية. إن الوقائع التي تثير الفزع في نفس الطفل هي كثيرة ومتنوعة، لكن المثير أن الحادثة الواحدة لا تثير بالضرورة عند كل طفل نفس المقدار من الشعور بالفزع، وبالإضافة إلى ذلك فإن الشيء المخيف لا يكون غالباً الحادثة بحد ذاتها، وإنما تلك الصورة المخيفة التي يكونها الأهل في ذهن طفلهم عنها، وهذا ما يؤكد أنه يتوجب على الأهل المحافظة على هدوء تصرفاتهم، ولا سيما في تلك الحالات التي يمكنها

بالفعل إثارة الفزع في نفس الطفل. إن الأطفال أشجع منا نحن الكبار؛ فهم لا يخشون السقوط من حافة الشرفة، ويتزحلقون على سوار الدرج المنحدر دون أدنى خشية من السقوط، ويندفعون إلى علو شاهق أثناء ركوبهم الأرجوحة. فالأطفال لا يشعرون بالخوف لأنهم ببساطة لا يدركون معنى الخطر، فهم لا يستطيعون تقدير المسافات ولا يمكنهم تخيل الألم، ولا يفهمون أنه يمكنهم السقوط. ويمكن للطفل الوقوف بهدوء إلى جانب النار المشتعلة، لكنه يكفي أن يجرب ألم الحرق مرة واحدة، حتى يأخذ بالخوف من كل ما هو ساخن. بالطبع، ينبغي علينا تحذير أطفالنا من مثل هذه المخاطر: «لا تقترب من الموقد»، «لا تلمس أعواد الثقاب»، «ابتعد عن حافة الشرفة لكي لا تسقط»، «لا تشاكس الكلب، وإلا يمكن أن يعضك» ونقول كل ذلك للطفل بلهجة هادئة ونفسر له هذه الحقائق بود ووضوح. لكنه يكفي أن يظهر بعض الفزع وأن نبدي الشعور بالتوجس والقلق، حتى ينتقل هذا الشعور مباشرة إلى نفس الطفل ويوقعه في حالة من التأثر الشديد بالفزع. فهذه طفلة التصقت بأمها من شدة الخوف الذي أصابها لدى رؤيتها لرجل ذي لحية كثة طويلة. «ما بك يا عزيزتي، فلا شيء يدعو للخوف، وكل ما في الأمر أنه يمكن نمو شعر طويل في وجه الرجل» وبعد ذلك تفتح الأم الباب بعد سماعها رنين الجرس، ولدى رؤيتها ليد ابنها المدماة، ترتد مرتعبة وتبادره السؤال وهي تغالب دموعها: «يا إلهي، من فعل بك هذا، أين حصل لك ذلك، ما بك؟ يا إلهي ماذا سيحصل»، ثم تركض في البيت دون أن تدري لذلك سبباً، بدلاً من تفحص يد ولدها بهدوء.

من أجل الحفاظ على الأطفال من التعرض للصدمات العصبية ينصح الأطباء الأهل بالتصرف بهدوء في مختلف الحوادث الطارئة التي قد تثير الفزع لدى أطفالهم، وتعمد إلى إقناعهم بعدم وجود أي شيء مخيف فيها، والسعي ما أمكن لتحقيق رجاء الطفل العقلاني الذي يعبر عنه بصورة هادئة، وفي الوقت نفسه يجب الانتباه لكي لا يحقق الطفل من وراء التصرفات العصبية أي «فوائد».

تحوي المؤلفات الطبية وصفاً لما يسمى بالخوف القسري: بيتا يصاب بخوف يستعصي عن التفسير لدى رؤيته للسور الخشبي، وتانيا تفزع من رؤية الرجال

الملتحين، ولينا تصاب بخوف قسري أمام ذكور الماعز، وكولا الذي تعرض لحادث سير أصبح يخاف المشي والوقوف. وإذا كان الطفل في هذه المواقف لا يعاني من مشاعر حادة تنم عن تعرضه لسورات الانفعال الشديد (كالارتجاف والشحوب وتوسع الحدقات وبرودة الأطراف... إلخ) فقد يتجنب الخوف، فلا يوجد في ذلك أي شيء يدل على الاضطراب العصبي. أما إذا كان الفزع قسرياً حقاً ولا يستطيع الطفل التخلص منه، وإذا كانت الرجفة تنتابه في كل مرة يصطدم فيها بالأشياء التي تثير فيه الفزع، فينبغي عندئذٍ مراجعة الطبيب النفسي، إن هذا ضروري أيضاً لأن الطفل يستعد في هذه الفترة لدخول المدرسة.

مشاعر الثقة و النجاح و الفشل
و أثرها في النشاط الدراسي للطفل

مع دخول الطفل إلى المدرسة تنتهي تلك الفترة السهلة من حياته، الخالية من الهموم والمليئة باللعب والتسلية، وتبرز أمامه مشكلات عديدة؛ فعليه أن يحفظ دروسه، وأن ينجح بشكل لازم في كل الأعمال دون تأخير. وفي المدرسة ينبغي الإصغاء والحفظ والتفكير بأشياء كثيرة، وحل مسائل ما إن وجدت. بالإضافة إلى ذلك الدروس الإضافية في الموسيقا أو حلقة تعلم اللغة الإنكليزية، فلن يتبقى أي وقت للعب أو لتذكر تلك الألعاب التي كان يقوم بها، ونغدو نحن الأهل في وضع ليس أقل صعوبة، فقد انتهت بالنسبة لنا تلك السهولة النسبية في العيش التي كانت توفرها لنا روضة الأطفال. أما الآن فغدا من الضروري التفكير بفطور الطفل المشبع، أو بالشطيرة الواجب تحضيرها له إلى المدرسة، وبالغداء الذي يجب أن يجهز دون تأخير بالإضافة للعشاء، أما تلك المخاوف الدائمة: «ألم يسيء أحد ما إلى طفلتنا الصغيرة في المدرسة؟ وهل استطاعت فعل كل الأشياء المطلوبة منها؟ في المساء لا بد من التحقق من كل شيء» هذه الأفكار لا تفارق مخيلتنا طوال النهار، وبعد أن نغادر عملنا نهرع مباشرة إلى المدرسة. يجب الإسراع في اقتياد الطفل إلى البيت لأننا ندرك جيداً أنه يصعب عليه كثيراً قضاء النهار بأكمله في صخب الصف الأول الذي يضم أربعين طالباً، وهو في حذائه الثقيل ولا سيما بعد أن تعود الطفل على نمط المعيشة المريح في روضة الأطفال، الذي يحتم عليه النوم بعض الوقت في النهار، ويتضمن النزهات الشيقة والألعاب الممتعة. وبسبب ذلك كله فنحن نسارع في الذهاب إلى المدرسة، إلى تلميذنا الصغير «تلميذ الصف الأول»، وفي البيت نجلس وراء الطاولة لنتحقق من أن كل ما كتبه في دفتره مدون بشكل واضح وجميل ونظيف، وأن الدروس مكتوبة بصورة صحيحة، ونكمل معه بعض الواجبات، ونعيد كتابة أشياء أخرى، ونعلمه غيرها... إلخ.

إذاً كيف تسير أحوال الطفل؟ وما هو الشيء الذي يتغير فيه مع بداية حياته الدراسية؟ وكيف تنعكس هذه الصعوبات على حالته العامة؟ الحقيقة، فإنها تنعكس بشكل عام بصورة أسهل مما يبدو لنا، لأن نفسيته تكون مهيأة لحل تلك المشكلات التي تظهر في هذه المرحلة من العمر. وهكذا فإن إحدى أهم البنى النفسية الجديدة التي تتشكل لدى الطفل في هذه المرحلة هو تكون ما يسمى بالنشاط النفسي الاختياري، فما هي هذه البنية الجديدة؟ من أجل تفسير هذه الظاهرة نعود إلى فترة الطفولة المبكرة وفترة ما قبل دخول المدرسة. ففي الفترة الأولى من تطور الطفل تكون نفسيته (الانتباه، الاستيعاب، الذاكرة، التفكير) تابعة لتلك الانطباعات والوقائع الطارئة التي يتعرض لها، لقد كان الطفل في حديقة الحيوان وأدهشه بشكل لا يوصف سبع البحر الذي خرج من الماء في اللحظة نفسها التي اقترب فيها الطفل من مأواه. وقد سجل الطفل في ذاكرته أدق تفاصيل الشكل الخارجي لهذا الحيوان، على الرغم من أنه لم يضع في حسابه أبداً أي نية لذلك، أو عندما تقرؤون لطفلكم حكاية العنزة وأولادها السبعة، فإنكم لا ترغمونه أبداً على تركيز انتباهه، ولا ترجونه ليجلس بهدوء وسكينة، فهو دون أي شيء من هذا القبيل مليء بالاهتمام. وأكثر من ذلك فهو يطلب منكم بنفسه إعادة قراءة هذه الحكاية مرات ومرات، وعلى الرغم من علمه بأنهم سينقذون صغار الماعز السبعة، فإنه يعاني في كل مرة من أجلهم، ويكون جاهزاً لمساعدتهم بنفسه أيضاً، وطرد ذلك الذئب اللعين أو على الأقل تحذير هؤلاء الصغار الحمقى من فتح الباب للذئب الماكر، أما عندما تطلبون من طفلكم إعادة قص هذه الحكاية فسوف يرويها بجميع حذافيرها كلمة كلمة وبلهجتكم نفسها وتعليقاتكم. إن الطفل لا يرغم نفسه على حفظ شيء ما أو دراسته أو تفحصه أو مراقبته. فالنشاط النفسي للطفل يتبع مبدأ الاصطفاء الإداري: الأمر ممتع، لذا يسجل في الذاكرة. والشيء جدير بالاهتمام وملفت للنظر، لذلك يجب تفحصه بانتباه أكبر. إن الأشياء الجديدة وغير الاعتيادية والممتعة تقوم جميعاً في المراحل المبكرة من عمر الطفل بتحفيز نشاطه التأملي وذاكرته ومداركه وتفكيره. ومع انهماك الطفل في النشاط المعروف الدراسي، وبمقدار ما يواجه من مسائل وصعوبات، تظهر لديه تدريجياً الرغبة في التعلم والحفظ والتمعن بعمق، ويأخذ بإجبار نفسه على الانتباه، يكرس قواه لإدراك الأشياء المعقدة وحل المسائل التي يتلقاها، أي تظهر أولى بوادر التصرفات الإرادية في نشاطه

النفسي: وضع أهداف محددة، الحفظ، تركيز الانتباه، التعلم، حل المسائل المختلفة، وغالباً ما يتحد التوجه الإرادي مع شعور ضرورة بذل الجهد.

إلا أن التلميذ الجيد يواجه مشكلة استظهار الدروس وحفظها وحل المسائل بصورة إجبارية، فعلى الرغم من أنه لا يرغب بعمل شيء ما، لكنه مجبر على ذلك. وهنا يبدأ شعور إجبار الذات على فعل الأمر المطلوب بالتشكل. يجب تجاوز عدم الرغبة، لأنه ينبغي تحضير هذه الدروس أو تلك. وتعتبر هذه الصفة أهم تطور جديد في نفسية الطفل يدل على بداية تشكل السمات الإنسانية البحتة في نشاطه النفسي، فالإنسان وحده يستطيع أن يضع أمام نفسه أهدافاً محددة، ويتغلب على عدم الرغبة الداخلية في عمل شيء ما، ويقتل في نفسه بعض النزاعات التي تتعارض مع أهدافه الرئيسة. والإنسان وحده يتميز بالفهم الواعي لضرورة تنفيذ هذه المهمات أو تلك، وهو وحده قادر بإرادته الصلبة على قهر ذاته وتجاوز رغباته وعمل شيء ما في سبيل «الواجب» ولهذا السبب يتوجب على الأهل الاهتمام بتفهم هذه المتغيرات الجديدة المتشكلة في نفسية الطفل.

فإذا استطاع الطفل التعود على تجاوز رغباته مبكراً، وإذا كان شعور الواجب نامياً لديه، وإذا أصبح شعور إرغام الذات مساعداً له بالانتصار على نفسه وعلى تقاعسه، عندئذٍ يصبح اجتياز العقبات الداخلية المختلفة بالنسبة له أمراً اعتيادياً وبسيطاً، ويصبح من السهل عليه إدراك حقيقة أن الحياة تحوي الكثير من الأمور البعيدة عن المتعة والتشويق، والتي لا بد من القيام فيها وهنا يجب الأخذ بالحسبان ضرورة تجنب الوقوع في المخاطر التالية، حيث يمكن للأهل أن يكونوا شديدي الصرامة مع طفلهم التلميذ. فقد يصبح الطفل عاجزاً عن الاستمرار في الجلوس وكتابة الرموز المعقدة وحفظها، فهو متعب من تكرار قراءة النص نفسه مرات ومرات، لذا يريد الانعتاق من هذا العمل المتعب، لكن الأم أو الأب، اللذين يتوقان لرؤية ابنهما متفوقاً في المدرسة ثم طالباً جامعياً كبيراً، يرغمانه على الجلوس معهما لمتابعة الدراسة على الرغم من أنه يفرك عينيه من شدة التعب ويتململ من تأثير الصداع، وهنا يمكن للشعور بالواجب وإرغام الذات على عمل الشيء الضروري أن يتحول إلى حالة من الانفعال الشديد تتصب في كره الطفل للدراسة والنفور منها. وهنا يتحول شعور الواجب من صديق حميم إلى عدو مقيت، لذا لا يجوز إرغام الذات على الدوام والوقوف ضد جميع رغباتها.. ولا ينبغي

وضع النفس في حالة دائمة من التوتر والتأهب لتنفيذ ما يلزم، إذ يمكن لهذه العوامل أن توصل الإنسان إلى الحالة التي تسمى بالإشباع الفكري، ولهذا السبب ينبغي العمل على مزج النشاط المدرسي للطفل بالألعاب المشوقة، وجعل العملية التدريسية بالكامل ولا سيما في الصفوف الابتدائية الأولى شبيهة باللعبة المشوقة، بالإضافة إلى ذلك فالتلميذ الصغير من الناحية الجسدية غير مهيأ لتحمل الأعباء الجسدية الثقيلة. إذ لم تنته لديه عملية تصلب عظام رسغ اليد والسلامى، ولذا فهو يتعب بسرعة، وعندما لا نأخذ هذه الحقيقة في الحساب نقوم بإرغام الطفل (من أجل الحصول على علامة جيدة) على إعادة كتابة واجبه البيتي عدة مرات مضاعفين بذلك الأعباء الكثيرة التي تقع على عاتقه، التي تعتبر دون ذلك كثيرة بالنسبة للتلميذ المبتدئ. ونكرر مرة أخرى، أن إثقال الطفل بالدروس يثير لديه شعور النفور من الدراسة، وهذا يمنع تشكل الرغبة والاهتمام عنده بالتعلم، ويحد من تطور الباعث الرئيس لرغبته في الدراسة وحب المعرفة والاطلاع، لذلك إذا لم تتم حاجة الطفل في صفوف الدراسة الأولى للمعرفة والاطلاع، فإن ذلك يمكن أن يقود فيما بعد إلى ظهور عدم الرغبة في متابعة التعليم. وإذا كان باستطاعتنا في البدء إرغام الطفل عن طريق هيبتنا وسلطتنا على القيام بواجباته المدرسية، فإن ذلك القسر يصبح فيما بعد عديم الفائدة. من هنا تظهر أهمية الانتباه إلى عدم الوقوع في مغبة «قتل» شعور حب الاطلاع والمعرفة الذي ينشأ في نفس الطفل بشكل طبيعي، كما يجب توجيه هذا الشعور في منحنى يجعله فيما بعد ضرورة حياتية لا يمكن التخلي عنها، فمن أجل الحفاظ على هذه الرغبة الطبيعية الشديدة في المعرفة وجعلها عملية إرادية منظمة، يجب توجيهها باقتدار في الجهة الصحيحة: جهة البحث الدائم عن الحقيقة.

وينبغي في المرحلة الأولى من حياة الطفل الدراسية تكريس شعور مهم آخر لديه مرتبط بنشاطه الذهني الآخذ بالتشكل، وهو الشعور بالنجاح. إن هذا الشعور يولد لدى الطفل في مرحلة مبكرة جداً. فهو يفرح كثيراً عندما نثني عليه، ويشعر ببالغ الأسى إذا وجهنا إليه اللوم أو التأنيب على أخطاء ارتكبها. إن شعور الفرح يقوي الرغبة في القيام بالأعمال المختلفة بشكل أفضل وأدق، أما التكدر فإما أن يطفئ الرغبة والاندفاع، أو على العكس، أو يولد موجة من الطاقات للسعي لتصحيح الأخطاء وتجاوز الهفوات والحصول على نتائج أفضل، بيد أن المشاعر الإيجابية بشكل عام تعتبر دوافع أقوى لتحفيز

النشاط النفسي بالمقارنة مع الدوافع ذات المسحة السلبية، فشعور النجاح يتميز بمردود أفضل بالمقارنة مع الدوافع ذات المسحة السلبية، فشعور النجاح يتميز بمردود أفضل بالمقارنة مع شعور الفشل، لذا ينبغي تنمية هذا الشعور قبل غيره من المشاعر أثناء العملية التربوية. ويتوجب علينا عند كل خطوة نخطوها الموافقة على بعض ما يفعله الطفل ورفض بعض تصرفاته الأخرى، ولذا ينبغي مكافأة الطفل في حالات معينة ومعاقبته أحياناً أخرى، فيجب أثناء تطبيق هذا المبدأ اتخاذ جانب الحذر واستقصاء العواقب الممكنة التي يمكن أن تنجم عن اتباع أسلوب العقاب والثواب. إن ما يثير بالغ الحيرة والدهشة هو أن تنقلب مساعينا التي نبذلها من أجل مصلحة الطفل إلى نتائج عكسية تماماً. إننا نرغب في أن تكون دراسة طفلنا ناجحة، وليست ناجحة فقط وإنما متفوقة ولذلك نحاول دوماً عدم ترك أي ثغرة في مواظبته على الدراسة: «لم تفلح ثانية بكتابة حرف «B»، هلم اجلس وكرر كتابته إلى أن تتعلمه بشكل صحيح»، «إنك لا تستطيع حل هذه المسألة البسيطة، يا لك من طفل غليظ الذهن»! فهذا شيء سيئ وذاك أيضاً ليس كما يجب. نجاهد دوماً في إبراز المساوئ والأخطاء التي يرتكبها طفلنا عند كل خطوة يقوم بها، وبهذا نركز الانتباه على نواقصه وعدم مقدرته على النجاح، ناسين أننا بهذا نكرس لديه الشعور بالفشل، ذلك الشعور الذي لا يعد سوى خطوة واحدة عن شعور فقدان الثقة بالنفس، بالإضافة إلى ذلك فإن مثل هذا الأسلوب التربوي في التأثير في الطفل لا يؤدي إلى توليد الانفعالات السلبية في نفسه وإعاقة تطوره النفسي فحسب، بل يعرقل عملية تكون الخبرات الدراسية المختلفة لديه، كالكتابة والقراءة وحل المسائل الذهنية، أي إنه يعرقل نشاطه الدراسي بشكل عام، في حين أن الأبحاث العلمية تشهد بأن جملة تأثيراتنا في الطفل، التي ترتكز إلى تنمية شعور النجاح لديه وتقوية هذا الشعور بالثناء والمكافأة يعطي ثماراً ونتائج باهرة «لا بأس في أنك لم تفلح في كتابة حرف «O» بشكل دائري تماماً، ففي المرة القادمة ستكتبه بالتأكيد بشكل أفضل، ولتنتبه إلى السطر جيداً كي لا تخرج الأحرف عنه، انظر الآن كيف نجحت في كتابته بشكل جميل» وهنا يبتسم الطفل مبتهجاً، فقد أثنى الأهل عليه وقدروا نجاحه تقديراً عالياً، إذاً باستطاعته النجاح في فعل أشياء كثيرة ويتوجب لذلك بذل الجهد والسعي الحثيث وسيكون كل شيء على ما يرام، وهكذا فعلينا الاهتمام بأقل إنجاز يحققه الطفل والثناء عليه لدى أدنى نجاح

يلاقيه، والتعبير عن الثقة في قدراته وإمكانية بلوغه نتائج أفضل، فذلك يزرع الثقة في نفسه ويثير فيها شعور الفخر والاعتزاز والبهجة، ويحفز فيه الرغبة في توسيع معارفه وإغناء تجربته. إن شعور النجاح المدعم بالثناء والمكافأة يعمل على تعزيز الثقة بالنفس. فكل إنسان مدعو لمعرفة ما يملك من طاقات وإمكانيات وتحديد الهدف الذي يجب أن يبلغه في حياته، وعندما يكون الإنسان واثقاً من قدراته يصبح من السهل عليه اجتياز الصعوبات التي تعترض سبيله مهما كبرت، ولا يشعر بالخوف مهما كانت الحالة التي تواجهه خطيرة، ولن يسير وراء الآخرين مسلوب الإرادة لأنه واثق بنفسه، ويمكننا تربية مثل هذه الشخصية القوية المستقلة إذا حفزنا في الطفل مشاعر النجاح والثقة بالنفس.

وهنا لا ينبغي التخوف من الإصابة بالغرور أو الزهو بالنفس والاعتداد بالذات، بالطبع إذا كان شعور الزهو والاعتداد بالنفس غير مستند إلى أسس وإنجازات حقيقية، وإذا اكتفى الطفل بالنجاحات المحددة التي حققها، ولم يسع لتحقيق المزيد، فإن مثل هذا الاعتداد بالنفس لن يقدم للطفل سوى الضرر، أما عندما يكون مهتماً بكل شيء، يخصص الكثير من الوقت لدراسة الرياضيات، ويقرأ الكثير، ويشارك في حلقة الهواة بعلم الحيوان، يرجو والديه شراء هذه الكتب أو تلك كي يستطيع الاطلاع على ما يثير اهتمامه بشكل أعمق، ولا يتباهى بمعارفه أمام أترابه، بل يسعى لتعميقها وإغنائها بالشيء الجيد، فإن اعتداده بنفسه في هذه الحالة يصبح مقتصراً على شعوره بالمتعة والسرور مع أولئك الأصدقاء الذين يشاركونه أسلوب التفكير، والذين توصلوا إلى درجة الوعي والتطور نفسها. ومن البديهي أنه سوف يظهر شعور اللا مبالاة نحو أولئك الذين يقلون عنه معرفة واطلاعاً. لذا دعونا لا نخش شعور النجاح وحتى الاعتداد بالنفس، لأن هذه المشاعر تساعد على تطور شعور النجاح وحتى الاعتداد بالنفس، لأن هذه المشاعر تساعد على تطور نشاط الطفل ومبادرته واستقلاليته، هذه الصفات التي تعتبر المحور الرئيس لشخصيته، فبمقدار ما يتطور الطفل ويكبر تتحول الانفعالات المباشرة لديه بشكل تدريجي إلى مشاعر ثابتة، لتصبح فيما بعد بواعث في سلوكه العام، لذلك فإن شعور النجاح والثقة بالنفس شيء لا بد منه لتطوير النشاط الذهني والإبداعي عند الطفل، وبهذا المقدار يجب أن تنمى في الطفل تلك المشاعر الإنسانية التي تحفز وتنظم حياته الأخلاقية، ويشمل الفصل التالي لهذا الكتاب شرحاً وتفسيراً لهذه المشاعر.

الانفعال كدافع للتصرف
الخجل و الذنب و الضمير

يمكن للمشاعر أن تتحكم أحياناً بسلوك المرء، وقد تحدثنا فيما سبق عن تلك العلاقة المتبادلة المعقدة القائمة بين الشعور والانفعال. وإذا كان الانفعال هو معاناة مباشرة، فإن الشعور يتكون تدريجياً تحت تأثير الظروف التي يتربى الإنسان ضمنها، ومع تكرس الشعور بتأثير التشجيع الذي يلقاه الإنسان من قبل الآخرين، فإنه يتحول إلى ميزة ترتبط بالشخصية ارتباطاً عضوياً. بهذا الشكل بالذات تنشأ المشاعر الأخلاقية والجمالية الذهنية. فالشعور الخلقي المتوطد في النفس يتحول إلى باعث موجه لسلوك الإنسان، وهنا فقط يصبح بإمكاننا التحدث عن السلوك الأخلاقي الحقيقي للشخصية: كالشفقة، والمشاركة في المعاناة، والعطف والخجل، والضمير وشعور الشرف والكبرياء. فالإنسان لا يقوم بمساعدة الآخرين وفعل الخير من منطلق النفع والفائدة، وإنما بدافع من ضميره وتربيته، التي تملي عليه أن يعامل الآخرين معاملة حسنة، إن منطلق الإنسان في التعامل مع الآخرين يجب أن يكون قبل كل شيء شعوره بالاحترام الكامل لهم.

فالشخصية الأخلاقية الحقة هي تلك التي لا يمكن أن تتصرف مع الآخرين بصورة لا أخلاقية تحت أي ظرف من الظروف. فالإنسان يقع أحياناً في حالات، يتطلب الموقف أو مصالح الآخرين فيها التصرف بشكل مغاير لما يمليه عليه الضمير، وفي كثير من الأحيان يقع الإنسان تحت تأثير «الضغط» من جانب الآخرين فكيف ينبغي التصرف هنا؟ أيتوجب الاستسلام للأمر الواقع؟ وهل يجوز الخضوع لرغبات الآخرين؟ في هذه الحالات الأخلاقية، إن الفكرة القائلة إن تربية الطفل في الأسرة تشمل بالدرجة الأولى تكوين المشاعر الأخلاقية الراسخة لديه، وتحويل الانفعالات من معاناة استعراضية إلى مشاعر أخلاقية حقيقية تتحكم بالسلوك

العملي ليست فكرة جديدة. ومع ذلك نؤكد مرة أخرى بأن القدوة والمثال الذي يقدمه الآخرون، هو الشرط الأهم في تكوين المشاعر الأخلاقية. لقد أكد إ. م. سيتشنيكوف دور القدوة المهم في التربية بقوله: «ينبغي على المجتمع الاهتمام بتوعية عقول أفراده وعليه أن يعلمهم فعل الخير وقول الحقيقة وحب العمل، وأن يقوم بذلك عن طريق تقديم المثال الصالح والقدوة الحسنة، لأن المشاعر الأخلاقية تتطلب كي تترسخ لدى الإنسان المثل الصالح، ومن العوامل البالغة الأهمية التي تساهم في تشكيل النواحي الأخلاقية لشخصية المرء يأتي الخجل والشعور بالذنب والضمير. وغالباً ما تصبح هذه المشاعر أدوات تتحكم بسلوك الإنسان؛ فعبر تصور الإنسان السابق لتأنيب الضمير يحاول تجنب تلك التصرفات التي يمكن أن تسبب له هذه المعاناة المؤلمة، كتب كارل ماركس: «الخجل: هو شيء شبيه بالغضب، لكنه غضب معكوس نحو الداخل». أما ل. ن. تولستوي فقد كتب: «ليس هناك أصدق من الشيء الذي يخجل الإنسان وذلك الذي لا يخجل الإنسان في تحديد درجة الكمال الأخلاقي التي يقف عليها».

يشعر الإنسان بالخجل في الحالات التي يقترف فيها عملاً لا أخلاقياً، لأنه يعلم أنه سوف يدان من قبل الناس الآخرين، ويكون هذا الشعور أحياناً قوياً وحاداً لدرجة أن الإنسان يرغب في الاختفاء عن الأنظار «بأن تنشق الأرض وتبتلعه» وتظهر لديه الرغبة في الهروب والاختباء في مكان قصي.

إن هذا الشعور كغيره من المشاعر الأخلاقية خاص بالإنسان وحده على الرغم من أن العوامل المثيرة لهذا الشعور قد تختلف من إنسان لآخر، ومن شعب لآخر، وتكون متباينة بصورة كبيرة أو حتى متعاكسة تماماً. فالشيء الذي يعد عند بعض الناس أمراً معيباً يكون في نظر الآخرين أمراً طبيعياً، والتصرف الذي يتجنب البعض فعله لأنه شيء مشين يقدم غيرهم على فعله براحة ضمير تامة. إن التصور المتعلق بمفهوم الخجل يرتبط بالدرجة الأولى بالموقف الأخلاقي للإنسان وبالمبادئ والمقاييس الأخلاقية التي تجري عملية التربية ضمنها. وشعور الخجل هو ذلك التقدير السلبي الذي يعطيه الإنسان لتلك التصرفات التي تتناقض مع المقاييس الأخلاقية، أي إنه يقوم بالتحذير السابق من عواقب التصرفات الخاطئة.

إن شعور الخجل موجود عند جميع البشر. وقد قام تشارلز داروين بدراسة هذا الشعور ومظاهره عند مختلف شعوب الأرض وتوصل إلى استنتاج حول شموليته لجميع بني البشر، على الرغم من أنه يظهر بدرجات متفاوتة من فرد إلى آخر، ويتعلق هذا قبل كل شيء بمقدار ما أولي هذا الشعور من اهتمام أثناء عملية تطور وتربية الطفل، فجميع الأطفال يولدون وهم مهيؤون بالمقدار نفسه للإحساس بشعور الخجل، أما كيفية تطور هذه المقدرة لديهم، فذلك يتعلق بالتربية التي نقوم بها نحن الآباء والأمهات.

لكن متى وفي أي مرحلة من مراحل تطور الطفل يبدأ الخجل بالتشكل لديه؟ إن المؤشرات الأولى التي توحي بشعور الخجل تظهر عند الطفل في مرحلة مبكرة جداً؛ فهو يصاب بالحرج ويسارع للاختباء وراء أمه عندما يتوجه إليه الإنسان الغريب. إلا أن ذلك بالطبع بعيد عن أن يكون شعوراً حقيقياً بالخجل، فهو أقرب ما يكون إلى الشعور بالارتباك والحياء والحرج، فالخجل يرتبط دوماً بالشعور بالذنب والاعتراف بأخطاء في المسلك وإدراك حقيقة أن التصرف الخاطئ يقوّم سلبياً من قبل الآخرين، وعلى الرغم من أن محاولة جذب الطفل إلى المعاشرة وإرغامه على «التكلم» ولفت الانتباه إليه، لا تحوي أي تصرف خاطئ من قبل الطفل، إلا أنه في ذلك يظهر تصرفاً شبيهاً في مظهره الخارجي بالخجل والخوف. إذاً قد تكون هذه المشاعر في البداية متحدة، ثم تأخذ فيما بعد بالانفصال عن بعضها البعض؛ حيث يتحول الخوف إلى مكبح خارجي لتصرفات الإنسان، ويصبح الخجل منظماً داخلياً لسلوكه. لذلك لا يجوز إطفاء تلك البوادر الأولى من الحياء والحرج لأنها تعتبر بداية تفتح اثنين من المشاعر العملاقة التي تقوم بتنظيم سلوك الطفل. فشعور الخوف ضروري أيضاً لأنه يحمي الطفل من القيام بتصرفات تناقض القواعد والمقاييس الأخلاقية.

ها هو ذا طفلنا قد أصبح يافعاً وغدا بإمكانه استيعاب قواعد السلوك، وبدأ بتمييز الشيء الحسن من الشيء السيئ، مما يحتم علينا التيقظ ومحاولة جعل هذا «السيئ» شيئاً مدركاً بالعقل ومحسوساً بالشعور أيضاً، وذلك كي يصبح الطفل قادراً على الشعور بذنبه أمام الإنسان الآخر لقيامه بفعل هذا الشيء «السيئ» ومن

أجل أن يعيش حالة الاستياء من نفسه والشعور بالخجل أنه أقدم على فعل الشيء المشين، على الرغم من معرفته السابقة بعدم الوقوع به، وهنا بالذات تظهر مشاعر الحيرة والاستياء المتولدة عن شجب الآخر بدلاً من مشاعر الحياء والارتباك البسيطة. لودا تلميذة الصف الثاني، أخذت قلم زميلها سيريوجا دون إذن منه، «لقد أخذت لودا قلمي»! - يشتكي سيريوجا لمعلمته - «إن هذا القلم هو لي»! تصرخ لودا. «كلا، فأنا أعرف أن هذا القلم هو لسيريوجا» ترد المعلمة، وهنا تحمر وجنتا الطفلة من شدة الخجل وتخفض أهدابها حياءً. إن هذا الشعور ليس ارتباكاً وإنما شعور حقيقي بالخجل. لقد أدركت لودا بجلاء أنها تصرفت بشكل سيء، وأن المعلمة تستنكر سلوكها، لذا فقد تملكها شعور الخجل.

الخجل هو شعور على درجة كبيرة من التعقيد، وهو لا يظهر عند الطفل مباشرة، إذ يتوجب على الطفل «تعلم» هذا الشعور، وهنا يمكن للمرء أن يتساءل: كيف يمكن تعلم الشعور؟ نحن نعرف أن الناس تتعلم الكتابة والقراءة والحساب وركوب الدراجة، أما المشاعر فكيف يمكن تعلمها؟ فهي تقع في الجانب الآخر وهي أمور باطنية، ومن أجل ألا نتوقف كثيراً عند الدقائق الاصطلاحية، نؤكد فقط أن تطور تلك الجوانب أو غيرها في نفسية الطفل تخضع لقوانين واحدة: قوانين التعلم. فالطفل يتعلم الكتابة، وبالمقدار نفسه يتعلم كيف ينبغي عليه أن يتعلم مع أترابه ومع الكبار والوالدين والمعلمين في المدرسة، وسيتصرف بناءً على التربية التي تلقاها من الأهل؛ أي بتحفظ وتواضع ولطف، أو بوقاحة واستهتار وقلة تهذيب. لذلك يمكن ويجب تعليم الطفل المشاعر المختلفة، كالخجل والعطف والشفقة، والكبرياء والوقار، وقبل أن يجرب الطفل شعور الخجل يجب عليه التمييز بدقة ما بين «الصالح الذي يكافئ على فعله الآخرون وبين الشيء المستنكر والمستهجن» «هذا سيء، فهو معيب»! نقول بلهجة مستنكرة موافقة لأسارير الوجه من أجل أن ينفذ الطفل بالفعل إلى جوهر شعور الخجل، وكي يدخل هذا الشعور إلى وعيه ويتكرس في نفسه، وحتى يتجنب في المرة القادمة سماع هذه اللهجة التأديبية من الأهل، ورؤية ملامح الغضب وعدم الرضا على وجوههم. والطفل في هذه الحالة لا يدرك أن تصرفه

مستهجن وحسب، بل يحس بالأسى والذنب والاضطراب، وهذا ليس بعيداً أبداً عن شعور الخجل.

ومما لا شك فيه أنه ينبغي تنمية هذا الشعور بمساعدة أبسط الحقائق التي يستطيع الطفل تفهمها، والتي ترتبط بالدرجة الأولى بوجوب المحافظة على النظافة والقواعد الصحية، لأن شعور الطفل بالخجل من منظر يديه المتسختين أو ثيابه أو شعره الأشعث ووجهه الوسخ يتحول عندما يكبر إلى سلوك أخلاقي ثابت. إلا أنه يمكن الاصطدام في الصفوف الأولى من دراسة الطفل ببعض التصرفات التي تتطلب، تدخلاً فعلاً من قبل الأهل واللجوء لاستخدام وإثارة شعور الخجل عنده.. كانت اليونا في زيارة جارها سيرغي. وعندما عادت مع أمها إلى البيت رأتها الأم تخفي شيئاً ما في غرفتها. فتعجبت الأم وانتابها القلق: «ماذا في حوزتك يا بنيتي، دعيني أرى»!. فتقوم أليونا في حالة من الاضطراب والارتباك بفتح يدها لترى الأم فيها كرة حمراء صغيرة. «من أين لك هذه الكرة»؟، تسأل الأم: «لقد أخذتها من سيريوجا. فلديه الكثير من هذه الكرات، وإن الكثير منها ملقى على الأرض»، وتأخذ الفتاة بتبرير فعلتها بحرارة، لأنها تدرك جيداً معنى ما فعلت. «ماذا؟ هل تعجبك هذه الكرة كثيراً»؟، «إذاً لماذا لم تخبريني بذلك؟ لكنت اشتريت لك كرة مثلها. أما الآن أتعلمين ماذا سنفعل؟ سنذهب مرة أخرى إلى سيريوجا وستعيدين هذه الكرة إلى مكانها. فإن كان عند سيريوجا الكثير منها، فلا يجوز مطلقاً أخذ أشياء الآخرين دون إذن منهم. أما غداً فسنذهب معاً إلى السوق لشراء مثل هذه الكرات». ولم تخن الأم وعدها وقامت في اليوم التالي بشراء هذه الكرات.

ومع ترعرع الطفل نأخذ باستخدام أساليب أعمق لإثارة شعور الخجل في نفسه. فإذا كنا في المراحل المبكرة من حياة الطفل نستخدم تعابير «هذا مخجل» و«كيف يمكنك ألا تخجل من نفسك»!، فإن الطفل الذي أصبح الآن في المدرسة يغدو قادراً على تفهم نظرة العتاب واللوم وملاحظة الاستهزاء، وحتى الصمت المقصود. ويصبح الطفل في هذه المرحلة قادراً على الشعور بالخجل دون تأثير الإنسان البالغ، لأنه أصبح بإمكانه إدراك عدم صحة تصرفه، وتقويم سلوكه بنفسه من وجهة نظر تلك المقاييس والمتطلبات التي يضعها أمامه الناس الآخرون، فيشعر

الطفل بالخجل إذا أحس بأن تصرفه يثير استياء واستنكار من حوله. ومما لا شك فيه أن استيعاب الطفل لمعايير السلوك الأخلاقية وقواعد التعامل مع الآخرين يساهم في تكوين شعور الخجل في نفسه، وبعد ذلك فقط يصبح بإمكانه تحديد موقفه الانفعالي من التصرف الذي يقوم به. لذا فإن المعاناة من الخجل تساهم في تربية النفس الإنسانية عندما يصبح بإمكان الطفل فهم جوهر تصرفاته وإدراك الجوانب الأخلاقية التي أخل بها. ولهذا السبب، فعندما نقوم بشجب تصرفات الطفل، التي لا يرى فيها شيئاً معيباً ولا يعلم أنها مدانة من قبل عامة الناس، فإننا لا نحصل على أي نتيجة إيجابية. ومن الخطأ الفادح من وجهة النظر التربوية تعنيف الطفل وشجب تصرفاته، التي ليس بوسعه تصحيحها دون مساعدة الآخرين. ومع ذلك فيمكن أحياناً سماع الإنسان البالغ وهو يقول: «ما هذا المعطف الذي ترتديه؟ يبدو أن أخاك الأكبر قد لبسه لمدة عشر سنوات ثم رماه إليك»! فيهرع الطفل إلى أمه باكياً ليقول: «لن أرتدي هذا المعطف أبداً، فهو يثير استهزاء الآخرين بي»!.

إن الخجل هو شعور اجتماعي عميق، ويعبر عن حساسية الطفل الزائدة تجاه رأي وتقدير من حوله. ومع تقدم الطفل في السن يأخذ هذا الشعور بالتجلي بصورة أوضح عبر تعامل الطفل مع أترابه والناس البالغين. ويعيش الأطفال الكبار هذا الشعور بصورة حادة ومميزة ولا سيما مع أترابهم، حيث تزداد لديهم أهمية رأي الجماعة وتقديرها لتصرفاتهم. فبسبب خجل الطفل من تصرفه أمام زملائه في الصف يحاول ألا يقع مرة أخرى في تصرف يدفع به لأن يعيش ذلك الشعور المرير من الخجل. وبقدر ما يكون الطفل متقدماً في العمر، بمقدار ما يصبح من السهل ظهور شعور الخجل لديه تحت تأثير الرأي العام. ويجب القول إن هذا التأثير يكون أحياناً أقوى من هيبة الوالدين. ولهذا يمكن لطفلنا أن يعاني من شعور الخجل الشديد إذا قام زملاؤه بإدانته بالنميمة مثلاً، وفي الوقت نفسه فهو لا يشعر بالحرج مطلقاً عندما يسمح لزميله بنقل حل المسألة الحسابية من دفتره، أو عندما يساعد خلسة أحد زملائه في الإجابة أثناء الدرس (قوة الرأي العام في الصف تكون إلى جانب ذلك التلميذ الذي «يساعد» زملاءه بهذا الشكل). ولهذا السبب فإننا أحياناً لا نتوصل إلى أي نتائج ذات شأن عن طريق الشجب والاستنكار لأن الرأي

«الاجتماعي العام» لتلك المجموعة من الأطفال التي تضم ابننا، يناقض تعليماتنا التي نوجهها إليه. إنكم تقنعون ولدكم وتوردون له الأدلة والبراهين بعدم جواز التعامل مع الجدة بهذه الخشونة والفظاظة التي يبديها («أيتها العجوز! صبي لي الشاي»، و«لتحضري لي الحلوى من المطبخ»، «عليك أن تنظفي لي السروال») ومع ذلك يكون تأثير كلامكم معدوماً، لأن أصدقاءه يتعاملون مع جداتهم بمثل هذا الأسلوب ويعتبرون أن الأمر طبيعي. ويحدث أن يقوم المعلم بتأنيب التلميذ على تصرفه المشاغب، ومع ذلك لا يشعر هذا التلميذ المذنب بأي حرج أو خجل من تصرفه، بل على العكس يحس كأنه قام بعمل بطولي أمام زملائه.

ويمكن للطفل الشعور بالخجل بسبب تصرفاته الذاتية، ومن تصرفات الإنسان الآخر أيضاً، فيخجل من تصرف الأخ أو الصديق أو الأخت وحتى الوالدين. فالطفل يخجل نيابة عن والده، لأن هذا الأخير غالباً ما يعود إلى البيت مخموراً، كما يخجل نيابة عن والدته التي كذبت في القول أمام جارتها.

وبإمكان الأطفال أنفسهم تأنيب أترابهم لهذا التصرف النابي أو ذاك، معبرين بذلك عن سخطهم من سلوكهم الخاطئ واستنكارهم لتصرفاتهم المشينة.

...ها هم التلاميذ يهيئون الأرض لزراعتها بالمحاصيل الصيفية، والكل يشارك في هذا العمل عن طيب خاطر. إلا أن ديما، الذي طلب منه إحضار الماء، فضل اللعب والمرح في باحة المدرسة. وعندما لاحظ فوفا ذلك اقترب منه وقال: كيف لا تخجل من نفسك يا ديما! لقد طلبت منك كلافديا بافلوفنا إحضار الماء وأنت تلعب هنا. من دون شك، فإن الأطفال، الذين تكوّن فيهم شعور الخجل هم وحدهم قادرون على ملاحظة السلوك السيئ عند زملائهم وتأنيبهم على ذلك.

ويجدر لفت الانتباه إلى الميزة التالية لشعور الخجل: فهذا الشعور يمكن أن يثار بسهولة عند بعض الأطفال شديدي الحساسية، بحيث لا يخجل الطفل بسبب تصرف مشين قام به بالفعل، وإنما عند التفكير المجرد بإمكانية حدوثه. ويكفي لمثل هذا أفضل تصور أنه يمكن لمن حوله الاطلاع على قيامه بتصرف غير لائق حتى يحمر وجهه خجلاً، على الرغم من براءته التامة. ومن المؤسف أن الأهل غير قادرين

على ملاحظة هذه الظاهرة دوماً. فعندما يلاحظون علامات الارتباك والحرج على وجه طفلهم فسرعان ما يعتبرونه مذنباً حقاً.

ويجب ألا ننسى أن هناك ما يسمى بالحياء الكاذب. لقد قلنا سابقاً إن فحوى شعور الخجل يتحدد بتلك المعايير الأخلاقية المميزة للإنسان، لذلك فإن الشيء المخجل للإنسان يتعلق بهذه المقاييس بالذات.

فعندما لا تتوافق هذه المعايير مع معايير السلوك الاجتماعية السائدة نقول إن هذا الحياء هو حياء كاذب. ويتجلى شعور الحياء الكاذب بتهرب بعض الشباب اليافعين من القيام بالأعمال المنزلية، وخجلهم من ارتداء هذا اللباس أو ذاك، وعدم قبول الذهاب للنزهة مع الأخ الأصغر... إلخ. إن هذه التصورات الخاطئة صعبة المكافحة ولا يمكن تجاوزها بوسائل الإقناع والملاطفة وحدها. فهنا يمكن للملاحظة الساخرة والاستهزاء الخفيف أو الاستنكار الشديد، ولا سيما من جانب الإنسان الغريب، أن تكون وسائل ناجعة للتخلص من الحياء الكاذب.

إن شعور الخجل، بتحوله إلى حالة ثابتة في شخصية الطفل، قد يمنعه من البوح بأفكاره وإظهار الرغبات والبواعث المستنكرة من قبل الآخرين، لأن شعور الخجل لا يظهر فقط في لحظة القيام بالتصرف غير اللائق بل ويظهر تحت تأثير التصور الذي ينبئ بأن مثل هذا التصرف سيكون مستنكراً من قبل الآخرين. ولهذا يحاول الطفل السيطرة على نفسه، ويقاوم في داخله الرغبات والنوازع التي يمكن أن تثير مثل هذا الاستنكار. ويحدث ذلك لأن الأوامر التي توجه إليه تصبح تعليمات يوجهها إلى ذاته بنفسه، إذ ينمو عند الطفل شعور باطني بالخجل يتحكم بآلية السلوك بصورة فعالة وهذا يعني تغير شخصية الطفل ككل، إذ يبدأ في تقويم ذاته بشكل أدق، ويفرق بين الخير والشر، ويظهر لديه شعور الاستياء من الذات ومعاناة شديدة من إحساسه بأنه قام بفعل واجباته بشكل يختلف عما ينبغي، أو لم يقم بتنفيذ ما ينبغي عليه فعله. ويجري في داخله صراع بين البواعث المختلفة والمقاييس الأخلاقية المترسخة لديه. ويتجلى هذا الصراع عبر الرجولة التي يبديها عندما يعترف بأنه اقترف فعلاً غير لائق، والجهد الإرادي الذي يبذله لإرغام

نفسه على الاعتذار من صديقه. وهكذا ينمو شعور الخجل تدريجياً ويشتد ليصبح أساساً لتكون الضمير.

يعرف الضمير بأنه شكل الوعي الأخلاقي، كما يعتبر شعوراً من جملة المشاعر الإنسانية. إن الضمير يعمل بشكل سابق على تقدير هذا التصرف أو ذاك من تصرفات الإنسان كتصرف أخلاقي إيجابي وسلبي. فهو بمثابة «الصوت» الداخلي الذي يقدر ما هو حسن وما هو سيء، والذي يساعد الإنسان على اتخاذ القرار الصحيح في المواقف الحياتية الصعبة. وتتكشف حقيقة ضميرنا عندما نقدم على فعل أمور تتعارض مع تصوراتنا ومعتقداتنا الأخلاقية، أو عندما نكون على معرفة بأن أفعالنا هذه ستثير الشجب والاستنكار من قبل الآخرين. وعادة لا يستطيع الإنسان أن ينعم بالهدوء وراحة الضمير ما لم يقم بتصحيح عواقب تصرفه السلبي. وفي هذه الحالة يمكن للإنسان أن يعلم تمام العلم أنه لن يلقى العقوبة من أحد على تصرفه هذا، ولن يعرف أحد بذلك، لكن ضميره يؤنبه ويؤلمه ويرغمه على الاعتراف. الحياء والضمير شعوران شديدا القرابة. ففي «آلام» الضمير توجه دوماً مشاعر الخجل. ومع نمو المقدرة عند الطفل على الخجل تنشأ لديه أولى معاناة الضمير.

... لقد مرضت والدة لودا، لذلك فعندما اقتادتها واشترت لها أثناء ذلك قطعة حلوى قررت لودا مباشرة تقديم هذه القطعة لوالدتها المريضة. لكنها بعد أن مشت مسافة لم تقو على ضبط نفسها وقضمت جزءاً من قطعة الحلوى، ثم قامت بعد فترة بالتهام جزء آخر. وما إن وصلت إلى البيت حتى أتت على قطعة الحلوى بالكامل.

وعندما اقتربت مع جدتها من باب البيت قررت بشكل قاطع عدم الدخول: «لن أدخل، إنني خجلة من نفسي لأني تناولت قطعة الحلوى بالكامل، ولم أبق أي شيء منها لوالدتي» ولتجهش بعد ذلك بالبكاء الحار.

إن شعور الخجل ذو طبيعة جدلية. فهذا الشعور يرغم الطفل على الاعتراف بسوء تصرفه، ويخنق تلك النزعات السلبية التي تقوده للقيام بتصرفات غير لائقة، وفي الوقت ذاته يمكن لشعور الخجل أن يمنع الإنسان من الاعتراف بالخطأ. فالطفل يشعر بالخجل والحرج والجزع لدى تصوره بأن الآخرين حين يعلمون

بتصرفه السيئ فسوف يكفون عن احترامه ومحبته، وذلك سيسبب له خسارة شيء ما. كل هذه المعاناة المعقدة تمنع الطفل من قول الحقيقة. فعدم رغبة الطفل في إظهار ذاته في موقف ضعيف أمام من يحترمهم من الناس ويهابهم، والخوف من فقدان الاحترام والخجل من النفس يحفزه للقيام بعمل شيء ما غير طيب. عدا ذلك، يمكن للطفل أن يعيش شعور الخجل فقط عندما يدرك بشكل مؤكد أن تصرفه قد أصبح معروفاً لدى الجميع. أما إذا أفلح في تغطية تصرفه الشائن فلن يشعر بالخجل.

في إحدى المرات اعترفت تانيا: «قلت لأمي بأني اشتريت خبزاً، على الرغم من أني اشتريت آنذاك قطعة حلوى»، - «ألم تخجلي من نفسك لأنك خدعت والدتك»؟ - «ولم أخجل، فلم يعرف بذلك أحد»!

فقدت لارسي مفاتيح الشقة وعند عودتها إلى البيت قالت إنها لم تأخذها أبداً. «لم أشعر بالخجل لأن الجميع صدقوا كلامي» - أجابت الطفلة عندما سئلت هل انتابها الخجل أم لا لقولها الكاذب.

مشاعر
الطفل و طبعه

إن الحقيقة القائلة إن المشاعر هي الأساس لتكون الكثير من السمات الخلقية لشخصية الإنسان معروفة منذ أمد بعيد في المؤلفات العلمية. وتتشكل السمات الانفعالية للطبع تحت تأثير اضطرار الطفل لمعاناة حالة انفعالية متكررة تصبح مع اشتدادها سبباً في ظهور ميزة ثابتة أو عادة مستقرة أو سمة من سمات الطبع. كتب العالم النفسي الشهير ل. س. فيغوتسكي: «إن نظرية الانفعالات أصبحت جزءاً لا يتجزأ ومحوراً رئيساً للنظرية المتعلقة بالطبع. فإذا كان الانفعال يدرس سابقاً كحالة شاذة مدهشة، «وكقبيلة آخذة بالانقراض»، فإنه اليوم يربط بالأسباب والعوامل المكونة للطبع، أي مع عملية بناء وتشكل الهيكل النفسي الأساسي للشخصية». إن الآلية الميكانيكية لهذه العملية تبدو تقريباً كما يلي: تأخذ الانفعالات المتشابهة، التي يعيشها الطفل في حالة أولى وثانية وثالثة من النوع نفسه، في الاشتداد والنمو لتصبح حافزاً يدفع الطفل ليتصرف بالطريقة نفسها في المرة الرابعة والخامسة، ثم تتحول إلى صفة ثابتة من صفاته الخلقية. إن الحافز يحدد تصرف الإنسان، فإذا تكررت التصرفات مراراً وكان الباعث فيها ثابتاً دوماً، فإن التصرف والحافز المسبب له يتكرسان تدريجياً، أي إنهما يصبحان سمة مستقرة من سماته الشخصية. فعندما يغدو شعور العطف والود حافزاً فإنه يحدد إلى درجة كبيرة منحى تطور إرادة الخير في الإنسان تجاه الآخرين. أما شعور الحقد والكره الدائم تجاه الناس فيمكن أن يشتد ليتحول إلى دافع لتشكل القسوة والفظاظة والعدوانية الظاهرة. أما شعور الحرج والارتباك المتكرر فيشكل القاعدة الأساسية لتطور سمة الخجل الدائمة عند الإنسان. وعندما يستقر شعور الكبرياء يتحول إلى فعل عملي يقود إلى تكريس سمة الاعتزاز بالذات.

سنحاول متابعة مجرى عملية تشكل السمات الخلقية لدى الطفل، كي نتأكد مرة أخرى من أهمية تلك الحالات العابرة والسريعة الحدوث التي نسميها الانفعالات. إن أكثر ما يثير اهتمامنا وقلقنا في الطفل هي تلك السمات التي تشمل الحياء والخجل والاعتداد بالنفس وحب الذات والرياء، والجبن واللؤم والعصبية. فماذا تعني هذه السمات، وما هي الانفعالات المحددة التي تكمن في أساس تشكلها؟

لقد قلنا سابقاً إن الحياء والخجل ينموان على تربة الارتباك والوجل الذي يعيشه الطفل. فالطفل الصغير يصاب بالحيرة ويأخذه الخجل عندما يلتفت أحد ما نحوه، أو عندما يشعر بأنه أصبح مثاراً لاهتمام الآخرين. كما يشعر بالخجل عندما يطلب منه الغناء أو الرقص أو إلقاء الشعر بحضرة الناس الغرباء، ويرتبك عندما يدرك أنه ارتكب هفوة ما، وإن بقيت مجهولة بالنسبة للغير. إن هذا الارتباك البدائي يتجلى بتقيد الطفل وعدم ترابط كلامه (يلوذ الطفل بالصمت أو ينطق بكلمات غير مترابطة)، وبفقدان الدقة ومنطقية الحركات (عندما يصاب الطفل بالارتباك يأخذ مثلاً بإصلاح هندامه ومداعبة شعره، وشد أطراف ثيابه ولمس الأشياء التي تقع بجانبه)، وبإبداء بسمة خجولة من نوع مميز. وتترافق هذه الحالة بمسحة عامة من التقيد والتهيب؛ فعند وقوع الطفل في حالة الحرج والارتباك لا يعود بإمكانه الإجابة عن الأسئلة التي تطرح عليه والقيام بالمهمات المطلوبة منه. ويؤدي الحرج أحياناً إلى ظهور تهيج مؤقت غير مبرر وغير متوقع من الطفل، ففي هذه الحالة يأخذ الطفل بالمشاغبة والقفز والتمثيل... إلخ.

كما يرفض التعرف على الناس الغرباء، ويصمت بدلاً من إبداء الترحيب عندما يلتفت الآخرون إليه، ويتهرب منهم أو يأخذ بالتحدث بصوت عالٍ عن أمور لا تمت بصلة إلى ما يدور الحديث حوله. ويعتبر المعلمون والوالدان هذه الظواهر غالباً تصرفات من قبيل التدلل والمشاكسة والعناد عند الطفل. بيد أنها في الحقيقة لا تتولد بسبب رغبة الطفل بالمشاكسة والعناد، بل لأنه يحاول التغلب على قلق داخلي في نفسه لا يعرف ماهيته.

فعبر شعور الطفل بالخوف من أن يلاحظ الآخرون حالته المضطربة يلجأ إلى مثل هذه التصرفات الغريبة، محاولاً إخفاء حالة الحرج التي تعيبه والتغلب عليها. وبالتأكيد، فإنه من الصعب التعرف على شعور الحرج والارتباك في هذه التصرفات من النظرة الأولى، وعلى الرغم من هذا يمكن اعتبار هذه التصرفات تجلياً مميزاً لمشاعر الخجل. وإذا أتحنا الفرصة للطفل حتى يثوب إلى رشده، دون أن نعير الانتباه لسلوكه هذا فإنه سرعان ما يهدأ ويجتاز هذه الحالة.

إن حالة الحرج والارتباك تميز جميع الأطفال، لكنها يمكن أن تكون لدى البعض حادة ومتأزمة ومتجلية كسمة عامة من سمات الخلق: سمة الحياء المفرط. إذ يصعب على الأطفال الذين يتميزون بهذه الصفة الدخول في علاقات مباشرة مع الآخرين.

ويعبر هذا الحياء والخجل الزائد في هذه الحالة عن عدم الثقة بالنفس والمقدرة الذاتية، وعن الفزع العصبي على الفهم والتفسير من الظهور الساخر أمام الغير، وعن الخوف الدائم من إثارة مشاعر غير طيبة لدى الآخرين. ويمكن تفسير ذلك بأن الطفل الخجول لا يلاحظ فضائل نفسه ويسعى دائماً للتقليل من قيمة ذاته؛ فيتصور على الدوام أنه إنسان غير ماهر ومضحك وغير جميل، وأن كل عمل يقوم به لن يثير لدى الآخرين سوى الانطباعات السلبية. لذلك فهو يعيش دوماً في حالة متوترة، لأنه يخشى في كل خطوة يقوم بها فضح نفسه والكشف عن عدم كفاءته. ويتميز مثل هذا الطفل بتأثره الشديد وحساسيته الفائقة، فأقل ملاحظة يبديها له الأهل تثير في نفسه أشد القلق والتأثر. لقد عبر ن. أ. نيكراسوف أعمق التعبير عن معاناة الإنسان الخجول في قصيدته «الحياء» حيث قال:

مشية متكبرة، وصوت رزين.

وكيفما تحدثوا يجري الكلام من أفواههم رقيقاً.

أما أنا فأدخل كالتائه

وتهرب الروح بعيداً بين الضلوع

وكأن الأقدام صفدت بالسلاسل

وكأن الرأس صب بالرصاص الثقيل

يا للغرابة، فاليدان متهدلتان بلا فائدة

وسرعان ما تموت الكلمات على الشفاه.

ابتسم، فتخرج بلهاء قاسية

فليست ابتسامتي شبيهة بالبسمة.

أتوق لأسخر، لكن طرفتي غبية

فأحمر خجلاً وأجتر الألم.

وبالفعل، فالأمر الذي يعتبر بالنسبة للطفل الطبيعي شيئاً اعتيادياً وحتى ممتعاً (إلقاء الشعر وغناء الأغاني)، يكون بالنسبة للطفل الخجول عبئاً ثقيلاً: «تموت الكلمات على الشفاه». وفي الوقت نفسه يتميز الطفل الخجول بأنه يكون في الوضع الطبيعي والمعتاد بين أقاربه هادئاً تماماً، ويتصرف بحرية كاملة معهم، لكنه ما إن ينتقل إلى وضع غريب عليه حتى يختفي شعوره بعدم الكلفة فجأة، ويأخذه الارتباك والحرج لدرجة كبيرة، وكأن طوقاً يقيد جميع حركاته، ويسبب له العجز التام عن الإتيان بأي عمل، ويفقده الرشد لدرجة أنه يشعر بضعف البصر في اللحظات الأولى وقلة السمع وتخلخل الذاكرة. كما يختل النطق؛ فيصبح الكلام غير مترابط ولا متتابع. وبكلمة واحدة، فالطفل هنا ينتقل إلى حالة أشد ما تشبه بالفزع. إلا أن هذا الفزع هو من نوع خاص، حيث لا يتولد عند الطفل على أساس الشعور بالخطر المحدد من قبل بعض الناس أو الأشياء المحيطة به، وإنما بسبب عدم الثقة بالنفس وقلة الاعتداد بالذات. إن فزع الطفل الخجول هو فزع وهمي يثيره مجرد وجود شخص غريب أو مجموعة من الناس. وهنا يدرك الطفل جيداً أن هؤلاء الناس لا يريدون به شراً ومع ذلك فهو يصاب بالحرج وبالارتباك.

وعندما يكبر الطفل يدرك أن الخجل هو قصور ونقص في شخصيته، لذا يحاول تنظيم جميع مقدراته العقلية والإرادية كي يتغلب على هذا الشعور. فهو

يرغب في أن يكون منطلقاً دون تكلف كزملائه الآخرين، لكنه لا يفلح في ذلك، ويخجل من هذا الحياء الذي يلفه، ويخشى أن يصبح مادة للسخرية والاستهزاء، ويؤنب نفسه بشدة لهذا الضعف المهين، ويحاول جاهداً إخفاء احمرار وجهه بشتى السبل، أما بعض الأطفال فيفضلون عدم الاختلاط الواسع بالأتراب. إن جميع هذه المشاعر المتناقضة تترك أثراً واضحاً في سلوك الطفل الخجول، وتزيد بشكل غير طبيعي رهافة الحس وعزة النفس لديه وتحفز الرغبة عنده بالابتعاد عن الآخرين والانطواء على الذات. وهنا يصبح الطفل مغلقاً على نفسه صامتاً، ويثير أحياناً لدى البعض انطباعاً خادعاً بأنه فخور بذاته ومتكبر، الشيء الذي يسبب تكون نظرة سلبية تجاهه من قبل زملائه. ومع ذلك فالأطفال الذين يعانون من شدة الخجل يتميزون بالانطوائية وقلة الكلام وحب الابتعاد عن الاختلاط بالآخرين، وذلك ليس بسبب نظرة أترابهم المتكبرة تجاههم، وإنما لأنه يصعب عليهم التحدث ببساطة وحرية، واللعب والضحك مع الزملاء، فالحرج يقيدهم على الدوام.

وتجدر الإشارة إلى أن درجة نمو الخجل عند الأطفال متفاوتة، فهي تتدرج من التقيد الشديد المفرط حتى الارتباك الخفيف، الذي يظهر عند معظم الأطفال. فمثلاً، إن الخجل عند فيتيا الذي بلغ التاسعة من عمره، هو من أبرز السمات المميزة لشخصيته. فهو يحاول الابتعاد عن الجميع، ويفقد رباطة جأشه عندما يلتفت الآخرون نحوه أو يوجهون الحديث إليه. وهو يشعر بالحرج بشكل خاص أثناء دروس الرياضة البدنية والموسيقا. وبتأثير تقيده الشديد وارتباكه الشامل فإنه غالباً ما ينسى تنفيذ ما يطلب منه من واجبات، وبأي تتال يتوجب عليه القيام بالحركات الرياضية. ويستطيع الغناء والرقص فقط عندما يشترك جميع الأطفال في الأداء معاً، أما عندما يطلب منه فعل ذلك وحده فإنه يرفض بإصرار، كما تلاحظ مظاهر مشابهة لما ذكرنا عند الطفلة ناتاشا التي بلغت العاشرة من عمرها، لكن هذه المظاهر تتجلى لديها بصورة عابرة وأقل وضوحاً، والشيء المهم أن سمة الخجل لا تبرز لديها بشكل صارخ من بين صفاتها الخلقية الأخرى.

يعتبر البعض أن الحياء والخجل في حالات معينة علامات للتأخر العقلي، فالطفل يسأل أثناء الدرس ويطلب منه إعادة ما تلي عليه، لكنه يرفض الإجابة: «لا أعرف»، «نسيت»، «لا أستطيع». فيتشكل عبر هذه الأجوبة لدى المعلم تصور بأن الطفل بالفعل لا يفقه شيئاً، وإنه تلميذ غليظ الذهن وقليل الذكاء. أما إذا راقبنا تصرفات الطفل أثناء وجوده في البيت فسرعان ما يتغير هذا الانطباع الذي كوناه لأنفسنا عنه. فباستطاعته في البيت إلقاء الشعر بشكل جميل وقص الحكاية بصورة معبرة، كما يتقن الرقص والغناء بصورة حسنة.

إذاً كيف ينبغي علينا التعامل مع حياء الطفل وخجله؟ هناك نظرية تقول إن الأطفال الذين يتميزون بالحياء والخجل يتقبلون أكثر من غيرهم عملية التربية، ويمكن تلقينهم السمات الخلقية الطيبة بشكل أسهل. لكن الأمر هنا لا يتعلق بالحياء، وإنما بالتأثر البالغ الحساسية، تلك الحساسية الشديدة في الجملة العصبية. إن هذه الميزات لجملة الطفل العصبية تؤمن الظروف الملائمة عند استخدام أسلوب التربية الصحيح لتنمية رهافة الحس الأخلاقي من جهة، وتنمية شعور الطفل بضرورة مراقبة تصرفاته الذاتية من جهة أخرى. والحياء بحد ذاته (إذا لم يكن مفرطاً) لا يعتبر سمة خلقية سلبية. فعلى قاعدة هذه الصفة تنمو فيما بعد صفات خلقية قيمة كاللباقة والتواضع ورهافة الحس ولطف المعاملة والتهذيب. وهذا أمر منطقي. فالطفل الخجول يحلل دوماً تصرفاته وسلوكه ويبدأ بتفهم زميله بشكل أفضل، وملاحظة مزاجه المتعكر والإحساس بحالته ومعاناته. وعبر معرفة الطفل الخجول لنفسه حق المعرفة وتقديره الصحيح لإمكاناته، فإنه لا يقوم بتضخيم نفسه والمبالغة في تقديرها. عدا ذلك، فإن بعض مظاهر عدم الثقة بالنفس التي تميز الطفل الخجول ترغمه على الاجتهاد والعمل بصورة دائمة لزيادة معارفه والسعي فيما بعد لتهذيب نفسه الدائم. بيد أن الخجل المفرط والنامي لدى الطفل بصورة مرضية يعقد حياة الطفل إلى درجة كبيرة، مؤثراً بشكل سلبي في نفسيته. فمثل هذا الخجل يجعل نمو الطفل أحادي الجانب ويقتل فيه الثقة بالنفس وينتقص من مقدرته الذاتية،

وعلى هذا الأساس فغالباً ما تتولد لدى الطفل النزعة الانطوائية والرغبة في الابتعاد عن المجتمع.

ويجب الاعتقاد بأن تكون الخجل، كأي سمة من السمات الخلقية، يأتي بتأثير جملة ظروف داخلية وعوامل خارجية محددة. وبلا شك، فالخجل ليس صفة تأتي مع الطفل بالولادة لتفرض عليه نمطاً محدداً من السلوك، على الرغم من وجود بعض العوامل الطبيعية الوراثية المساعدة في نموه، كالحساسية المفرطة للجملة العصبية. لكن العوامل الأكثر تأثيراً هي الظروف الحياتية، التي تنمو ضمنها شخصية الطفل، وقبل كل شيء خصائص تربية الطفل داخل الأسرة. يقوم الطفل المفرط الحساسية مثلاً بفعل شيء ما بغير الصورة المطلوبة، فيقوم الأهل بتأنيبه أو السخرية منه، أو التحدث عن فعلته أمام الغرباء، مما يثير في نفسه مشاعر مؤلمة. فإذا تكرر هذا الأمر يصاب الطفل بالخوف والتحسس: «ألا أقوم ثانية بفعل شيء غير صحيح»؟ فيعمل هذا الخوف الدائم على تقييد وعرقلة جميع أفعال الطفل وزعزعة ثقته بنفسه، وبالتالي ظهور الصورة المرضية للخجل المفرط لديه.

ومن العوامل التي تساهم في تنمية شعور الخجل المفرط يأتي نمط الحياة المنغلق الذي يعيشه الطفل. إذ ينزع بعض الأهل إلى محاولة عدم تعويد الطفل على ممارسة العمل المفيد والاستغراق الطويل في الأشغال المسلية عبر سعيهم الدائب للقيام بكل ما يلزم نيابة عنه. وبما أن الطفل في هذه الحالة لا يصطدم بأي صعوبات، ولا يقوم باجتياز أي عقبات جدية لذا يصبح لا مبالياً وخاملاً وكنتيجة لذلك فإنه يغدو خجولاً. وفي حالات أخرى يعتبر الأهل أنه كلما قل اختلاط الطفل مع أترابه، نشأ أسلم من الناحية الأخلاقية، فعندئذٍ يتجنب الاصطدام بأي مظاهر غير لائقة أو سماع أي كلام غير مهذب. وهنا يعمل الأهل جاهدين على منع الطفل من الخروج مع رفاقه أو زيارتهم مما يؤدي به لأن يصبح انزوائياً خجولاً وحتى متهيباً من الاختلاط بالآخرين.

وبعد بلوغ الطفل مرحلة أكثر تقدماً من العمر يمكن للخجل أن يتحول لديه إلى إدراك لبعض نواقصه، ولا سيما عيوبه الجسدية. ومن الواضح بجلاء أن لباقتنا

واهتمامنا وسعينا لمساعدة الطفل في تجاوز ما يشعر به من نواقص، أو الإيحاء إليه بأن هذا العيب يمكن أن يعوض بزرع فضائل جديدة في النفس تساهم إلى حد كبير بالتخفيف من خجله.

إن التعرف على الخجل في مرحلة مبكرة من عمر الطفل والتعامل معه بصورة تربوية صحيحة أمر بالغ الأهمية، لأن صفة الخجل تأخذ بالازدياد والنمو مع تقدم الطفل في السن، لتصل إلى ذروتها عند بلوغه سن الشباب. وتصبح هذه الصفة في بعض الأحيان ظاهرة نفسية تنم عن الطبع الخامل وتتطلب تدخل الطبيب النفسي لمعالجتها. وقد وصف العالم الشهير ف. ن. بيختيريف هذه الحالة بالذات. ففي بحثه «احمرار الوجه كشكل مميز للاختلال المرضي» قام بتحليل حالة الإنسان المريض ومميزات سلوكه، وبنتيجة ذلك برهن أن سبب هذا المرض (الذي سماه العالم فزع الاحمرار) هو شعور الارتباك المفرط المتكرر في وعي الإنسان. ومن الأعراض المميزة لهذا المرض عند الإنسان يأتي الخوف الشديد من التعرض لاحمرار الوجه في حضرة الناس الآخرين، حيث يكابد المريض آلاماً نفسية قاسية، ويخشى الوقوع في موقف يجعله محط أنظار الجميع، ويخاف حتى محادثة الإنسان الآخر. أما الجلوس وراء الطاولة لمناقشة أمر ما مع مجموعة من الناس فهو بالنسبة له أمر لا يطاق. وهذا الإنسان يشعر بالخوف الشديد عندما يتحدث من حوله عن مختلف الجرائم التي لم يعرف فاعلها والفضائح... إلخ. ويتوهم أن من حوله يتهمونه بالذات بمختلف السرقات وإشعال الحرائق وجرائم أخرى. إن عدم وجود أساس التقدير الصحيح للمقدرة الذاتية يجعل حب الذات يقتصر فقط على التغني والافتخار بالصفات الذاتية الإيجابية التي يصورها الفرد لنفسه، والتي تعتمد في معظم الأحيان على تصورات غير دقيقة عن النفس ومزاياها. فالإنسان الأبي، الذي يقدر مزايا نفسه عالياً، ويتمتع بفهم عميق لحقوقه وواجباته، ويحافظ دوماً على شرفه في العمل والبيت ومعاملته الطيبة للآخرين، هو إنسان عزيز النفس وأنوف. أما الأناني الذي يؤثر نفسه في كل شيء، فهو يفكر فقط بذاته وبمصلحته الشخصية، وهو عديم الاهتمام بالناس. وعن أهمية تربية

عزة النفس والأنفة لدى الإنسان كتب بيختيريف: «من الخطأ تصديق ما تدعو إليه النظرات الأخلاقية الوراثية التي تلصق ظلالاً سلبية بجميع التعابير التي تتكلم عن علاقة الإنسان بذاته. كالثقة بالنفس، والاعتزاز بالذات، والرأي الشخصي وغيرها، وتعتبر كل علاقة إيجابية بالذات صفة خلقية سلبية. فنظرة الاحتلام والاعتزاز بالذات لا يعتبر سمة خلقية سلبية، بل صفة إيجابية بحتة ما دام الإنسان يقوم بعمل فاضل ويحمل أفكاراً قيمة».

ويمكن ملاحظة عزة النفس أو الأثرة عند الأطفال في مرحلة مبكرة من العمر وذلك في بداية المرحلة الدراسية الابتدائية... لم تتمكن طالبة الصف الأول من إجراء العمليات الحسابية بشكل صحيح، ولم يكن ذلك بسبب نقص الذكاء لديها قدر ما هو قلة انتباه منها. وبعد إحدى الإخفاقات المتكررة في الإجابة من قبل هذه التلميذة خاطبتها المعلمة قائلة: «يا لك من تلميذة قليلة الانتباه يا تانيا. فقد تعلم الطلاب جميعهم طريقة الحساب وبقيت أنت الوحيدة فقط»!. وهنا أخفضت تانيا رأسها واحمرت خجلاً بعد أن رمقت المعلمة بنظرة دهشة واستغراب. أما عندما دعتها المعلمة بعد أيام إلى السبورة لحل إحدى المسائل قامت التلميذة بحلها بشكل ممتاز. فقد اتضح أنه بعد تلقيها ملاحظة المعلمة سارعت لمراجعة دروسها مع أبيها واستيعابها بشكل جيد، حيث كانت نتيجة ذلك إجابتها الصحيحة والكاملة.

إن التأنيب المحق يثير لدى الطفل الأبي شعور الخجل والاستياء من الذات والرغبة في تجاوز النواقص وتغيير السلوك. أما الإهانة الجائرة فيقابلها بالاستياء والاحتجاج والرغبة في الدفاع عن النفس. أما الأناني فيعتبر كل ملاحظة أو نقد يوجه إليه محاولة غير عادلة للحط من قيمته والإساءة إليه، لأنه يعتقد أن هذه الملاحظات غير ناتجة عن وجود النواقص الحقيقية في سلوكه، وإنما بسبب النية الخبيثة لأولئك الذين يوجهون النقد إليه.

إن الطفل الأنوف لا يسمح للآخرين بإهانته أو مس كرامته لأنه يكن الاحترام لنفسه. وفي الوقت ذاته يكون هذا الاحترام ممزوجاً مع شعوره باحترام من حوله. أما الأناني، فعبر إيثاره لنفسه فقط، ولا يكن الاحترام للآخرين مطلقاً،

ولا يسمح لنفسه بتصور أي شيء إيجابي لديهم. ولهذا السبب فهو لا يبدي أي اهتمام بما يوجه إليه من ملاحظات مهما كانت مؤثرة ومحقة، لأنه يعتبر نفسه مثلاً أعلى. والطفل المتميز بعزة النفس يقدر ذاته انطلاقاً من إمكانياته وإيجابياته الحقيقية. وعبر مقارنته الدائمة لنفسه بالآخرين، واحترامه العميق لفضائلهم، فإنه يقدر ذاته تقديراً صحيحاً. أما التقدير الذاتي للأناني فنادراً ما يتطابق مع الحقيقة وغالباً ما يكون هذا التقدير متميزاً مع الذات.

فهو يثق ثقة مطلقة بأنه هو الأفضل والأذكى والأقوى من بين جميع من حوله، ويعتبر أن عدم تقدير الآخرين له ناتج عن خطأ ما. ومن هنا ينشأ شعوره بأن الكل مدين له بالتعامل الخاص مع شخصيته المميزة، ويتولد احتقاره لجميع من حوله والذين يعتبرهم أقل ذكاء ومقدرة.

شعور الشباب
متى يظهر؟

يعتبر شعور الشباب أهم حافز لولادة إحساس الإنسان بمسؤوليته عن التصرفات التي يقوم بها، والأفكار التي يطرحها أمام نفسه ويشرع في تنفيذها، وواجبه في التحكم بسلوكه... إلخ.. وهو يتشكل منذ الطفولة. وهذا شيء منطقي، لأن الجديد يولد دائماً في باطن القديم وينمو على تربته، ثم يترعرع ليكتسب سماته المميزة، يتولد شعور الشباب عندما يبلغ الطفل سن المراهقة، وذلك عندما ينتقل الطفل من اللا مبالاة الطفولية واللهو واللعب الدائم، ومن نظرته العفوية البسيطة لنفسه وللآخرين إلى التفكير بالأصدقاء وبالذات وبعلاقته بالعالم المحيط. فيصبح المراهق أكثر جدية وأشد استغراقاً في التفكير، ويبدأ بتأمل ما يجري حوله والنظر إلى الناس الذين يحتك بهم، ويحاول الإحاطة بالصفات التي يتمتع بها هو نفسه. إن الطفل الذي ما زال في السابعة أو العاشرة من عمره لا ينظر إلى نفسه كشخصية مستقلة ليستشف ما تحويه من فضائل أو عيوب. ولا يحاول كذلك أن يقوّم سلوك الآخرين (المعلمين والوالدين)، لأن هيبة الإنسان البالغ بالنسبة له شيء لا يمس أما الشاب اليافع فيأخذ بالنظر إلى ما حوله نظرة متفحصة ناقدة، ويقدر سلوكهم من موقع تضايقه مع المعايير الأخلاقية الصارمة. ويكون هذا التقدير عادة جازماً لا يقبل المهادنة، فالمراهق لا يغفر أبداً أقل تمايز بين أقوال الكبار وأفعالهم ولا يصفح عن التكلف أو المهانة، وهو غير قادر على إدراك حقيقة أن الكبير يستطيع أحياناً المراءاة في سبيل بلوغ شيء ما يهمه، ويمكنه التنازل عن أمر ما لعلمه بأن ذلك ينعكس في نهاية المطاف بصورة إيجابية على الإنسان الآخر.

والمراهق يكون أحياناً عديم الرأفة بالآخرين، فهو قادر على الإغلاظ في القول والإهانة دون أن يشعر بمدى ما يسببه ذلك لمن حوله من آلام نفسية ومعاناة،

ولا سيما للوالدين. وغالباً فإنه لا يقوم بفعل ذلك تحت تأثير الحقد والكراهية، وإنما لفقدانه تلك المرونة وذلك التحفظ والوداعة واللباقة التي يتميز بها الإنسان البالغ، والتي تمنع إلى حد كبير حدوث الخلافات بينه وبين الآخرين، وإظهار الاستياء تجاههم، وتحد من تعكر العلاقات فيما بينهم. وتدعى هذه المرحلة من العمر بالمرحلة «الصعبة» أو «الانتقالية» أو «الصدامية» لأن هذه الفترة بالذات تترافق بظهور الصعوبات الجدية في التربية: «كان ابننا سيريوجا حتى صفه السادس لطيفاً ومطيعاً، وكان يخرج معنا للذهاب إلى السينما والتنزه، وكان يحدثنا عن مدرسته وأصدقائه. أما الآن فلا يمكن التحدث، عن إمكانية الخروج للتنزه معه أبداً، وإذا سئل عن أصدقائه، الذين يدرسون في صفه فإنه يجيب: «هذا شيء لا يخصكم». أما عن الدراسة فيجدر عدم التلفظ مطلقاً: «سأدرس بالشكل الذي يحلو لي». إننا نشعر بالمرارة والأسى، إذ لم نتصور أبداً أن ينقلب سيريوجا إلى هذا «الوحش». أما طفلتنا مارينا فقد كانت تجلس معظم الأمسيات في المنزل، وتمضي الوقت في القراءة ومراجعة الدروس. أما الآن؟ فالصديقات أغلى ما لديها. وتمضي الساعات الطوال بالنظر إلى نفسها في المرآة، وتبتكر أشياء عجيبة في تسريح شعرها، ولا تمل من تبديل الثياب المختلفة، أما عندما تأتي صديقاتها لزيارتها فسرعان ما تتعقد الأحاديث حول الأزياء وتسريحات الشعر وأخبار الفنانات والفرق الموسيقية الجديدة. فهذا كل ما يشغل بالهن».

إن جميع المؤلفات العلمية المكرسة لدراسة فترة المراهقة تؤكد وجود الصعوبات الجمة في تربية الطفل في هذه المرحلة من عمره. وتتعايش في المراهق أكثر التوجهات تناقضاً: السمات الطفولية البحتة، والصفات الرجولية الآخذة بالتكون، والحيوية المفرطة، والنشاط الزائد وسرعة الإصابة بالتعب، وعدم الاتزان العام، وفي الوقت نفسه السعي نحو هدف محدد والتوجه نحو الاستقرار في السلوك.

إلا أن أهم الصفات الجديدة التي تظهر في فترة المراهقة هي شعور البلوغ. إن هذا الشعور غني في محتواه ويحفز في المراهق أكثر أشكال السلوك تنوعاً، وفي الدرجة الأولى التحرر من سيطرة الكبار. وبالتأكيد، فليس باستطاعة المراهق

استيعاب جميع تعقيدات سلوك وتصرفات الكبار، ولهذا فهو يرى سمات الرجولة الخارجية فقط. إذ يرى بعض الشبان المراهقين أن الرجولة تقتصر على القوة العضلية والمقدرة على اجتراع كأس الفودكا دفعة واحدة، أو إشعال اللفافة بصورة استعراضية مليئة بالافتخار. أما بعض الفتيات المراهقات فيعتبرن المرأة المثالية، تلك التي لا تنسى تكحيل أهدابها بكثافة، ولا تقبل إلا بتسريحة الشعر الحديثة، ولا ترتدي سوى الثياب المستوردة. ولهذا السبب يقوم الشبان المراهقون بالاختفاء عن الأنظار في أماكن قصية لتدخين اللفائف، ويحاولون لدى اجتماعهم مع بعضهم تقليد الكبار في جميع تصرفاتهم. ولا يكفون عن رجاء الأهل والتوسل إليهم لشراء الأزياء الحديثة من الثياب. أما الفتيات المراهقات فيمضين الوقت في الوقوف أمام المرآة في مختلف الوضعيات، وتجريب مختلف أشكال تسريحات الشعر للوقوف على أكثرها ملائمة، ويشغلن أنفسهن بتزيين الوجه بالطلاء والأصبغة التجميلية، ويبرز لدى الفتاة المراهقة اهتمام حاد بارتداء الثياب الجميلة، فهي تحلم بالثوب الجديد والحذاء الملفت للنظر لاعتقادها بأن هذا هو الشيء الوحيد، الذي يستطيع جعلها فتاة جذابة ومحطاً للأنظار.

يقوم المراهق عبر سلوكه بتقديم صورة طبق الأصل عن تصرفات والديه، فيعكس طريقة تعاملهم مع الآخرين وأسلوبهم في المعاشرة، ويقلد حتى حركاتهم الإيمائية والتعبيرية، أي إن المراهق يحاول جاهداً الظهور في مظهر الإنسان البالغ.

إن شعور البلوغ الذي يتشكل في سن المراهقة يرتبط بشكل وثيق مع نمو إحساس الطفل بالاعتماد على الذات والاستقلالية، تلك الاستقلالية التي نصطدم بها للمرة الأولى عند بلوغ الطفل عامه الثالث. والتي تسبب لنا أولى الصعوبات الجدية في تربيته، فمع بلوغ الطفل عامه الثالث يعلن عن حقه بالتصرف الشخصي، ويطالب بحرية التعبير عن الذات، ويشتد هذا الشعور في سن المراهقة، ويتجلى بصورة حادة. فإذا كان الطفل الصغير يسعى للتخلص من وصاية الأهل لمجرد القيام ببعض الأعمال دون مساعدتهم، كأن يرتدي ملابسه بنفسه، أو يتناول طعامه بيده، فإن المراهق يطالب بتحرر أشمل فهو ينزع نحو الاستقلالية بتفكيره، والإفصاح عن تأملاته الخاصة بغض النظر عن معتقدات الآخرين، وحل جميع

القضايا التي تعترضه بشكل مستقل. ويبدو له أن وجهة نظره هي وحدها الصحيحة، وأن والديه أصبحا في عداد الجيل الذي تجاوزه الزمن.

بيد أنه لا ينبغي التركيز فقط على الجوانب السلبية لشعور البلوغ، فهذا الشعور ضروري للشخصية الآخذة بالتشكل، لأنه في حقيقة الأمر يصنع من الطفل إنساناً بالغاً، فعلى أساسه تنمو مشاعر الاستقلالية والاعتداد بالنفس والكرامة. كما يعتبر هذا الشعور بمثابة المقدمة الضرورية لتكريس وعي الشباب بذاته، وبالتالي تحكمه بتصرفاته، ويدفعه لزيادة الاختلاط والمعاشرة، وبالتأكيد فإن معرفتنا بالصعوبات التي تنشأ في مرحلة المراهقة في عملية تربية الطفل يجب ألا تقعدنا عن التدخل الفعال لتجاوزها، وألا تدفعنا للاستسلام التام لتلك الفظاظة الشديدة، وللانفلات الجامح الذي يمكن أن يرافق سنوات المراهقة إلا أن هذه الصعوبات ليست شيئاً محتماً، فقد تمر فترة المراهقة دون ظهورها مطلقاً. فهناك الآلاف بل الملايين من الأسر، التي لا تلاقي أي صعوبات تذكر في تربية الطفل أثناء مروره بسن المراهقة، فهي لا تعرف المشاحنات وسوء التفاهم والاغتراب والتباعد في التفكير والسلوك بين أفرادها، وتمر السنون هادئة على الرغم من أن الابنة أو الابن قد أتم الثانية عشرة أو الرابعة عشرة من العمر. وتظهر الصعوبات في معظم الأحيان في تلك الحالات التي تعاني فيها الأسرة من مشكلات معينة، كالأسرة المهدمة، حيث تقوم الأم بتربية الطفل وحدها (وليس من الضروري أن يترافق ذلك بالمشاحنات والخلافات)، أو الأسرة التي دخل فيها إنسان غريب (زوجة الأب أو زوج الأم)، أو الأسرة التي تتنازعها الخلافات والتي يعامل الأهل فيها أطفالهم بقسوة وجفاء ولا مبالاة. أي إن مشكلات سن المراهقة تنشأ على تربة الأخطاء والهفوات السابقة، فكأن الطفل يدخر في نفسه جميع ما عاناه من مشاعر بعدم الرضا والأسى والحقد، التي تتمخض فيما بعد عن الفظاظة والتوق إلى الانعتاق الكامل من أي ارتباط وإلى الاستقلال التام بالذات. ويكون الشاب محظوظاً إذا كان الانعتاق دافعاً له للانضمام إلى النوادي الفنية أو العلمية وحافزاً لتنمية حب العمل والجدية. أما إذا حرفه للانضمام إلى زملاء السوء ليتعاطى معهم الأفعال الرذيلة وإضاعة الوقت سدى والتسكع في الشوارع؟ فما العمل في مثل هذه الحالة؟

عندئذ نأخذ بالصراخ في وجه الابن وإهانة الابنة، وإدانتهم وإثارة الحمية في أنفسهم وإيقاظ ضميرهم. لكن عندما نفكر ملياً ونعود بالذاكرة إلى الوراء فسرعان ما ندرك أننا سبب الكثير من هذه الانحرافات، فنسارع لفعل شيء ما قبل فوات الأوان: البحث عن سبل معينة للتقرب من هذا المخلوق الجامح، وهذا الطائر المزهو بنفسه، الذي شعر لتوه بقوة جناحيه المكسوين بالريش الغض. وهنا، كما في أي موقف نزاع آخر، لا يمكن للقسوة والإهانة تقديم أي فائدة تذكر. إذ ينبغي في هذه الحالة أيضاً، كما في مختلف مراحل عمر الطفل السابقة التعامل معه بعطف وحنان واهتمام بالإضافة إلى تعويده على الاجتهاد وحب العمل. بيد أن العطف والحنان لا يتمثل بشراء الثياب النفيسة، وإنما بإظهار الاهتمام والرعاية التي يتطلبها الطفل، وتعويده على معايشة الأشياء المعنوية القيمة (الكتب والموسيقا والذهاب إلى المسرح والمكتبات والمتاحف)، والاعتناء بنظافة ملابسه، وتخصيص زاوية معينة من البيت خاصة به، يستطيع الاحتفاظ فيها «بنفائسه»، كبعض القطع والأجهزة الإلكترونية وعدة اللحام والتسوية والمطارق، أو مجلات الأزياء وطرائق خياطة الملابس وقطع الأقمشة، والخيوط المختلفة والمعدات اللازمة لحياكة الملابس. فالرعاية تشمل أيضاً مساعدة الطفل لاختيار طريق حياته الصحيح في الوقت المناسب، وذلك كي تتولد في داخله الاهتمامات التي تدفعه لتكريس ذاته كشخصية مميزة. وعندما يصبح لدى المراهق اهتمامات حقيقية ويستحوذ على تفكيره تنفيذ عمل، «يلزمني بعد الكثير من القطع الإلكترونية حتى أتمكن من تجميع جهاز المذياع، لذلك علي التجول في محلات القطع التبديلية وتصنيع بعضها الآخر بنفسي»، «لم أنته بعد من قراءة رواية كوبير، لذا سأذهب غداً إلى المكتبة، وسأمضي النهار بكامله في القراءة»، «إن الاعتناء بحوض تربية الأسماك يأخذ مني الوقت الكثير، ومع ذلك فإني أهوى تربية الأسماك»، «سأذهب غداً مع والدتي إلى المزرعة لأطعم بقرتي البيضاء المحبذة»، فلن يبقى لديه رغبة في التشاجر مع أحد، أو طلب المستحيل من الآخرين وسيغدو آنئذٍ هادئاً متزناً، لأنه يكون مطمئناً إلى أن أقرباءه سيمدون له يد المساعدة، إذا كان ما يطلبه منطقياً وضرورياً حقاً وليس مجرد أهواء صبي مدلل.

وهكذا فالنزاعات ليست بالقدر المحتوم الذي يرافق فترة المراهقة، وقد لا تظهر أبداً إذا كان المناخ السائد في الأسرة مليئاً بالود والتفاهم، وكانت العلاقات المتبادلة فيها مفعمة بالحب والتعاون، وكان المراهق نفسه مشغولاً بعمل ممتع ومكلفاً بالقيام بواجبات المنزل، وكان مدركاً لأهمية ما يفعله. وفي مثل هذه الحالة فإن شعور البلوغ الآخذ بالتشكل لدى المراهق لا يدفعه للوقوف في وجه الأهل والمطالبة بالاستقلالية والتحرر من ربقتهم، وإنما للبحث عن ذلك الشيء الذي يكرس عبره شخصيته المميزة ونظرته المتفردة إلى الأشياء.

إن شعور البلوغ لا يحفز عند المراهق تطور الاستقلالية وحسب، بل هو مقدمة ضرورية لتكون أكثر السمات الشخصية أهمية وهي عزة النفس، التي يعبر الإنسان عبرها عن احترامه وتقديره لذاته. وتحتد هذه السمة بشكل صارخ في سن المراهقة. فالمراهق جاهز للدفاع عن كرامته بشتى السبل والوسائل المتاحة، وهو سريع الغضب والاستياء وفي الوقت نفسه لا يميل أبداً لتحليل نقاط ضعفه واجتياز الصعوبات التي تعترض سبيله. ويمكن أن يغضب لأتفه الأسباب. ويكن البغيضة في نفسه لأمد طويل، ويتأثر ويعاني بشدة إذا مس الآخرون كرامته وهيبته.

ويتحسس المراهق الإهانة بصورة عاصفة، ولا يتأثر بكلمات الكبار الجارحة فقط، بل باللهجة التي تلون أحاديثهم والتي تنم عن رغبتهم في الإساءة إليه أيضاً. وقد تحدث أ. س. ماكارينكو مراراً حول أهمية احترام الطفل والتعامل معه بصورة طيبة، لأن هذا التعامل يرفع من قيمة الطفل وينمي احترامه لذاته، ويكون لديه شعوراً بأهمية شخصيته مما يزرع الثقة في نفسه. لذلك ينبغي تشجيع شعور البلوغ عند الطفل، وجعله أداة مساعدة لتنمية الثقة بالنفس لديه وتكون شخصيته الهادئة المتزنة. أما إذا أخذنا بالتقليل من قيمة الابن أو الابنة وأشعرناهم دوماً بقلة ثقتنا فيهم («ما زلت صغيراً حتى الآن لكي تفكر في هذا الأمر بنفسك»!، «اصمت! فهذا أمر لا يخصك»).

فإننا بذلك نطفئ فيهم شعلة المبادرة والاستقلالية والاعتماد على الذات. وهنا، كما في كل شيء، يجب التصرف باعتدال وحذر. فإذا حاد الأهل قليلاً عن

الطريق الصحيح في تربية طفلهم فسرعان ما تفلت الأمور من أيديهم ويصبح المراهق جامحاً ولا يكن الاحترام والطاعة لأحد.

إن شعور البلوغ يقوي في المراهق اهتمامه بأصدقائه وأترابه، على الرغم من أن توجه الطفل للمعاشرة والاختلاط يظهر قبل بلوغه سن المراهقة. فالطفل الصغير يشعر بالحاجة الماسة للأصدقاء كي يلهو ويلعب معهم بمرح ونشاط، أما تلميذ المدرسة الابتدائية فلا يمكن أن يتصور حياته أبداً خالية من المعاشرة والأصدقاء. وعندما يبلغ الطفل سن الشباب يصبح شعوره بالحاجة إلى الأصدقاء شعوراً حاداً أكثر من ذي قبل بكثير وهذا أمر مفهوم أيضاً، فشعور المراهق بالبلوغ يدفعه للتحرر من وصاية الكبار ويولد في ذاته الطموح للتعبير عن النفس وإبراز المقدرة الشخصية. فأين وكيف يمكن تجسيد هذه المشاعر؟ من الواضح أن ذلك ممكن فقط في العلاقة المتبادلة بين المراهق وزملائه. ولهذا تأخذ المعاشرة بالنسبة للمراهق أهمية بالغة. فيمكن للصديق أن يصبح مثلاً أعلى يقتدى به.

«لماذا تحاولين يا أمي جاهدة دفعي لصداقة فولوديا؟ إنه لا يعرف شيئاً سوى الجلوس برفقة الكتاب المدرسي. أما سيريوجا فيا له من إنسان باهر! وكم هي رائعة تلك المكتبة التي يملكها بكتبها البوليسية المشوقة. وهو بالإضافة إلى ذلك يمتلك جهاز تسجيل ممتازاً ومجموعة رائعة من التسجيلات الصوتية». وينشد المراهق إلى مثل هذا الصديق ويتغنى به ويقضي معه معظم وقت فراغه. إننا نقوم عادة باختيار مثلنا الأعلى انطلاقاً من نظرتنا الشخصية للحياة ومن موقفنا الحياتي العام ويمبادئنا الأخلاقية ومعتقداتنا. أما المراهق، الذي لم تتشكل لديه بعد المبادئ الحياتية الخاصة به، يواجه صعوبة كبيرة بتحديد المثل الذي يقتدي به، لذلك فإن تصوره عن القدوة الحسنة، التي تصلح لتتخذ مثلاً أعلى غالباً ما يظهر بمحض الصدفة. ويحدث هذا عادة في تلك الحالات التي لا ينجح الأهل فيها بزرع اهتمامات معينة في نفس طفلهم تشغله وتستحوذ على تفكيره وتوجه طاقاته في السبيل الصحيح. فإذا لم تبرز لدى الطفل اهتمامات واضحة وهوايات خلاقة، فإنه يكفي لأن يصادف أمراً عابراً أو تعارفاً غير متوقع حتى تتوجه طاقاته كافة إلى أمور عديمة النفع، أو بالغة الضرر. فالشاب الذي ترعرع، كما يقال، في أسرة محترمة

يمكن أن تسوقه الأقدار للتعارف إلى مجموعة من الشباب، الذين لا يعرفون من الحياة إلا التسكع في الشوارع وتدخين اللفائف. وهنا تأخذنا الدهشة ويلفنا الأسى: «من أين أتى هذا البلاء؟ إن الأصدقاء هم السبب في كل شيء، فقد حرفوا الابن عن جادة الصواب وجذبوه إلى وسطهم المعدي»!. لكن لماذا لم تقوموا أنفسكم بجذب الطفل إلى محيطكم السليم قبل فوات الأوان؟ ولماذا لم توجهوا أفكاره في منحى يطابق إرادتكم الطيبة؟ إن سلوك الشاب المراهق يتشكل سابقاً وبصورة تدريجية في سنوات الطفولة الطويلة التي تتبلور فيها سمات شخصيته الرئيسة.

إذاً تظهر عند المراهق رغبة عارمة في الاختلاط مع أترابه، وتصبح أهمية الأصدقاء أكبر من هيبة الأهل والمعلمين. لذا يحاول المراهق جاهداً تكريس ذاته في محيط زملائه كشخصية مرموقة ومحترمة.

... عاد طفلكم اليوم من المدرسة في حالة يرثى لها من الأسى والقنوط، إلى درجة أنكم لم تجدوا الوسيلة المناسبة لسؤاله عما جرى له: «ما الذي يؤلمك يا سيريوجا؟». «لا شيء، أرجوكم لا تزعجوني فأنا مشغول ومتعب»!. «تعال لتتاول الغداء»!. «لا أريد». «ماذا، هل حصلت على تقدير سيء في إحدى المواد؟ هيا أرني صحيفتك»!. «ها كم الصحيفة فليس هناك أي تقديرات سيئة». إذاً ماذا دهاك وأثار الأسى في نفسك»!. «لا شيء، دعوني وشأني، واتركوني أحيى بهدوء»!.

وبالطبع يأخذكم هنا القلق وتسارعون إلى المدرسة للوقوف على حقيقة الأمر، فيخبركم البعض أن أصدقاء سيريوجا اتهموه علانية بالنميمة، ووجهوا إليه النقد اللاذع ولهذا السبب فالطفل يعاني بشدة، وليس لديه أشد مرارة من مقاطعة تلاميذ الصف له. وقد يصبح المراهقون عديمي الرحمة، فهم لا يتقيدون كثيراً بالمجاملة والتكلف إذا تبين لهم أن هناك من يخادعهم ويكذب عليهم ويتجاوز مصالح المجموعة التي تشملهم جميعاً ويحاول تحقيق مكاسب أنانية لنفسه ولهذا السبب يسعى المراهق جاهداً لأن يشغل في المجموعة مكاناً مرموقاً معترفاً به ومحترماً. ويسلك المراهقون لبلوغ ذلك سبلاً مختلفة؛ فالبعض يختار طريق التفوق في الدراسة واكتساب المعارف الواسعة، ويحاول البعض الآخر لفت الأنظار إلى أنفسهم عبر اطلاعهم المتعمق في أحد المجالات العلمية أو الثقافية المختلفة. وهناك أطفال

لا يتوقون أبداً للتميز وتعزيز مكانتهم بين الأتراب، ومع ذلك فهم يتمتعون بالاحترام لحبهم للمعاشرة وإخلاصهم في الصداقة واندفاعهم الدائم لمساعدة الآخرين. ونلاحظ هنا مرة أخرى، أن طبيعة العلاقات المتبادلة بين طفلنا ورفاقه تتعلق إلى حد كبير بنا بالمقدار الذي استطعنا فيه أن ننمي داخله روح الصداقة والتعاون والطيبة واحترام الآخرين، أي تلك الميزات التي تقدر عالياً من قبل الشباب اليافعين والكبار على حد سواء. لقد بينت تجارب الباحثين النفسيين أن أهم بنود «دستور الصداقة» عند المراهقين تتمثل بالاحترام المتبادل والمساواة وصدق اللسان والنزاهة، والمراهق الذي تربت في نفسه هذه السمات ليس بحاجة «ليبهر» أصدقاءه بالساعة الإلكترونية التي حصل عليها من والده، أو بالأشياء الملفتة للنظر، وليس بحاجة لاستجداء اعتراف الصف به وارتقاء مركز متميز بصورة مصطنعة عن طريق لفت النظر الدائم إلى نفسه.

يتميز المراهق بالسعي الحثيث لامتلاك الصديق المخلص، فهو لا يكل عن البحث عن صديق حميم يفضي إليه بما تكنه نفسه من أسرار، ويشاركه أسلوب التفكير والنشاط ويخرج معه في تجواله ويشاركه بعض أعماله. ويختار المراهق عادة أصدقاءه من بين زملاء صفه الذين يتمتعون باحترام الجميع ويتميزون عن غيرهم بصفات إيجابية معينة، فالفتيات المراهقات يسعين لمصادقة تلك الزميلات اللاتي يجتذبن الانتباه ويلفتن النظر، ولا سيما من قبل زملائهن الشبان، أما الفتيان المراهقون فيقع اختيارهم على أولئك الأتراب، الذين يتمتعون بالشجاعة وقوة الشخصية، والذين حققوا إنجازات باهرة في الألعاب الرياضية، أو الذين يتمتعون بقوة جسدية كبيرة. فهؤلاء يصبحون مثلاً أعلى يحتذي المراهق به ويقلده في كل شيء في نمط سلوكه ونظرته إلى الأشياء واهتماماته وهواياته، ولهذا فإن شعرتم «بانعقاد» صداقة بين طفلكم وزميل له، عليكم بتقصي الأمور مباشرة والاطلاع على اهتمامات هذا الصديق والأسرة التي يعيش فيها. وبالطبع يجب ألا تؤدي رغبتكم في الاطلاع على أصدقاء ولدكم دور الرقيب الذي يتجسس على كل خطوة يخطوها، كما أنه لا ينبغي الاكتفاء بالتفرج والصمت، فلا مانع من الاطلاع على أخلاق الصديق الجديد الذي ظهر في حياة الطفل، وتقدير مدى

الفائدة التي يجنيها الابن من معاشرة صديق كهذا. وهنا أيضاً يجب التصرف بهدوء وحذر ولا سيما إذا توصلتم إلى قناعة بأن معاشرة هذا الصديق لن تجلب إلا الضرر والسوء لطفلكم. اكتشفتم في جيب سروال ابنكم علبة لفائف وأخذ الابن بالتغيب عن البيت معظم أوقات النهار، وأصبح غير مهتم بدروسه، فهنا يجب إقناع الابن بالتخلي عن هذا الصديق بأسلوب رقيق وهادئ. إن إعطاء الأمر المباشر لولدكم بترك صداقة هذا الزميل قد لا يعطي نتيجة إيجابية. إذ يفضل مساعدة الابن في اكتشاف سوء تصرف من تصرفاته. وهنا، كما في أي موقف حياتي آخر، ينبغي الغوص إلى جوهر الأمور وإدراك البواعث التي تدفع الطفل إلى اتخاذ نمط معين من السلوك وانجذابه نحو صديق غير جدير بالثقة.. وهذا لا يتطلب بذل جهود خارقة وإضاعة الكثير من الوقت والتضحية بالنفس، وإنما يقتضي عدم إهمال الطفل والاعتناء الدائم به حتى بعد أن يشب ويكبر.

لا وجود للاهتمامات دون المشاعر الانفعالية، كالمشاعر الذهنية والجمالية من أجل إدراك ضرورة تنمية اهتمام المراهق بشكل معين من أشكال النشاط، ومن وجهة النظر التربوية، سنحاول تفسير المضمون النفسي لمفهوم الاهتمام.

يعرف الاهتمام بأنه اختيار الشخصية لموضوع معين والتعامل معه بصورة مليئة بالانفعالات الإيجابية، فالإنسان يهتم بذلك العمل الذي يثير الإعجاب في نفسه، وتظهر لديه الرغبة في ممارسة هذا العمل وليس لأن أحداً يرغمه على ذلك أو تحت تأثير حافز مادي. ويستطيع المرء الجلوس لليالٍ طوال في ممارسة عمل ممتع، وينسى الأكل والنوم لبحثه في موضوعات شيقة تستحوذ على فكره أو لدى انشغاله بإصلاح آلة معينة. ويقوم بتكرار عمل ما عشرات المرات وتعديله حتى يتوصل إلى القناعة التي يبغيها أو الهدف الذي يطمح التوصل إليه. والأمثلة على ذلك كثيرة، فلنتذكروا مشاهير العلماء كميندلييف وبيروغوف وفافيلوف وكورتشاتوف وكوروليوف وغيرهم.

ولتنظروا حولكم، فكم من شخص قد كرس نفسه لهدف معين وشغل عقله بفكرة كبيرة واهتمام خلاق، فالحياة بالنسبة لهؤلاء الناس تعني السعي الحثيث والسير المتواصل لبلوغ الهدف الذي يستحوذ على اهتمامهم، والشعور بالمتعة

التي تبرز عند تحقيق إنجازات ملموسة في سعيهم هذا. إن شعور المتعة هذا، الذي يرافق الشعور بالاهتمام والتعلق بالعمل هو بالذات ما يميز الاهتمام عن المعرفة المجردة، فالمعرفة هي أيضاً نتاج رغبتنا في الاطلاع على شيء معين. لكن هذه الرغبة غالباً ما تظهر بشكل إجباري. علينا التقدم لامتحان معين وتعلم شيء مطلوب لاستيعاب أمر آخر متعلق به. أما عندما يترافق السعي لمعرفة أمر ما أو تنفيذ علم معين بالاهتمام والمتعة، فإن الإنسان ينسى في هذه الحالة التعب ولا يحتاج إلى دافع خارجي يحرضه أو حافز يشجعه. يتوجب فقط وجود عامل إضافي بسيط، وهو ثورة انفعالية سريعة بالشعور بالمتعة من وراء ممارسة هذا العمل. حتى توهب لنا الأجنحة لنصبح أقوياء، قادرين على التحليق، واثقين بأنفسنا. وتتدفق في جوانبنا الطاقات الخلاقة، التي لم نعلم أبداً بوجودها في أنفسنا، ونكتشف أنه لدينا قدرات هائلة لم نكن حتى لنحلم بها. ولهذا السبب يعتبر استظهار الدروس عن ظهر قلب دون الانشداد إليها والعمل الخالي من المتعة بمثابة العبء الثقيل والعقوبة الصارمة. بيد أن وعي الإنسان البالغ وإرادته القوية يرغمانه على إنجاز العمل المجرد من المتعة وفعل الشيء الذي لا تتوق إليه النفس، واستيعاب وحفظ المواضيع التي لا تثير المتعة. أما الطفل فمن باب أولى ألا يقوم إلا بفعل ما يثير الاهتمام والمتعة في نفسه لأن بناء شخصيته وجملته العصبية لم يكتمل بعد. ولهذا فمن المهم جداً أن تكون عملية تعليم الطفل مبنية على إثارة الاهتمام في نفسه. ويجب أن يصبح الدافع الرئيس في دراسة الطفل توقه لتلقي المعرفة أو ما يدعى بالحاجة المعرفية. وإذا كان انجذاب التلميذ المستجد إلى الدراسة ناتجاً بتأثير حب الاطلاع والتعرف على الأشياء الجديدة واكتشاف المجهول، فإنه يتشكل لدى الشاب اليافع إدراك كامل لأهمية الدراسة وكونها منبعاً للمعرفة وأساساً لمهنة المستقبل. لذا تصبح عملية الحصول على المعارف بالنسبة لمعظم المراهقين أمراً ضرورياً ورغبة ذاتية مهمة تحفزهم على تثقيف أنفسهم. فنلاحظ أن ابننا الذي كان يقوم سابقاً بتحضير واجباته المدرسية ضمن حدود ما يكلف به فقط، أخذ يمضي وقتاً أكبر في الجلوس وراء طاولة الدراسة، ويحل مسائلاً في الفيزياء لا تقتصر على تلك التي كلف بها وإنما أعقد منها، واشترى لنفسه جهاز لحام كهربائياً، ويجتمع مع أصدقائه في المساء لقضاء

الوقت في «اختراع» أشياء عجيبة. وها هي ابنتنا أيضاً تقضي الليل والنهار بين الكتب والمؤلفات.

إن هذا الميل الثابت الذي يظهر لدى الأطفال نحو النشاط الذهني والتوق للحصول على معارف وخبرات حديثة، والاهتمام الكبير بتلك الأشياء أو غيرها ينبثق عن اهتمامات الوالدين نفسها ويتعلق بنوع العمل الذي يمارسانه. وعبر كون الطفل شاهداً دائماً على ما يجري من أحاديث بين الأهل عن الأعمال التي يقومون بها، فإنه يتشرب بصورة لا إرادية تلك الاهتمامات التي يدور الحديث حولها. وإذا كان عمل الأهل مرتبطاً بالتكنولوجيا فسرعان ما يظهر الطفل اهتماماً بالآلات والمعدات، كما أن ميل الأهل نحو الثقافة والعلوم الإنسانية غالباً ما يصبح حافزاً لاهتمام وتعلق الطفل بالشعر والأدب والفن.

إن الحاجة المعرفية يجب أن تشكل في حياة الشاب اليافع الباعث الرئيس والحافز الأساسي لاهتمامه بالدراسة، إلا أننا غالباً ما نحفز لديه البواعث الخارجية الأقل قيمة. وغالباً ما تصحب تهديداتنا وأوامرنا والثواب والعقاب الذي نمارسه تجاه الطفل عند نجاحه أو فشله في الدراسة عاملاً أساسياً من العوامل المحددة بمستوى دراسته. فلا تعود تثير اهتمامه الأسباب التي أدت إلى نشوء تلك الحرب العالمية الشعواء، أو النواميس التي تتحكم بتشكل الجزئيات الكيميائية المختلفة، لأن الشيء الرئيس يصبح بالنسبة له الحصول على علامة جيدة. لأن الأهل سيكافئونه عليها. أما العقوبات والتهديدات فغالباً ما تدفع الطفل إلى طريق الغش والخداع وتولد فيه الرغبة لتجنب الحصول على علامات سيئة بأي وسيلة كانت. بالطبع لا يمكن للوالدين الشعور بالسرور من دراسة ابنهما السيئة، لكنه يجب الوقوف أولاً على الأسباب التي تمنعه من النجاح، واللجوء لقراءة المؤلفات التي تعنى بتربية الأطفال، ثم المباشرة باتخاذ القرارات اللازمة. إن الدوافع الخارجية ترغم الطفل على المذاكرة فقط وتجعل عملية التعلم والمعرفة أمراً إجبارياً ممجوجاً يقوم بها الطفل بتوتر نفسي شديد. فتنشأ على هذا الأساس العلاقة الخاطئة بالدراسة، والنظر إليها كمهمة إجبارية ثقيلة، وتتولد عدم الرغبة في الذهاب إلى المدرسة والكره الشديد لها والسلوك السيئ والمشاغبة... إلخ.

إن الباعث الأساسي لإقبال الطفل على الدراسة يجب أن يكون الاهتمام المجرد بالدروس وحب الاطلاع والمعرفة. وعلى الرغم من اصطدام الطفل في هذه الحالة أيضاً بصعوبات دراسية جمة، واضطراره لبذل جهود إرادية كبيرة، إلا أن هذه الجهود لا تكون موجهة للصراع مع الذات ومع عدم الرغبة في الدراسة، وإنما مكرسة لتجاوز العقبات الخارجية، لذلك لا تظهر عند مثل هذا الطفل أعراض للتوتر العصبي، وهو لا يقدم على افتعال المشاحنات والخلافات مع معلميه ووالديه، ويصغي لأحاديث المربين باستمتاع، ويطالع المواد الدراسية الجديدة بإقبال شديد ويستوعبها، ويدرس ويبحث باستمرار.

إلا أن تشكل الاهتمام بالمعرفة شيء ضروري ليس من أجل ضمان دراسة الطفل الناجحة وحسب. فاهتمامه بالمعرفة هو في حقيقة الأمر جزء رئيس من شخصيته. إذ إن أهم ما يميز الشخصية هو مقدار النفع الذي تقدمه للمجتمع. ولهذا فإن ظهور الاهتمامات في حياة الطفل في وقت مبكر وانشغاله بالعمل الممتع يحميه من السقوط في مستنقع التسكع وإضاعة الوقت والسلوك الشاذ.

إن اهتمام الطفل بدراسة مادة معينة أو عمل مفيد، وتعلقه بالأدب أو الفن يولد في نفسه أحاسيس ذهنية وجمالية. وقد تكلمنا سابقاً عن الدور المهم للمشاعر الذهنية في تكوين الحاجات المعرفية لدى الطفل ونمو الجانب الروحي في شخصيته. وإذا كانت هذه المشاعر في المراحل المبكرة من حياة الطفل ضعيفة وبدائية، فإنها تصبح في مرحلة المراهقة، إذا توفرت لها الرعاية المطلوبة، مشاعر قوية وثابتة ودافعاً للاطلاع والمعرفة، وحافزاً لتنمية استقلالية التفكير والإبداع.

ما جوهر المشاعر الذهنية ولماذا تعتبر ضرورية للإنسان؟ إن الانفعالات تحفز نشاطنا وتولد فينا الطاقات، وتجعل نظرتنا إلى الحياة مليئة بالاهتمام والنشاط فلو لم تكن الانفعالات موجودة لما كان السعي والتعجب والرغبة في معرفة الجديد واكتشاف المجهول، أي لما تطورت الملكات الذهنية عند الإنسان. تتولد المشاعر الذهنية من الدوافع المعرفية. لذلك فهي ترافق النشاط الذهني وعملية التفكير في جميع مراحل تطورها، إذ إن عملية التفكير ذاتها تنشأ عند ضرورة الإجابة عن سؤال معين وحل قضية ما واجتياز صعوبة طارئة، وإدراك أمر غير مفهوم.

إن المشاعر الذهنية تتبع من النشاط المعرفي والتعلم في المدرسة ومطالعة الكتب والمؤلفات ومن ممارسة العمل المثمر الإبداعي والتفكير الذي لا يكل عن البحث. فعندما نبحث في كتاب معين نشعر بسعادة الحصول على المعرفة، وعندما ندرس تلك الجوانب أو غيرها من الأبحاث التي تهمنا، ونجد أنها تناقض الحقائق التي نعرفها، فإننا نشعر بالشك تجاه صحة ما قرأناه. ولدى إجراء البحوث والاصطدام بهذه الصعوبات أو تلك فسوف نكرر بعناد التجارب المختلفة. إن حب الاطلاع والمعرفة الذي يحفز فينا الرغبة لدراسة الظواهر المثيرة للاهتمام، والثقة في صحة الحلول التي نعتمدها عند حل المسائل التي نواجهها، والبهجة التي نحس بها أثناء ذلك، والاستمتاع بالعمل المحبذ، والشعور المرير بالفشل والإخفاق الذي يحفز الرغبة في البحث عن حلول جديدة. هي قلة قليلة من جملة المشاعر المتعددة والمعقدة، التي نحتاج إليها في حياتنا والتي ندعوها بالمشاعر الذهنية.

إن الإيمان الراسخ والثقة بصحة الحلول تترافق دوماً مع شعور الرضا والارتياح، أما شعور الشك فيرغم صاحبه على التكرار مرات ومرات والبحث عن الحلول الصحيحة والحقيقة الثابتة. «أنا أفكر، إذاً أنا موجود». إن مقولة ديكارت هذه تعكس بدقة متناهية أهمية المشاعر العقلية في حياتنا ونشاطنا العملي. لقد أوضحنا أهمية المشاعر الذهنية في تربية الطفل فما هي أهمية المشاعر الجمالية؟

تبرز المشاعر الجمالية لدى الإنسان عند تدريبه على الإحساس بالشيء البهي والجميل. فنحن نتغنى بجمال الطبيعة، ونتمتع بما أبدعه الفنانون، وتأسرنا الموسيقا العذبة، ويأخذنا جمال الإنسان. جميع هذه المشاعر هي أحاسيس جمالية. وتذهب جذور هذه المشاعر في الماضي البعيد. إذ كان الإنسان البدائي يرغب على الدوام في سماع الأصوات المتناغمة العذبة، وعبر على الصخور وجدران الكهوف عن كل شيء أدهشه بجماله وتناسقه، ولم يصنع من الطين أواني الطعام فحسب، بل وتلك الأشياء التي أراد منها أن تثير البهجة والفرح عند الآخرين وتشعرهم بمتعة الجمال. هذا التوق إلى الجمال الذي يميز الإنسان وحده يرافقنا طوال الحياة، فنحن نزين المأوى الذي نعيش فيه، بحيث يصبح ما حولنا جميلاً وممتعاً للنظر، ولا نرتدي الثياب اتقاءً من تأثير البرد والحر، وإنما نسعى لأن تكون ذات ألوان مريحة وجميلة

وجذابة ونرغب في تناول الطعام من آنية أنيقة وجميلة على طاولة مغطاة بغطاء أبيض ناصع. ونتوق لرؤية الشوارع النظيفة والبيوت الجميلة. وتختلف المشاعر الجمالية عن غيرها بأنها تؤثر في الإنسان بصورة هادئة ولطيفة.

إن الجمال يحيط بنا في كل مكان: الطبيعة والفن والأدب والرسم والموسيقا. إننا نستمتع بتأمل الحديقة المزهرة في الربيع وبمنظر بساط الأقحوان الأبيض الذي يغطي المروج، ونستطيع النظر إلى البحر إلى ما لا نهاية. وعلى الرغم من مشاهدتنا المتكررة لمنظر الشفق الأحمر عند الغروب. إلا أننا نقف في كل مرة لنستمع من جديد ونتأمل المشهد الخلاب، ونستمتع كل عام بمناظر الخريف الذهبي.

إن الفن الذي يعكس جوانب حياتنا المختلفة بجمالها وعظمتها يثير في أنفسنا أحاسيس جمالية ذات خصائص مميزة. فنحن ندرك أن الأعمال الفنية الرائعة تقدم لنا انعكاساً صادقاً عن حياتنا الواقعية. لذلك فالعمل الفني المميز يثير في أنفسنا طيفاً واسعاً من المشاعر الجمالية، كالابتهاج والإعجاب والدهشة والحزن والاستنكار والأسى، ويفسر تعقد المشاعر الجمالية بظهورها المتأخر عند الأطفال بالمقارنة مع المشاعر الأخرى. إلا أنه يمكن ملاحظة انجذاب الطفل الصغير نحو الألوان الزاهية واللطيفة والموسيقا الرقيقة.

وتثير الأصوات الموسيقية المعتدلة لدى الطفل مشاعر السرور والارتياح. فيأخذ بالتصفيق وتحريك رجليه فرحاً، ويبتسم جذلاً. ومع نمو حساسية الطفل تجاه الألوان يأخذ في البداية يتذوق الألوان الهادئة والمعتدلة والمتناسقة: «هذه الزهرة جميلة وتلك لا تعجبني، وهذا رسم ناجح، أما ذاك فشيء غير مفهوم ذو لون أغبر غير جميل». ومع تقدم الطفل في السن تأخذ مشاعره الجمالية بالتعقد، وتشتد به الرغبة لإدراك جوهر الجمال: ما هو السبب الذي يدعو الناس للإعجاب بهذا الشيء الجميل أو ذاك، أو تلك اللوحة الفنية، أو ذلك التصرف الإنساني الأخلاقي؟

إن تربية المشاعر الجمالية لدى الطفل لا تقتصر فقط على تنمية حدة البصر والسمع لديه، وإنما تشمل تنمية مقدرته على استيعاب تناسق وجمال الواقع المحيط به لكيلا يرى في غروب الشمس مجرد حقيقة تخبره أن يوم الغد سيكون مشمساً

أو ماطراً ، بل لكي يتذوق تناغم وتناسق ألوان لوحة الغروب البديعة ، ويجب أن يكون لكل شيء بالنسبة للطفل، بالإضافة إلى قيمته العملية ، جانب جمالي نفسي. عند ذلك يصبح بإمكاننا الثقة بأن الطفل لن يؤذي هذا الجمال بسبب ما قد يعانيه من شعور بالفراغ والبطالة؛ فلن يتلف ساق الشجرة حتى يخطط اسمه عليها ولن يتلف الورود وينتزعها من جذورها. إن نظرة الطفل الجمالية إلى الطبيعة تجعله إنساناً رقيقاً طيباً ومتكاملاً.

ومن أهم الوسائل التي تنمي في الطفل المشاعر الجمالية هي الأدب والفن. فالمؤلفات الفنية واللوحات والشعر والأدب والموسيقا تثير حماس الطفل وتنال إعجابه وتغمره بشعور البهجة. وفي الأدب والفن يتحد الجمال مع القيم الروحية والأخلاقية ، فقد قال ف. أ. سوخوملينسكس إن الفضيلة مرتبطة بصورة وثيقة مع الجمال.

شعور الحب
هل نفرح به، أم نخشى منه؟

وهكذا، انتهت أحزاننا ومرت المرحلة الصعبة وشب ابننا، ولم يعد لديه ذلك التوتر والعصبية والعناد والفظاظة الزائدة. لقد أصبح شاباً متزناً هادئاً، وبدأ يصغي لوصايانا، وعادت إليه طيبته واهتماماته بمن حوله. وأصبح يتفهمنا جيداً ويدرك اهتماماتنا، وغدت أحزاننا وأحزانه مشتركة وما يشغل بالنا يقلقه أيضاً. وما زال يقوم بفظاظة طفولية، وبعزيمة أكيدة، على اختطاف الحقيبة الثقيلة من يد أمه للتخفيف عنها: «إلى أين تذهبين بهذه الحقيبة الثقيلة؟ أعطنيها فسأحملها بنفسي»، أو أن يقول لأبيه: «إياك أن تذهب وتحضر البطاطا بنفسك، فلتنتظرني حتى أعود من المدرسة».

وتجتاز الفتيات هذه الفترة الصعبة من العمل بشكل أسهل، مع أنها تترافق أيضاً بالعناد والسلبية والتمسك بالرأي، ولا سيما بما يتعلق باختيار الثياب والأزياء والعروض السينمائية والمؤلفات الأدبية والألوان الموسيقية... إلخ.

لقد أصبحت الآن حياتنا مع أطفالنا أسهل وأكثر هدوءاً، فلم يعد المعلمون يدعوننا إلى المدرسة بشأن سوء سلوك ولدنا أثناء الدروس، ولم نعد نرى الملاحظات في سجله التي تشير إلى قيامه بالمشاغبة في الصف، أو بشد زميلته في المشى من جديلتها... إلخ. كما أن مستوى دراسته قد تحسن أيضاً، فالابن أو الابنة أصبحا على اهتمام أكبر بالدروس. وهنا يبدو وكأنه أصبح بإمكاننا التنفس بسهولة والخلود إلى الراحة: «ها نحن أخيراً نستطيع التمتع بحياة هادئة»!. لكن الهدوء يبقى حلماً بعيداً عن الواقع. إذ إن مرحلة الشباب لا تمر دوماً بسلام وتخبئ الكثير من المفاجآت للوالدين والأبناء على حد سواء، ونصطدم في هذه المرحلة أحياناً بأصعب العقبات وأخطرها بالمقارنة مع ما واجهنا من صعوبات لا تذكر في المرحلة السابقة. والحديث يدور هنا حول تلك المظاهر النفسية الجديدة التي تأخذ بالتشكل في سن الشباب. إن هذا السن معقد وخطير، فالإنسان

يقف على عتبة الحياة المستقلة واختيار السبيل الذي سيسير فيه، ويقدر إمكانياته واهتماماته وميوله. بالإضافة إلى ذلك يكتمل لديه تشكل الحقل الانفعالي بظهور شعور الحب. وليست قليلة تلك الحالات التي تبقى فيها مشاعر التعلق الأولى بزميلة المدرسة، والتي تتحول فيما بعد إلى شعور بالحب وثابت في النفس كشيء عزيز ونظيف وكذكرى غالية بالطبع، ليس كل شاب أو فتاة يشعر بالضرورة في فترة شبابه بمشاعر الحب. ومع ذلك ينبغي علينا توقع إمكانية ظهور مشاعر الحب لدى أبنائنا وجعلهم مهيئين لملاقاة هذه المشاعر بشكل سليم. لهذا السبب يتوجب أن نفهم جيداً جوهر فترة الشباب، وأن نتعرف على تلك المقدمات التي يمكن أن تصبح حافزاً لولادة هذه الظاهرة المهمة والمعقدة في حياة الإنسان، والتي تتمثل بشعور الحب.

وتعتبر مرحلة الشباب بشكل عام فترة اكتمال الشخصية بجميع جوانبها، وبالدرجة الأولى الجوانب الانفعالية ووعي الذات. وسنحاول تفسير معاني هذه المصطلحات. فوعي الذات هو إحدى البنى النفسية المعقدة والتي تشمل إدراك «الأنا» الذاتية والإمكانية المتاحة لها، بالإضافة إلى وعي الملكات النفسية المميزة لها، كالميزات الإرادية والأخلاقية والخلقية. وقد تحدثنا في الفصول السابقة عن أن وعي الذات يتشكل في مرحلة مبكرة جداً؛ فالطفل الصغير يميز نفسه عما يحيط بها، ثم ينتقل لوعي ذاته عبر «الأنا» المميزة والمستقبلة. أما المراهق فيستطيع تمييز بعض سماته النفسية بدقة مقبولة، ويمكنه تقدير إمكانياته بصورة موضوعية.

أما في مرحلة الشباب فتتخذ بعض جوانب وعي الذات أهمية خاصة بدءاً من تقدير الشاب لمظهره الخارجي حتى اعتباره لصفاته الأخلاقية، فالشاب (أو الفتاة) يحاول النظر إلى نفسه من منظار جانبي ويقارن نفسه بأولئك الناس، الذين يعتبرهم قدوة ومثلاً أعلى، ويحاول أن يدرك المدى الذي تتطابق فيه سماته الخارجية والداخلية مع تلك الصفات المثالية التي يسعى لامتلاكها. ويمكن للشاب ألا يقتدي بأشخاص محددين وحسب، وإنما ببطل إحدى الروايات التي يقرأها أو الأفلام التي يراها، أو برياضي شهير أو مغن ناجح... إلخ. فالشخصيات التي توقع الشاب أو الشابة في «الحب» لا تعد ولا تحصى، وترغمهم على السعي وبذل كل الجهود للوصول إليها، وتجعلهم يقلدون كل شيء فيها بدءاً من طريقة المشي وطريقة التعبير

والإيماء حتى التوق لأن يصبحوا صورة طبق الأصل عن تلك الشخصيات الشهيرة التي وقعوا بغرامها.

إلا أن الشيء الذي يثير الشاب بالدرجة الأولى هو المظهر الخارجي. وإذا كان فيما قبل لا يهتم بجملة أمور كلون الشعر وقوة عضلات الكتف وطول القامة وعرض الأكتاف، فإن هذه الأمور تصبح الآن أول ما تشغل باله. فيأخذ الشاب بالاهتمام بمظهره الخارجي وتأمل نفسه طويلاً أمام المرآة ليقارن بين ذاته وبين ذلك المثل الأعلى الذي اختاره لنفسه. فهو يرغب أن يكون قوياً عضلياً وذا جسد متناسق وعضلات مفتولة، وواثقاً من جمال شخصيته وقوة جاذبيته. لذلك يعاني الشاب كثيراً إذا كان يعتقد أنه ذو أنف غير جميل أو آذان كبيرة أو جسم واهن، أو عندما يضطر لارتداء النظارات الطبية بسبب إصابته بقصر النظر. إذ إن مثله الأعلى رجل قوي جسدياً، شجاع، واثق من نفسه وبمقدرته على ترك انطباع حسن عند الجنس الآخر.

أما الفتيات الشابات فيشعرن بنواقص مظهرهن الخارجي بصورة أشد. ونظرة الكثير منهن تجاه أنفسهن تكون شديدة الصرامة: «كيف يمكن لأنفي الأفطس أن يعجب أحداً؟ أما هذه الأسنان العوجاء، وهذه القامة القصيرة! فكيف يمكن أن يلتفت أحد بنظرة نحوي»؟ وليس من النادر أن تصبح مثل هذه المشاعر سبباً لتولد الخجل وعدم الثقة بالنفس لدى الشابات. وتكون مثل هذه الشابة عادة غير طليقة منغلقة على نفسها وتصعب عليها معاشرة الآخرين، وتفقد رباطة جأشها في حضرة الشبان. إذ تتصور نفسها «بطة بشعة» بالمقارنة مع زميلاتها الحسناوات، اللواتي يشعرن بالثقة التامة بالنفس.

وبالطبع فهناك «نماذج» معاكسة تماماً وعندما تكون الشابة واثقة بنفسها ومزهوة أكثر من اللازم، وتتوق بشكل صارخ لنيل إعجاب الآخرين وترك انطباع مؤثر فيهم، وهنا تتجلى رغبتها العارمة في أن تكون مركزاً للاهتمام ومحطاً للأنظار. وبالتأكيد فإن هذا التطرف في السلوك هو أمر غير محبذ. وعلى الرغم من ذلك يتميز معظم الشبان والفتيات الشابات في هذه المرحلة من العمر بحساسيتهم الشديدة تجاه المنظر الخارجي، ويظهرون انتقاداً مفرطاً تجاه نواقصهم، ويبالغون في تقدير عيوبهم. ومن هنا تظهر رغبتهم الملحة في التزين والتبهرج وإبراز محاسن الجسد وإخفاء الأشياء التي يعتبرونها عيوباً. ويظهر لذلك لديهم هذا الاهتمام الكبير بالثياب

والأزياء. ولهذا ينبغي عدم التعجب والإصابة بالدهشة إذا أظهرت ابنتنا التي كانت سابقاً عديمة الاهتمام بالثياب، رغبة كبيرة بارتداء الأزياء الحديثة. فتراها تلاحقنا بتوسل ورجاء لكي نشتري لها الثياب الجديدة، فهي تتصور أن الثياب وحدها يمكن أن تجعلها جذابة وتعطيها الثقة بالنفس وتجعلها في مستوى زميلاتها... اللواتي يجتذبن الانتباه ويلفتن الأنظار ويثرن الإعجاب. وتتوق الفتاة الشابة أن تكون شبيهة بالفتيات اللواتي يثرن إعجاب الرجال، وبما أن القدوة التي يحتذين بها غالباً ما تكون مأخوذة من بين بطلات الأفلام السينمائية، لذلك يسعين على الدوام لتقليدها في كل شيء. والمصيبة أن هناك بعض الأفلام السينمائية التي تكون فيها البطلة تلك الحسناء التي يتصارع الجميع من أجل الفوز بحبها، والتي تتصرف بحرية في الاستجابة لمشاعر حبيبها، وترتدي الثياب الحديثة، وهي بالتأكيد تدخن اللفائف وتتصرف بسهولة. ولذلك يعتقد الكثير من الفتيات اليافعات، اللواتي يشاهدن ويتأثرن بمثل هذه الأفلام أنه يكفي أخذ اللفافة بين الأصابع وفتح الذراعين للمعجبين، والإجابة عن النظرات الحميمة، حتى يصبحن مثار الاهتمام، ويوقعن الجميع في غرامهن.

تشير بعض الأبحاث الاجتماعية إلى أن سعي بعض الشابات للتحرر من المعايير السائدة غالباً ما ينصب في رغبتهن بتدخين اللفائف أو احتساء الخمر بهيئة واثقة ورزينة... إلخ. إن هذه النظرة الخاطئة يجب أن تستبدل بتصورات ومعتقدات حياتية مغايرة. فكم نسمع أن الابن في إحدى الأسر قد ارتبط بجماعة سوء فاشلة، وأن الابنة التي لم تتجاوز السابعة عشرة من عمرها في أسرة أخرى تسعى للزواج بأي وسيلة إخفاء للفضيحة، إذ إنها تقضي معظم وقتها خارج البيت. وقد تشاهدون أحياناً فتاة مضطجعة على إحدى المقاعد في الحديقة العامة تدخن لفافة وهي في حالة من السكر الشديد، وثلة من الشبان اليافعين يحومون حولها. إن هذه المشاهد أصبحت قليلة في وقتنا هذا لكنها تثير القلق الشديد في أنفسنا وتجعلنا نتساءل: أليس من الممكن أن تقوم ابنتنا أيضاً بتصرفات كهذه؟ وماذا لو اضطر ابننا الشاب أن يتزوج امرأة ساقطة وهو ما يزال في الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة من عمره؟ ويكون محظوظاً إذا وقف الأمر عند هذا الحد وأصبحت هذه المرأة زوجة صالحة فيما بعد، أما إذا تهدم هذا الزواج في بدايته بالطلاق وبقي الطفل نصف

يتيم! لهذا السبب يتوجب التهيؤ لاستقبال إمكانية ظهور مشاعر الحب عند أبنائنا البالغين.

إن الرغبة في نيل إعجاب الآخرين، التي تظهر في سن الشباب، والسعي للفت الانتباه من قبل الجنس الآخر هي أمور طبيعية تماماً، وترتبط بتلك التغيرات في البنية النفسية لشخصية الشاب، التي تظهر في هذه المرحلة من العمر، ويمكن للرغبة في نيل الإعجاب أن تتطور لتصبح شعوراً بالحب، أو أن تقود إلى «حرية المعاشرة والاختلاط». إن الصعوبة النفسية لشعور الحب تكمن في أنه شعور مركب ومتشعب. فهو يشمل المشاعر الجنسية والحسية إلى جانب المشاعر الروحية والرومانسية المقدسة.

وهذا بالذات ما يميز الحب الإنساني عن الغريزة الحيوانية، إذ أنه يحوي العفة والحصانة والرقة والسمو الأخلاقي. وقد لا يكون هناك ضرورة للتحدث عن مدى قوة وعمق هذا الشعور ومقدار ما يمكن أن يغير في نفس الإنسان ويجعلها أسمى وأنبل. فالأمثلة على ذلك في الحياة الواقعية وفي المؤلفات الأدبية لا تحصى. إن شعور الحب هو شعور معقد، ويبدو أحياناً - إذا صح القول - متناقضاً وغير منطقي ومثيراً للدهشة: «ما الذي أعجبه فيها؟ إنها خالية من أي جمال، وعلى الرغم من ذلك وقع أسيراً في حبها»: «ماذا وجد فيها؟ لا أفهم شيئاً: فتاة مدللة، أنانية، لا تفكر إلا بنفسها وبمظهرها الخارجي. أما هو فلا يفكر إلا بها ولا يريد أحداً سواها». وبالفعل، فكثيراً ما يمكن للشاب أن يعجب بفتاة لا تتمتع بصفات روحية سامية، لأن الشاب في هذه المرحلة من عمره لا يقدر في الفتاة الطيبة والتواضع. وفق أي قوانين يعجب الشبان والفتيات ببعضهم البعض؟ وما هي العوامل التي تشدهم إلى بعضهم؟ تبقى هذه الأسئلة غامضة دون جواب. إنه معجب وفقط. ويكون حظ الشاب جيداً إذا كان هذا الحب حقيقياً وشعوراً روحياً عفيفاً، كالشعور الذي يحلم به جميع الشبان والفتيات الشابات. أما إذا كان ذلك مجرد رغبة جنسية مقدمة بستار شعور الحب، فإن الرغبة الجنسية تزول بعد إشباعها كأي حاجة أخرى، ولا يبقى بعد ذلك إلا الحزن والمعاناة. وتشير الأدلة المختلفة إلى أن الرغبة الجنسية تظهر عند الشاب والفتاة بصور مختلفة؛ فهي تظهر عند الشاب بصورة أكثر حدة تدفعه للسعي لإشباعها، وتنصب في نزوة جنسية محددة، في الوقت الذي تكون فيه عند الفتيات ظاهرة بشكل أقل حدة، لأن الفتاة تبحث في شعور

الحب قبل أي شيء عن الجوانب الروحية الرومانسية. كتب البروفيسور إ. س. كون: «إن الحب الجنسي الناضج هو الوحدة المتناسقة بين الرغبات الحسية والحاجة العميقة في المعاشرة الشخصية القريبة مع الإنسان الحبيب. إلا أن هاتين الحاجتين تنضجان في أوقات مختلفة. فعلى الرغم من أن الفتيات يبلغن مرحلة النضوج الجسدي قبل الفتيان، إلا أن حاجتهم في هذه الأثناء إلى الملاطفة والرقة والعواطف الحارة أشد من رغبتهن الجنسية. أما الوضع عند الفتيان فهو العكس تماماً، إذ غالباً ما تظهر عندهم بادئ الأمر المشاعر والنزوات الحسية، ثم تليها المشاعر الروحية.

ويمكن لهذه النزوات أن تبحث عن تحقيق لها عن طريق التجربة الفعلية. وسيتعلق الكثير آنئذٍ بنظرة الفتاة إلى هذه المسالة، وبمقدار ما تكرس في نفسها شعور العفة والكرامة الشخصية، والسيطرة على الذات والمقدرة على التحكم بالرغبات. بالطبع، قد تقع الفتاة أيضاً تحت سيطرة الحب والرغبة الجنسية لحاجتها للحنان وللفت الاهتمام، وإذا سارت الأمور بصورة ملائمة لتحقيق هذه الرغبات وشعر الشاب أو الشابة بحرية التصرف التامة وغياب رقابة الأهل، فقد تقودهم هذه الحرية إلى الوقوع في التجربة الجنسية. ولذلك، فمن الطبيعي أن يشمل اهتمامنا بأبنائنا، بالإضافة إلى إبراز الثقة بمقدرتهم على السلوك الصحيح وضبط النفس، تحذيرهم والسعي لحمايتهم من الوقوع في مطبات هذا السن الخطير، ومساعدتهم لاجتيازه بسلام. قد تكون ابنتنا طيبة وحسنة السلوك، وطيبة المعاملة معنا، ورقيقة وذكية وعزيزة النفس، إلا أن حالة التحرر التام من أي قيد وانعدام الرقابة قد يساهم، مع رغبتها الشديدة بحنان الرجل، في إيقاعها بالشيء الذي يقلقنا على الدوام. وهذا يمس بشكل خاص أولئك الشبان والفتيات، الذين لم يحصلوا على القدر الكافي من حنان الأهل لجملة أسباب محددة، منها جفاء الوالدين أو لا مبالاتهم وقسوتهم الزائدة عن الحد. وهنا يصبح الحنان الذي تزداد حدته بدافع الغريزة الجنسية شيئاً شديد الجاذبية. ويصبح هذا الأمر واضحاً إذا تذكرنا مدى أهمية حنان ورعاية الأهل لطفلهم، وكيفية تعطش الطفل لكل لمسة عطف واهتمام من قبل والديه ومن حوله.

والآن لنتصور طفولة خالية عموماً من الصعوبات المادية، لكنها مليئة بمظاهر اللا مبالاة من قبل الأهل، حيث يشعر الطفل أن والديه مشغولان عنه بأعمالهما التي

لا تنتهي: بشراء الحاجات المختلفة ومعاشرة الأصدقاء والقيام بزيارتهم... إلخ. أما عالم الطفل الروحي واهتماماته وهواياته فهي أشياء منسية ولا يوجد وقت للالتفات إليها. عند ذلك يشعر الطفل بحاجته إلى العطف والحنان بصورة حادة. ومع ذلك فالسعي لإشباع الرغبة الجنسية لا يرتبط دائماً بالحاجة إلى العطف والحنان، إذ يمكن لهذه الحاجة أن تظهر بصورة مستقلة، وتشتد أكثر كلما كان الشاب أو الشابة أقل انشغالاً بالعمل الجسدي وممارسة الرياضة، وكلما كانت اهتماماته أقل. وهنا تأخذ الرغبة الجنسية، التي لم تخفف حدتها عن طريق إشغال الفتى أو الشابة بالنشاطات المختلفة، بالتجلي بشكل واضح. ولهذا فإن حالة الانشغال التام بالأعمال الجسدية والاهتمامات الروحية تعتبر من أهم العوامل التي تساعد على اجتياز الرغبات الجنسية التي تظهر في وقت مبكر. من جهة أخرى، فإن التربية الصحيحة للشاب والفتاة انطلاقاً من نظرة الاحترام العميق لشعور الحب والتأكيد على جوانبه الروحية والعاطفية، هي أمر لا بد منه لكي لا يرى أبناؤنا في الحب مجرد شهوات حسية وغريزة حيوانية. لكن كيف ومتى يمكن البدء بمصارحة الأبناء حول العلاقات الحميمة بين الجنسين؟ تعقد هذه الأحاديث عادة ببالغ الصعوبة، وتشعرنا دوماً بالحرج البالغ، وحتى الأطفال، فهم يحاولون عدم الخوض فيها وتجنبها. ويسعون للحصول على معلومات بهذا الشأن عن طريق الغير وبسبل أخرى. وبغض النظر عن كل شيء، فإن هذه المعلومات تبقى ضرورية جداً، لأنها تجعل نظرة الشاب اليافع إلى العلاقة بين الجنسين أكثر واقعية ودقة مما ينعكس إيجابياً على سلوكه في هذا المجال. فقد يصبح الشاب أو الفتاة أكثر تقيداً وصلابة في إظهار هذه المشاعر عندما يدركون الجوانب العاطفية والروحية الحقيقية لشعور الحب، وما يميزه عن الشهوة الجنسية العابرة. ولهذا فإن التربية الجنسية للأبناء هي أمر ضروري. إلا أنه يفضل بالطبع أن تأتي هذه التربية بصورة غير مباشرة، وقد يكون من الأفضل أن يتلقاها الطفل عن طريق أشخاص آخرين غير الوالدين كبعض الأقرباء والأصدقاء الراشدين. كما يمكن أيضاً وضع بعض المؤلفات التي تبحث في هذا المجال بين يدي الأبناء ليطلعوا عليها بأنفسهم، أو نصحهم بحضور بعض الندوات والمحاضرات التي تنير لهم جوانب هذه المسألة. وتزداد ضرورة هذه الثقافة في عصرنا الراهن، عصر السرعة

والسباق مع الزمن، حيث يجري النمو الجسدي للجيل الجديد بسرعة، وتظهر الرغبات الجنسية في وقت مبكر، في حين أن هؤلاء الأبناء ما يزالون عاجزين عن تحمل أعباء تكوين أسرة خاصة بهم، مما يجر إلى الكثير من المآسي. فهل ينبغي الحفاظ على حياة الجنين الذي أتى كثمرة للعلاقة غير الجدية والشهوة العابرة، أم الوقوع في جريمة التخلص منه؟ وهل يتوجب الزواج من الفتاة التي اتضح أنها ليست تلك التي يهواها القلب، أم تركها وحيدة مهيضة الجناح؟ ما أكثر مثل هذه الحالات التي نصادف فيها مثل هذه المآسي في حياتنا. فها هو ابننا الذي لم يتم السابعة عشرة من عمره بعد يعلن لنا فجأة عن عزمه على الزواج وهو ما زال مجرداً من الإمكانيات المادية والنفسية اللازمة للقيام بهذا العبء. أما ابنتنا اليافعة فهي متأكدة أنها قادرة وهي ما تزال في عامها السادس عشر أن تضع مولوداً، وتتابع حياتها السابقة الخالية من أي التزامات وهموم لتعيش في كنف من حولها.

ولهذا كله يتوجب علينا الاضطلاع بمهمة تعليم أبنائنا التحكم بأنفسهم، وأن يروا في شعور الحب أفضل جوانبه وأسماها، والنظر إلى مشاعرهم بجدية كاملة. وقد أكد أ. س. ماكارينكو أن الحب الإنساني «لا يمكن أن يكون انعكاساً نابعاً من أعماق الشعور الجنسي الغريزي الساذج. فالطاقات الخلاقة للحب الإنساني الحقيقي يمكن أن توجد خارج ميل الإنسان لإشباع رغبته الغريزية الجسدية. فالشاب اليافع لن يقدر على محبة زوجته محبة حقيقية، ما لم يعش هذا الشعور تجاه والديه وزملائه وأصدقائه. وكلما كان مجال هذه المحبة الروحية أوسع، أصبح الحب الجسدي أرقى وأسمى».

يتمحور شعور الحب حول قطبين رئيسين متعاكسين: فالقطب الأول يتمثل بالسعي للوصول إلى الشخص الحبيب، وامتلاك الحق بالعيش معه بهناء، والجانب الآخر يعبر عن التضحية اللا محدودة المجردة وبذل كل نفيس في سبيل ذلك الإنسان الحبيب. فإذا كان هذان القطبان متوافقين بصورة ناجحة في نفس الشاب، فيمكن آنئذ العيش بهدوء وعدم القلق على مستقبله، وإن تلاشت الشهوات الغريزية في هذه الحالة، إلا أن الاهتمام المتبادل الذي يبديه الزوجان، والعطف والحنان الذي يظهرانه تجاه بعضهما البعض سيجعل أسرتهما متماسكة وسعيدة.

المشاعر الأخلاقية

إن مجال المشاعر العاطفية المتشعبة لسن الشباب لا يقتصر فقط على مشاعر الحب والصداقة والتعلق. فسن الشباب هو مرحلة تكوّن الشخصية ونمو جوانبها الأخلاقية والوطنية، وهو مرحلة اختيار الطريق الذي سيسلكه الشاب في عمله ومهنته، وفترة تحديد الاهتمامات والهوايات وتشكل تلك الصفات الثابتة الأخلاقية والإرادية والشخصية، التي تحدد فيما بعد الحافز الرئيس لسلوك الإنسان. إن جميع الجوانب التي نعتبرها إيجابية أو سلبية في سلوك أبنائنا تتحدد على مدى سنوات معاشرتنا لهم. إلا أن مرحلة الشباب تتميز باحتداد السمات المميزة للشاب وبروزها بصورة جلية. وتظهر هنا بوضوح جميع الأخطاء التي ارتكبناها والهفوات التي وقعنا فيها والمسائل التي عجزنا عن حلها في تربية الطفل، حيث تنعكس جميعها عليه بصورة مختلفة، كالقصور والتقاعس عن العمل والتطفل على الآخرين، ولا سيما على الوالدين، وعدم تقدير المسؤولية والرغبة في الوقت نفسه بالتمتع بملذات الحياة المختلفة وبالدرجة الأولى الملذات المادية. وعلى العكس، فكل ما بذلناه من جهد وعمل مخلص في تربية طفلنا، وما قدمنا له من عطف ورعاية، وبقدر ما سعينا بجد لاستطلاع عالم اهتماماته وأهدافه وهواياته، فكل ذلك ينصب في شعور بالصداقة الحميمة مع هذا الإنسان الذي أصبح على أبواب الرجولة. ومن المستبعد في هذه الحالة أن نصطدم بأي صعوبات أو سوء تفاهم واختلاف في وجهات النظر.

يكتمل في سن الشباب تشكل الجوانب الأخلاقية الواعية للشخصية، التي تشمل المعتقدات الأخلاقية والمشاعر الأخلاقية وأشكال السلوك الموافقة لها. فالوعي الأخلاقي، حسب تعريف الباحثين في علم الأخلاق، هو نوع خاص من التفكير، الذي لا يعتمد على مقولات منفصلة، وإنما على تشكيلات فكرية متكاملة توحد في ذاته بصورة وثيقة ما بين الملاءمة والانفعالية. إن الوعي الأخلاقي

الذي يعتبر أرقى شكل للتطور الأخلاقي للشخصية لا ينمو في العدم، إذ تتشكل عناصره على مدى جميع مراحل نمو الطفل.

وقد قمنا في هذا الكتاب عبر تقديم الوصف الدقيق لهذه المرحلة من العمر أو تلك بالتعرض لمسائل التطور الأخلاقي للشخصية. فالأهل والمربون يسعون جاهدين لأن يخلقوا من الطفل إنساناً شريفاً ومواطناً مخلصاً لوطنه ومجتمعه، وشخصية نشيطة ومثقفة. وتعتمد هذه الصفات جميعاً على القاعدة الأخلاقية. لذلك فإن مسائل التربية الأخلاقية للطفل يجب أن تحتل مكان المقدمة في نشأته وتبلور شخصيته المتميزة. إن معتقدات المرء الأخلاقية تتحكم بسلوكه، فهي تضع حداً لرغباته بالتصرف بشكل غير لائق مخالف للمعايير الأخلاقية، أو بالعكس، تحفزه على القيام بأعمال حميدة وسامية وذات نفع عام. والشاب الذي يحيى في أسرة تسود فيها قواعد السلوك الأخلاقية يدرك جيداً أن الحياة في المجتمع تنظم بواسطة قواعد أخلاقية محددة، ويعرف أنه لا يمكن العيش دون التوفيق بين الرغبات والمصالح الشخصية وبين رغبات الناس الآخرين ومصالحهم، وأنه يتوجب في بعض الحالات كبت الرغبة الشخصية وضبط النفس، وينبغي أحياناً أخرى التنازل عن شيء ما عزيز على النفس من أجل المصلحة العامة، وأن الضمير والواجب والشرف وعزة النفس والزمالة هي مفاهيم تميز العلاقات الأخلاقية المتبادلة بين الناس، وأن الصفات الأخلاقية بشكل عام تضطلع بمهمة تنظيم سلوك الإنسان والتحكم به. لذلك تأخذ المشاعر الأخلاقية أهمية بالغة. إن معايير السلوك الأخلاقية بحد ذاتها لا تستطيع أن تؤمن بالضرورة سلوكاً أخلاقياً صحيحاً. فقد نكون على علم تام بوجوب التعامل مع إنسان ما باحترام بالغ والتصرف معه بطيبة ورقة. لكن العقل يمكن في الوقت نفسه أن يوحي لنا: «لا يتضمن هذا الشخص بالنسبة لي أي أهمية، لذا يمكن عدم الاجتهاد في مسايرته وملاطفته» «إنني أيضاً متعب وعائد التوة من العمل، أما العجوز فلا بد أنها قضت معظم الوقت في الجلوس على مقعد الحديقة، لذا يجب عدم إبداء الاهتمام الخاص بها». بهذا الشكل يقوم عقلنا بالمراوغة والتفنن في الاحتيال وخلق الأعذار المختلفة، وتسهل مهمته إذا كان سلوكنا غير مشبع بالمشاعر الأخلاقية، كشعور الواجب والضمير وعزة النفس

والعطف على الآخرين. إن المشاعر الأخلاقية التي تدخل في منظمة الوعي الأخلاقي تقوم بمهمة «إطلاق» التصرف الأخلاقي، وتؤدي دور الدوافع الأخلاقية التي تحدد جوهر السلوك الأخلاقي. إن الضمير وشعور الكبرياء والعطف على الآخرين تقف على حراسة تصرفات الإنسان وتنظم سلوكه في المجتمع.

أين يكمن جوهر المشاعر الأخلاقية، وما هو الشيء الذي يجعلها قاعدة أساسية لتحفيز السلوك السليم عند الطفل؟ تعبر المشاعر الأخلاقية عن موقف الإنسان من الناس الآخرين، ومن المجتمع والمهمات الاجتماعية التي يكلف بها، ومن شخصيته بالذات.

وانطلاقاً من المبادئ الأخلاقية المميزة لشخصيته يقوم الإنسان بتقويم سلوكه الذاتي وتصرفات الناس الآخرين وصفاتهم الأخلاقية، ويعيش هذه الأحاسيس أو تلك بمقدار ما تتناسب هذه التصرفات والصفات مع المعايير الأخلاقية السائدة. إن التقدير الإيجابي لتصرفات الإنسان من قبل من حوله يثير لديه مشاعر الرضا والسرور، أما التقدير السلبي فيسبب له المعاناة والخجل وتأنيب الضمير.

يمكن تصنيف المشاعر الأخلاقية وفق ثلاث مجموعات: المجموعة الأولى: وتشمل المشاعر التي تعكس نظرتنا وعلاقتنا بالظروف الاجتماعية التي نعيش ضمنها، كشعور حب الوطن والمشاعر الإنسانية وعدم التمييز بين مختلف الأمم. أما المجموعة الثانية: فتضم المشاعر التي تبرز في تعاملنا مع الناس الآخرين ومع الجماعة التي نعاشرها، كمشاعر الزمالة والواجب والتفاهم المتبادل والمسؤولية والارتياح والصداقة والارتباط والعطف والشفقة. وتحوي المجموعة الثالثة: المشاعر المعبرة عن نظرتنا لأنفسنا وتصرفاتنا، كالضمير والخجل والشرف وعزة النفس والكبرياء. إن المنبع الأساسي للمشاعر الأخلاقية هو حياة الناس الاجتماعية وعلاقاتهم المتبادلة وصراعهم المشترك من أجل بلوغ أهدافهم الواحدة.

ويتحدد المضمون الحقيقي للمشاعر الأخلاقية بتلك التقديرات والمبادئ الأخلاقية المميزة للعلاقات الاجتماعية الحقيقية السائدة في المرحلة التاريخية المحددة. فالشيء الذي يعتبر في وقت معين وظروف معينة معياراً للأخلاق، ويثير في النفس مشاعر الرضا والارتياح، يمكن أن يثير لدى الإنسان في ظروف أخرى

أحاسيس سلبية حادة. إن المعايير الأخلاقية الاشتراكية تؤكد أن إهانة المرء شيء محذر، أما في ظروف العلاقات الرأسمالية فيتشكل في الإنسان قبل كل شيء شعور الأنانية والاهتمام بالمصلحة الخاصة. إننا نقرأ كل يوم تقريباً في الجرائد، وأحياناً نرى أو نسمع روايات عن حقائق مذهلة تؤكد روح التعاون الرفاقي المتبادل بين أفراد المجتمع الاشتراكي، وتبين جاهزيتهم الدائمة لمد يد العون للإنسان الذي انتابته المصيبة.

ومن أهم المشاعر الأخلاقية التي تميز المواطن السوفيتي هو الشعور الوطني. إن حب الوطن هو شعور معقد يشمل فخر الإنسان بوطنه وشعبه واعتزازه بالمنجزات الثقافية والاجتماعية التي تحققت في بلده واحترامه لماضيه التاريخي العريق، وجاهزيته للتضحية بنفسه من أجل حريته. إن جميع هذه الجوانب التي تميز الشعور الوطني المتشعب تتأسس في نفس الإنسان منذ طفولته، فنحن نغني لطفلنا الصغير الأغاني الشعبية ونقص عليه الحكايا عن ماضي وطننا العريق، ونقرأ له كتباً عن أبطال الحروب الذين دافعوا عنه، ونحتفظ بصور ورسائل الآباء والأجداد الذين حاربوا العدو على جبهات القتال كأشياء ثمينة ومقدسة، وعندما يترعرع أطفالنا ويكبرون نقوم بالترحال في أرجاء الوطن الواسعة، ونتمتع بطبيعته الخلابة، ونتعارف مع أبناء قوميتنا. ويتعمق الشعور بحب الوطن في المدرسة، حيث يصبح بإمكان الطفل تلقي المعلومات المتنوعة عن ماضي بلاده وحاضرها وثقافتها وشخصياتها الفذة، وذلك عن طريق ما يسمعه من معلميه ويقرأه من كتب. وفي الوقت ذاته يشتد تدريجياً تعلق الطفل بمدرسته وبمدينته التي يعيش فيها. وهنا يأخذ بإبداء الاحترام للناس الذين يحيى بقربهم، ويختار لنفسه القدوة الحياتية، ويحلم أن يصبح شبيهاً بأبطال بلاده. إن افتخارنا بشعبنا ومنجزاتنا، وأحاديثنا التي تدور حول أعمالنا الإنتاجية وكرهنا الذي نكنه للعدو ينتقل إلى الطفل لينصب فيما بعد بالشعور الوطني العميق الذي ينشأ في نفسه، إن شعور الحب الثابت للوطن يصبح نظرة حياتية مبدئية عامة تميز شخصية الفرد وتحدد سلوكه وتصرفاته انطلاقاً من هذا الشعور.

إن شعور الواجب والمسؤولية أمام الوطن والمجتمع، هو أيضاً شعور أخلاقي بالغ الأهمية. الواجب: هو قبول الإنسان الحر بالالتزامات الاجتماعية والشخصية،

والتقيد بالمتطلبات الجماعية الضرورية ويمكن التحدث عن التصرف في سبيل الواجب في تلك الحالة فقط، والتي تتطابق فيها الواجبات الخارجية مع رغبات المرء الداخلية، ومع اهتمامه بإنجاز ما هو مطلوب منه، ويعتمد شعور الواجب في أساسه على فهم ضرورة العمل وفق مصالح تلك الجماعة التي يعيش الإنسان ويعمل ضمنها، ويمكن لهذا الوعي لضرورة القيام بهذه المهمات أو تلك أن يتشكل لدى الطفل إذا اضطلع الأهل بأنفسهم بتنفيذ مثل هذه المهمات، وإذا تميزوا أنفسهم بالإحساس بشعور الواجب. ولنحاول فهم هذه الحالة عبر المثال البسيط التالي: طلبت المعلمة من التلاميذ إحضار بذور الأزهار والأغراس والأصص المزروعة بالورود لأن المدرسة تهيئ للقيام بيوم عمل طوعي. ولهذا يتوجب على جميع التلاميذ زراعة الأزهار في الأحواض وغرس الأشجار حول المدرسة، وتزيين حواف النوافذ بالأصص المزروعة بالزهور، وبالطبع فليس باستطاعة الطفل الحصول على الأغراس وأصص الأزهار بنفسه، إذ يتوجب على الأهل مساعدته. فالذي يدرك أهمية تنمية شعور الواجب في الطفل وإحساسه بالمسؤولية سوف يسعى على الفور لشراء هذه الحاجات ومساعدة الطفل في تقديمها إلى المدرسة، فيتمكن التلميذ من تقديم ما طلب منه دون تأخير، وهذا ما يجنبه الشعور بالقلق من التعرض لنظرات اللوم من قبل زملائه، ويزرع في نفسه في الوقت ذاته عناصر الانضباط والسلوك المستقيم، بالإضافة إلى ذلك سوف يسعد الطفل برؤية الغرسة التي زرعها بيديه وهي تنمو ومشاهدة الورود التي أحضرها بنفسه قد أزهرت. فتظهر لديه الرغبة بسقاية هذه الشجرة والسعي لرعاية تلك الورود حتى لا تذبل، إن شعور الواجب يلقى تجسيداً حقيقياً في التصرف والفعل، وهذا هو الجانب الأهم من الجوانب المكونة لأخلاقية الفرد بالطاعة وحدها. فالمعرفة المجردة للمعايير الأخلاقية لا تكفي، وإنما ينبغي وجود التصرف الأخلاقي الحقيقي والممارسة العملية له، لذلك يمكن القول بكل ثقة إن مضمون المشاعر يتحدد بمنحاها الفكري، ويمكننا التحدث عن مشاعر الإنسان الأخلاقية، إذا ارتبطت هذه المشاعر مع الفعل الاجتماعي الضروري وتطابقت مع الطموحات الأخلاقية السامية للشخصية، ذكر م. غ. كالينين: «أن تعيش حياة فكرية واسعة، يعني أن تعيش وتكافح من أجل المصالح الاجتماعية

لتلك الطبقة الكادحة والتقدمية الموجودة في عصرنا الراهن، أي مصالح جميع العاملين والمواطنين السوفييت، الذين يعيشون في وطننا الاشتراكي، فإذا كرستم أنفسكم من أجل خدمة هذه المصالح، وكانت جميع أفكاركم موجهة من أجل الارتقاء بشعبكم إلى درجات جديدة من التقدم والعظمة، وإذا عقدتم العزم على تقديم جميع ما لديكم من طاقات في سبيل نصرة هذه الأهداف التي يضعها الوطن أمامكم، فإنني لا أشك بأنكم سوف تعيشون حياة عظيمة».

إذاً فالمشاعر الأخلاقية هي نفوذ المرء إلى أعماق هموم الجماعة التي يحيى ضمنها، وتعكس موقفه تجاه واجباته الاجتماعية، كما تشمل نشاطه كمواطن وشعوره الوطني، وتتشكل هذه المشاعر المعقدة جميعها داخل الأسرة. إن الموقف الذي نتخذه تجاه الأحداث الجارية في بلادنا وتقديرنا لها وطريقتنا في التحدث عنها حين نفتخر بشيء ما ونشعر بالمعاناة والأسى بسبب شيء آخر ونخجل لأمر ثالث، كل ذلك يترك آثاراً عميقة في نفس الطفل ويساهم في توليد مشاعر الفخر والاعتزاز بالوطن والرغبة لديه في المساهمة في قسط ذاتي من أجل تقدمه ورفعته. إن الإطار الذي نفهم ضمنه واجبنا الوطني، ويعكس مدى نشاطنا في المواقف الوطنية ينتقل بالتأكيد إلى أبنائنا، إننا ننظر بقلق واهتمام، تجاه بعض الإهمال الذي نلاحظه في المؤسسة التي نعمل فيها، ونتوقف للقيام بالمهمات الملقاة على عاتقنا بشرف وإخلاص. وهذا السلوك يصبح دافعاً لسلوك مماثل من قبل الابن الشاب مع المجموعة التي يتلقى العلم فيها وتجاه اهتماماتها المشتركة، فمثل هذا الشاب لن يلجأ إلى التحايل للحصول على تقارير طبية مزيفة من أجل التخلص من الأعمال المجهدة، التي يقوم بها التلاميذ أثناء مساعدة المزرعة التعاونية بجني المحاصيل، ولن يتخذ موقفاً متخاذلاً عندما يقوم جميع تلاميذ الصف بإدانة الزميل الذي شذ عن قواعد السلوك السليم، وسيكون في وسط الأحداث والأعمال الاجتماعية على الدوام، لأن والده وأمه كانا كذلك من قبله، ومثل هذا الشاب لن يقع تحت تأثير الأفكار المريضة المستهترة التي تنتقص من شأن كل ما هو وطني وتمجد كل شيء أجنبي لأنه لا يسمع في أسرته أي شيء من هذا القبيل، بل يسمع نصائح والده وهو يقول: إن جوهر الحياة في العمل المثمر، فلتقم بعملك بشرف وإخلاص حتى

لا تخجل فيما بعد أمام الآخرين، وكي لا تشعر بتأنيب الضمير، فبك وبالكثير من أمثالك وبعملنا وكدنا جميعاً تتعلق سلامة ورفعة الوطن، ونلاحظ مرة أخرى أن سلوكنا الشخصي وتعاملنا الصحيح مع الممتلكات العامة وموقفنا تجاه العمل تصبح القدوة التي يحتذي بها الطفل في تربية صفاته الأخلاقية والوطنية.

بيد أن مثال الأهل ليس هو العامل الوحيد الذي يساهم في تشكيل الأسس الأخلاقية في سلوك الطفل، إذ إن تشكل المشاعر الأخلاقية والسلوك الأخلاقي الموافق لها يتحدد بعوامل كثيرة أخرى، وبالدرجة الأولى باهتمام الوالدين الشديد بمشكلات الطفل، وبرغبتهما الشديدة في تنمية الأسس الأخلاقية في سلوكه، ولا تقل أهمية في هذا المجال منظومة تربية حب العمل عند الطفل.

إن تربية المشاعر وبشكل خاص المشاعر الأخلاقية، هي عملية بالغة التعقيد والصعوبة إذ لا يمكن اعتبار الطفل مجرد مادة لدنة نستخدمها لتطبيق أفعالنا التربوية. ولا يمكن الافتراض بأنه يكفي تحديد الهدف الذي نصبو إليه، ثم السعي بخط ثابت لتحقيقه. وسيكون كل شيء على ما يرام، فنحصل على تربية ممتازة للطفل، ولا يكفي أن نكون أشخاصاً فاضلين ومتقيدين بقواعد السلوك السليم حتى يأخذ أبناؤنا بتقليدنا في جميع تصرفاتهم، فلو كان الأمر كذلك لما ظهرت الدموع أبداً في عيون الوالدين، ولما كان هناك قلق وتأنيب ومصائب. ولكن للأسف، فإن الإخفاقات في تربية الأطفال تحدث في الأسر الناجحة والمتماسكة، فمع ازدياد مخالطة الطفل للناس الآخرين يأخذ بتشكيل وجهة نظره الأخلاقية الخاصة وأفكاره وتطلعاته التي تتكرس تدريجياً لتأخذ في التحكم بتصرفاته وسلوكه. فإذا نحن لم نلحظ هذه الفترة العابرة من حياة الطفل، التي تتحول فيها نظراته الأخلاقية البسيطة إلى مشاعر ثابتة ودوافع مستقبلية قوية لتحديد تصرفاته، فسيكون من الصعب جداً فيما بعد التحكم بسلوكه، ولا سيما عندما تصبح هذه التصورات الثابتة معاكسة لمعتقداتنا وتصوراتنا الحياتية.

ولهذا السبب لا يجب أن يكون اهتمامنا بالطفل بالأمر الإجباري أو المصطنع ولا بالنظرة السلبية الخاملة والمتسببة، عند ذلك يمكننا أن نكتشف في الوقت المناسب أي المظاهر غير الصحية في سلوك الطفل ونفسيته ونتمكن من معالجتها.

وهكذا قمنا باستعراض بعض الجوانب الأكثر أهمية، من وجهة نظرنا، في تربية المجال الانفعالي من شخصية الطفل، ولفتنا الأنظار إلى الصعوبات الجمة التي تعترض تنفيذ هذه المهمة، وتوقفنا عند تلك الإمكانيات الإيجابية للتربية، التي تخفي في جوانبها المشاعر المختلفة وبالدرجة الأولى المشاعر الأخلاقية والذهنية والجمالية وربما بالغنا في إظهار محاسن أو مساوئ أمر ما، وقصدنا لفت الانتباه الشديد نحو أحد الجوانب والأمثلة السلبية، إلا أن ذلك يمكن تبريره بتوقنا الشديد للكشف عن هذه الأخطاء التربوية التي تحدث في الأسرة، ونحن على كامل الثقة بأن الوالدين يؤديان الدور الأساسي في توجيه وتربية الطفل، إذ إن شخصية الطفل الاجتماعية المستقبلية تتعلق قبل كل شيء بالأسرة التي ينشأ ويترعرع فيها والأهداف التي تضعها ومدى متانتها وترابطها والأسس الأخلاقية التي تقوم عليها.

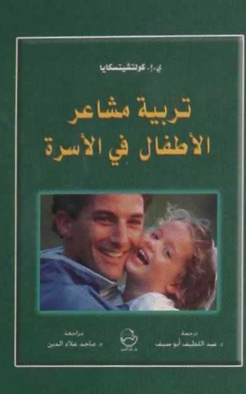
الفهرس

من منشورات دار علاء الدين

- كيف نعتني بالطفل وأدبه
  ـــــــــ اسماعيل الملحم
- مسائل تربوية
  ـــــــــ محيي الدين يوسف الجردي
- كيف نعلم الأطفال التعاون الاسترخاء حب المعرفة اكتساب الخبرة العشرة التوافق
  ـــــــــ كلاوس فوبيل
- كيف نعلم الأطفال التعاون العدوانية والغضب تحقيق النجاح زيادة احترام الذات التعاون مع الأتراب حل المشاكل والخلافات
  ـــــــــ كلاوس فوبيل
- دراسات عائلية مدخل تمهيدي
  ـــــــــ جون برنلوزيك
- كيف تعلمون أطفالكم الفرح سلسلة تربية الأطفال
  ـــــــــ ليندا و ريتشارد آير
- كيف تعلمون أطفالكم تحمل المسؤولية سلسلة تربية الأطفال
  ـــــــــ ليندا و ريتشارد آير
- كيف تعلمون أطفالكم مراعاة الآخرين سلسلة تربية الأطفال
  ـــــــــ ليندا و ريتشارد آير
- تنشيط قدرات الطفل على التعلم
  ـــــــــ إسماعيل الملحم
- دليل المعلم إلى التربية وعلم النفس
  ـــــــــ ل. ن فريدمان، ي. يوكولا غينا
- المعلمون في مواجهة الظواهر التربوية
  ـــــــــ انطوان دي لاغار انديري
- ثلاث خطوات لتكوين أسرة قوية
  ـــــــــ ليندا و ريتشارد آير
- الأطفال في سن مبكرة في رياض الأطفال
  ـــــــــ ك. ل. بتشورا
- كيف نعلم الأطفال التعاون إتقان الاستماع إلى الآخرين التخيل الثقة بالناس التعاطف تطوير الأهلية الداخلية
  ـــــــــ كلاوس فوبيل
- كيف نعلم الأطفال التعاون الإنتماء إلى المجموعة إتقان التواصل مع الآخرين الإدراك الحسي المودة لتقييم الذاتي
  ـــــــــ كلاوس فوبيل
- التربية السليمة للطفل في سنواته الأولى
  ـــــــــ موريس لين، موريس بيير جيرون
- كيف يتكلم الأطفال خلال السنوات الثلاث الأولى من الحياة سلسلة تربية الأطفال
  ـــــــــ روبرتا مكنك غولنكوف
- كيف تعلمون أطفالكم مكارم الأخلاق سلسلة تربية الأطفال
  ـــــــــ ليندا و ريتشارد آير
- كيف نعلم أطفالنا طرق التفكير سلسلة تربية الأطفال
  ـــــــــ ميرنا ب. شوريه
- المربية المبدعة
  ـــــــــ جو فروست
- تعلم الطفل في الأسرة والمدرسة
  ـــــــــ اسماعيل الملحم
- كيف نحافظ على صحة أطفالنا ونقويها
  ـــــــــ ن. ي. سينياغينا، ي. ف. كوزنيتسوفا

من منشورات دار علاء الدين

- كيف نعتني بالطفل وأدبه
  اسماعيل الملحم
- مسائل تربوية
  محيي الدين يوسف الجردي
- كيف نعلم الأطفال التعاون الاسترخاء حب المعرفة اكتساب الخبرة العشرة التوافق
  كلاوس فوبيل
- كيف نعلم الأطفال التعاون العدوانية والغضب تحقيق النجاح زيادة احترام الذات التعاون مع الأتراب حل المشاكل والخلافات
  كلاوس فوبيل
- دراسات عائلية مدخل تمهيدي
  جون برنلوزيه
- كيف تعلمون أطفالكم الفرح سلسلة تربية الأطفال
  ليندا و ريتشارد آير
- كيف تعلمون أطفالكم تحمل المسؤولية سلسلة تربية الأطفال
  ليندا و ريتشارد آير
- كيف تعلمون أطفالكم مراعاة الآخرين سلسلة تربية الأطفال
  ليندا و ريتشارد آير
- تنشيط قدرات الطفل على التعلم
  إسماعيل الملحم
- دليل المعلم إلى التربية وعلم النفس
  ل ن فريدمان، ي يوكولا غينا
- المعلمون في مواجهة الظواهر التربوية
  انطوان دي لاغار انديري
- ثلاث خطوات لتكوين أسرة قوية
  ليندا و ريتشارد آير
- الأطفال في سن مبكرة في رياض الأطفال
  ك ل بتشورا
- كيف نعلم الأطفال التعاون إتقان الاستماع إلى الآخرين التخيل الثقة بالناس التعاطف تطوير الأهلية الداخلية
  كلاوس فوبيل
- كيف نعلم الأطفال التعاون الإنتماء إلى المجموعة إتقان التواصل مع الآخرين الإدراك الحسي المودة لتقييم الذاتي
  كلاوس فوبيل
- التربية السليمة للطفل في سنواته الأولى
  موريس لين، موريس بيير جيرون
- كيف يتكلم الأطفال خلال السنوات الثلاث الأولى من الحياة سلسلة تربية الأطفال
  روبرتا مكنك غولنكوف
- كيف تعلمون أطفالكم مكارم الأخلاق سلسلة تربية الأطفال
  ليندا و ريتشارد آير
- كيف نعلم أطفالنا طرق التفكير سلسلة تربية الأطفال
  ميرنا ب . شوريه
- المربية المبدعة
  جو فروست
- تعلم الطفل في الأسرة والمدرسة
  إسماعيل الملحم
- كيف نحافظ على صحة أطفالنا ونقويها
  ن ي سينياغينا، ي ف كوزنيتسوفا



تربية مشاعر الأطفال في الأسرة

إذا كانت المشاعر هي العلائق التي تربط الإنسان بمحيطه وتحدد صيغة التفاعل مع هذا المحيط، فإن هذا الكتاب يعد الأول بتخصصه بتربية مشاعر الأطفال في شتى مراحلهم العمرية، مع التركيز على نمو مشاعر الطفل الرضيع ودور الانفعالات الإيجابية في نمو شخصيته وتكوّن عالمه الداخليّ. كما يدرس شعور الغضب وأسبابه ونتائجه، والمشاكسة والشعور بالأنا، والثقة والنجاح والفشل وآثارها على النشاط المتلاحق للإنسان.

كما يقدم النصائح اللازمة لتجاوز العقد الشخصية والخجل، والإرشادات المهمة لتهذيب العواطف وبناء مشاعر أخلاقية نبيلة.

يفيد هذا الكتاب الأسرة والمربين في دور الحضانة والمدارس كافة، وطلاب كليات التربية وجميع العاملين في هذا المجال.

يطلب الكتاب على العنوان التالي: دار علاء الدين للنشر والطباعة والتوزيع - سورية - دمشق
ص.ب. ٣٠٥٩٨ - هاتف ٥٦١٧٠٧١ - فاكس ٥٦١٣٢٤١ - بريد إلكتروني ala-addin@mail.sy